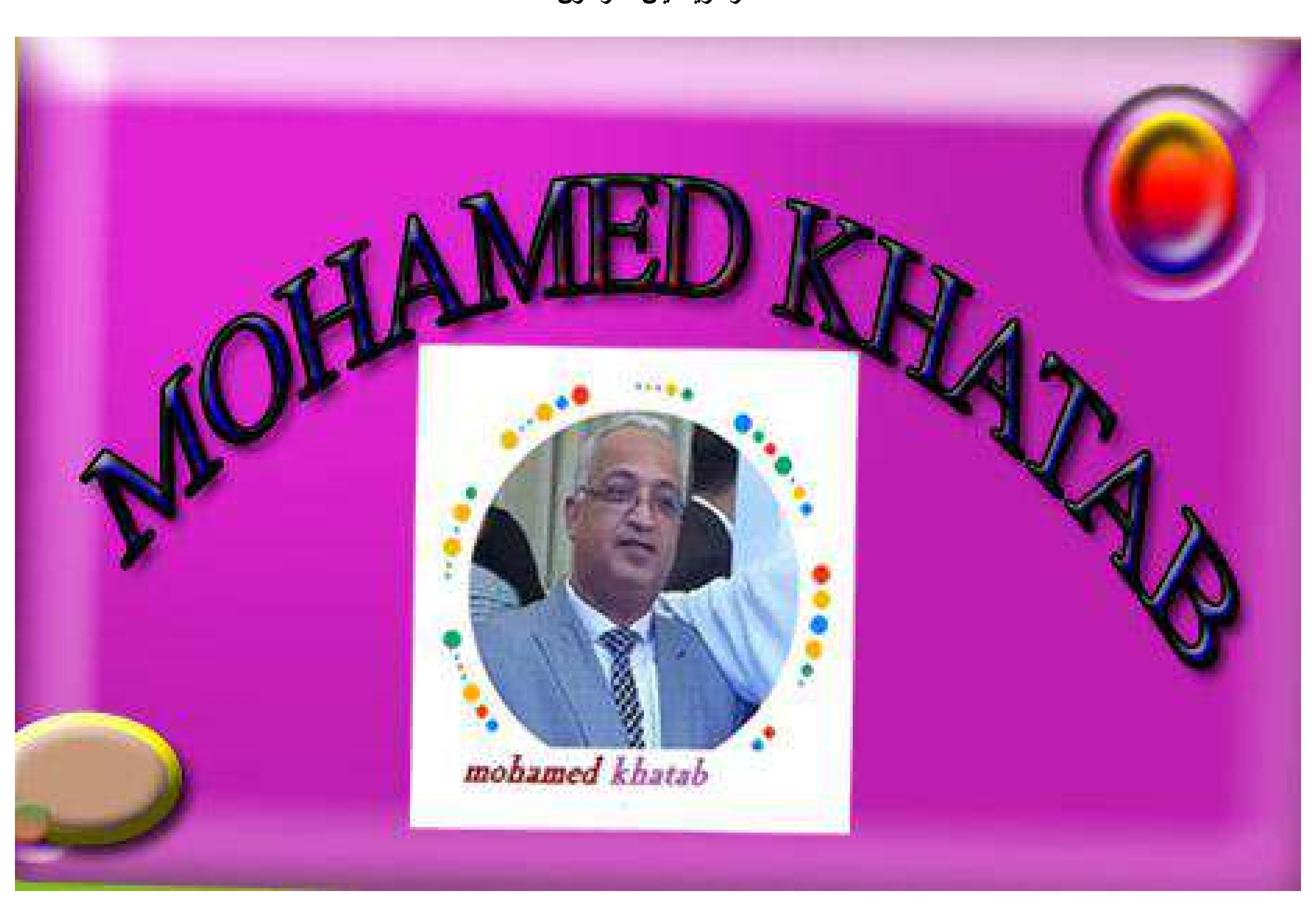

رواية
ترجمت
الرواية إلى
16 لغة
دراجو يانتشر
تلك الليلة
ترجمة: أمل الشربيني

تلك الليلة

دراجو يانتشر

«قصصنا الخيالية كتبها الواقع»

هانز كريستيان أندرسون-



(١)

رأيتها تلك الليلة وكأنها من دم ولحم! كانت تمشي في ممر الثكنة العسكرية بين طوابق الأسِرّة التي ينام عليها زملائي الضباط وهم يتنفسون بهدوء وسلام. ثم وقفتْ إلى جوار سريري وحدّقتْ بي بنظرة شاردة تائهة. كانت نفس النظرة التي اعتادت أن تنظر بها إليّ في الليالي التي جافاها النوم بها، لتهيم في أنحاء شقتنا بماريبور دون هوادة، فتقف أولًا في النافذة، ثم تجلس بعدها في الفراش، ثم ما تلبث أن تعود مرة أخرى إلى النافذة. وأسمعها تسألني:

«ما بك يا ستيفن؟ هل جافاك النوم أنت أيضًا؟».

صوتها كان رخيمًا، عميقًا، هادئ النبرة، حتى بدا لي كأنه أشبه بصوت ذكوري، لكن -إلى حد ما- دون ملامح تحدده. كنت متفاجئًا من هذا الصوت لأنني أعرف صوتها جيدًا، وهو مختلف عنه تمامًا. أعرفه رغم أن أثره تضاءل ونبرته خفتت على مدى المسافات التي قطعتها السنوات الماضية. ما زلتُ أستطيع استرجاع تفاصيل ملامحها كلما أردت؛ عينيها، شعرها، شفتيها، وجسدها أيضًا. نعم! جسدها الذي تمدد إلى جواري منقطع الأنفاس أكثر من مرة. لكنني لم أسمع صوتها في أي من تلك المرات. أول ما تفتقده في شخص انقطعتَ عنه لفترة طويلة هو صوته؛ نبرته، لونه، قوة اهتزازه. لم أرها منذ فترة طويلة، تقريبًا منذ سبعة أعوام. انتابتني رعشة، على الرغم من أنها كانت آخر ليلة في مايو، تقريبًا نهاية ربيع عام 1945، حتى إن كل ما في الطقس كان صيفيًّا، والجو خارج الثكنة دافئًا، وداخلها سرتْ أنفاس العديد من الرجال النائمين بشهيقها وزفيرها المتواصلين. إلا أن هذا الخاطر قد جعلني أرتعش. على مدى سبعة أعوام لم تغنِّ فيرونيكا حبيبتي سوى مرة واحدة تلك الأنشودة الفلكلورية السلوفينية «سنتقابل مرة أخرى» التي أحبتها كثيرًا وتذكرتها في لحظات الحنين إلى الوطن. حينها أيضًا اعتادت أن تنظر لي نفس النظرة الخاوية التي ترمقني بها الآن. الله وحده يعلم متى كانت ستنتهي تلك السنوات السبع. أردت أن أقول لها إن مجيئها حدث سعيد جدًّا بالرغم من وقوعه بعد مرور سبع سنوات. وأن أخبرها أن فراناتس لم يزل معي إذا أرادت رؤيته. وأنه الآن يقضي الوقت مع خيول الضباط داخل الإسطبل، ويستمتع بذلك. وأنه يستطيع أن ينطلق راكضًا في المروج، ولم يعد مضطرًّا للبقاء في حظيرة ما. فقد حظي بصحبة جيدة، رغم أنه ما زال مفتقدًا لمسة يدك التي طالما مسحتْ على جسده. تمامًا كما أفتقدها أنا. أردت أن أقول الكثير، لكن صوتي احتبس في حنجرتي، ولم يخرج منه سوى قرقرة غير مفهومة صعدت إلى فمي بدلًا من الكلمات التي أردت قولها. لقد تخيلتك تسكنين قصرًا في سفوح الجبال السلوفينية، ولمّا رأيتك، أردت أن أسألك عن السبب الذي أتى بكِ إلى هنا.

مددتُ يدي لألمس شعرها، لكنها أزاحت جسدها بعيدًا عن متناولي، وقالت:

«لا بدَّ أن أذهب الآن، ستيفن، أنت تتفهم لم لا أستطيع البقاء».

فهمتُ بالطبع أنها لا تستطيع البقاء، كما لم تستطع البقاء قبل سبع سنوات حين رحلت عن شقتنا في ماريبور للأبد. إذا لم يكن بمقدورها البقاء هناك، كيف يمكنها البقاء هنا في ثكنة معسكر سجن، وفي وسط ضباط جيش جلالته المستغرقين في النوم، بينما تراقبهم على الجدار صورة معلقة للملك الشاب يرتدي زي ضابط ملازم الحرس. ترتكز إحدى يديه على مقبض سيفه. إنها صورة لملك محروم من مملكته، وسط مجموعة من الموالين محرومين من وطنهم. فجأة، صهل أحد الخيول،

أكاد أقسم إنه فراناتس. لربما مرت عليه في طريقها لتراه قبل أن ترحل إلى الأبد. ربما صهل فراناتس في سعادة حين شعر بحضورها. ربما وضعت يدها على منخاريه كما تعودت، وهي تقول:

«فراناتس، سأضع عليك السرج الآن».

حدث ذلك في الليلة الماضية، والآن فقد أشرق صباح يوم جديد، وبدأ يعلو صوت نداء استدعاء ضباط المعسكر ليتقدموا في جماعات لتحية العلم. ما زلنا نرفع علمنا كل صباح، رغم أن جيشنا منزوع السلاح، بينما يروح الضباط الإنجليز جيئةً وذهابًا على مقربة من بوابة المعسكر، متململين، يراقبون فوضوية الصباح، وجنود جلالته الذين لا يملكون السلاح وهم يخرجون من خيامهم، والضباط يخرجون من ثكناتهم، مستعدون للقيام بأي هجوم مضاد على الجبال السلوفينية، وإلى ما وراء الحدود الداخلية، في غابات البوسنة حيث تعاود قواتنا تجمعاتها كما يذكر في التقارير، ويتم اتخاذ الاستعدادات للقيام بحرب عصابات ضد النظام الشيوعي الجديد. لكنني حين أنظر إلى هذا الوجه في المرآة أرى أن لا شيء قد تبقى؛ لا فيرونيكا، ولا الملك، ولا يوغوسلافيا، وأن العالم تحطم وتحول إلى شذرات تشبه تلك الشروخ على المرآة التي أمامي، وتبدو فيها أجزاء من وجهي غير الحليق ينظر لي في المقابل كلما نظرت له. ليست لديّ الرغبة في وضع رغوة الصابون على وجهي وحلق ذقني، ولا أن أضع الأحزمة على كتفي، وأجمع شتات نفسي وأتجه نحو التجمعات الصباحية. أنظر إلى هذا الوجه الذي مالت فيرونيكا بجسدها نحوه الليلة الماضية، وأتساءل كيف تمكّنتْ من التعرف عليه مع كل هذا التغيُّر الذي أصابه. هل ما زلت أنا الرائد ستيفن رادوفانونفيك قائد الكتيبة الأولى لفرقة سلاح الفروسية، ومن قبل كابتن فرقة الدرافا الذي هجرته زوجته في ماريبور، وسخر منه جنوده من خلف ظهره؟ الآن، لم يعد يسخر منه أحد. الآن، لا يسخر أحد من أحد، لأن لا أحد يشعر بأي رغبة في الضحك. يبدو الجميع في الوقت الحاضر جديرًا بالشفقة. الشفقة على هذا الجيش الذي هُزِم وأُخرج من دياره بواسطة الرجال الشيوعيين المتوحشين الذي يجهلون كل شيء عن التخطيط العسكري والتسليح. هل يمكن اعتبار هذا الوجه هو وجهي بالفعل؟ تلك العيون، هذا الأنف، وهاتان الوجنتان اللتان تخط فيهما شروخ المرآة المعلقة فوق حوض الثكنة مساراتها؟ هذه الهالات البارزة أسفل عيني تسبب بها الأرق الذي أصابني في ليالٍ عديدة، والشعر الأبيض الذي سرى في الفَودين، والشفتين المتشققتين والثغرات السوداء في فراغات الأسنان المصفرة، وهذه الثغرة التي حلت محل أحد الأسنان، والتي كانت لم تزل في مكانها منذ أقل من شهر، قبل أن تنفجر قذيفة هاون من موقع ما على التلال، حول منطقة إدريا، وأصابت جدار منزل أحد الفلاحين، وتناثرت منها شظية حديد أو صخرة لتتجه مباشرة إلى فمي، وتسيل منه الدماء على الفور. واكتشفتُ —والحمد لله- أن كل ما تسبب فيه الجرح هو كسر سن أمامي، وتمزيق الشفتين، لتصبحا الآن مشقوقتين. وفي الفك الأمامي، سن مفقود في مكان ما بالقرب من الحدود مع إيطاليا، وفي الاتجاه الذي كنا نتقهقر نحوه لنعيد تنظيم صفوفنا. هكذا أُمرنا حتى يمكننا القيام بهجوم مضاد، كما قيل لنا. ثم بعد ذلك في بالمانوفا، استسلمنا، هكذا، بمنتهى البساطة. وماذا في مقدورنا أن نفعل غير ذلك؟ كل هذا بالرغم من أنه قد قيل لنا إن الإنجليز حلفاؤنا، وإنهم سيشتركون معنا في هجوم مضاد على الشيوعيين. احتفظنا بأسلحتنا لبضعة أيام، ثم أتى الأمر أن نقوم بتسليمها. بمعنى آخر، تركهم الإنجليز ينزعون منا سلاحنا بكل خزي وعار. غير أنه قد سمح للضباط أن يحتفظوا بأسلحتهم الخفيفة، ولكن بلا ذخيرة. وبعدها بأيام قليلة، أخذوا

الأسلحة الخفيفة أيضًا، والتي كانت تحفظ لنا ما تبقى من ماء الوجه والكبرياء والشرف. نحن لم نعد جيشًا منذ ذلك الحين، تلك هي النهاية. نهاية مملكة يوغوسلافيا. نهاية العالم.

منذ سبع سنوات، حين رحلت فيرونيكا عن ماريبور، كانت المرة الأولى التي شعرت فيها أن العالم انتهى. ولكنني الآن أرى أنها لم تكن سوى مجرد لحظة معاناة خاصة ضئيلة جدًّا. استمرت الحياة بعدها، والجيش الذي أنتمي إليه روحًا وجسدًا لم يزل موجودًا، بنظامه وانضباطه، وبسلاحي المدفعية والفروسية اللذين اشتهر بهما، وقوات المشاه. الأجيال التي أحاط بها مجد معارك سير وكولوبارا. كنا نحن أحفاد وورثة النصر الصربي، أحد أهم الانتصارات العظيمة في تاريخ أوروبا. كنا نحن الضباط أينما ذهبنا يحترمنا الجميع ويقدرنا. كان العالم لم يزل قائمًا بأكمله، ورغم رحيل فيرونيكا، كان للحياة معنى. الثكنات، المناورات- قيام الواحد منا بواجبه كفيلًا عندئذٍ بتحييد الأحزان الشخصية وجعلها أمورًا ثانوية، وبأن يشعرنا بالفخر. الدفاع عن الوطن يمنحنا شعورًا بنبل الغاية. وبالمقارنة بكل ذلك، فإن كل فقد شخصي لا يكون سوى أمر يأتي في مرتبة ثانية. لقد كنت ضابطًا مثاليًّا ونموذجًا يحتذى به، وأنا صادق تمامًا في ما أدعيه عن نفسي. لقد اجتزت جميع الاختبارات العامة والخاصة بالأكاديمية بامتياز. وكذلك حققت النجاح في جميع المناورات التي تكررت باستمرار أثناء تلك السنوات، ونالت الوحدة العسكرية التي كنت أنتمي إليها أعلى درجات التقدير.

في ربيع عام 1937، تم نقل فرقة الفروسية الخاصة بي من مدينة نيش إلى ليوبليانا. إن ذلك في الحقيقة جزء من محاولة لتعزيز فرقة الدرافا التي كانت قوتنا الدفاعية الوحيدة بطول الحدود الشمالية والغربية للمملكة أثناء وقوع الأحداث السياسية في ألمانيا. هناك أبليت بلاءً حسنًا، بالضبط كما تعودت في كل موقع أُبعث إليه. فحياة الجندي لا يجوز أن تكون داخل المدن حيث قلما يتردد على مسكنه، بل لا بدَّ أن تكون في الثكنات، وفي العروض العسكرية، ومع أفراد الجيش.

اقتصرت حياتي على الجيش والخيل. لا بدَّ أن أعترف أنني كنت أفضل فارس في الوحدة التي كانت تحت قيادتي. عملي لم يكن يشبه عمل ضابط قائد يعطي الأوامر من مكتبه، أو في الخارج أثناء المناورات من إحدى السيارات، وإنما كنت ضابطًا قائدًا يتقدم فرقته على ظهر فرس، وهذا بالفعل أمر شديد الاختلاف. لم أطلب من جنودي أكثر مما أقوم أنا به. التدريبات العسكرية المتواصلة على ركوب الخيل برشاقة ومهارة، والاهتمام والاعتناء بها، وبنظافتها، وتحميمها بالماء العذب وتصفيف شعرها بفرشاة اليد التي لم تقل أهمية عندي عن أهمية سحب السيوف من أغمادها في إحدى المهمات، أو إتقان سحب البندقية من جرابها وإطلاق النار منها أثناء ركوب الخيل. سلاح الفروسية هو الفرع الأنبل في أي جيش، فيمكن للفرسان أن يبصقوا على المشاة، كما اعتاد الرائد آليتش أن يقول في الأوقات التي مر فيها بحالة مزاجية جيدة. في تلك الأوقات حين ردد جملته الشهيرة هذه، تصادف دائمًا مع وجود شخص ما يضيف إلى جملته هذه الجملة: «وأن يتبولوا عليهم أيضًا».

كنا في حالة مزاجية جيدة، وكنا فخورين باعتبارنا من جيوش الأولن البولندية، أشجع سلاح فروسية خفيف التسليح عرفه العالم. إضافة إلى كل ذلك فقد كنت مولعًا بتربية الخيول، وقد ركبت الخيل لأول مرة في سن السابعة من عمري. فقد كان والدي تاجر خيول، وكنت منذ الطفولة أعتني بخيوله وأتحدث إليها. لذلك فأنا لم ألتحق بسلاح الفروسية على سبيل الصدفة، ولا بسبب تلك

الأحداث التي وقعت في ليوبليانا، إذا ذكرت ذلك في نفس السياق. حين قابلت فيرونيكا وقدمني إليها زوجها بعد أن قدمني إليه بدوره رئيس الرائد آليتش. أذكر تفاصيل ذلك الصباح الصيفي جيدًا: في طقس حار، خرجت راكبًا فرسي ومرتديًا قميصي ذا الأكمام القصيرة لأشرف على تدريبات فريقي في حلبة الفروسية. ثم جعلت رجال فريقي يسيرون على خيولهم في تشكيل دائري، بعدها ترجلوا، ليصطحبوا الخيل إلى الإسطبل حتى يقوموا بغسل أجسادها وإزالة بقع الطين عن ظهورها، خاصة في المواضع التي تكون أسفل السرج. على أن يستخدموا الماء العذب في تحميمها، ثم يبدؤوا تمشيط شعورها وتصفيفه. ولا أنسى حين أعطيهم الأوامر أن أسألهم دائمًا: «هل فهمتم ما المطلوب منكم؟» ذلك لأنهم كسالى، وبالأساس فإن جميع المجندين الجدد يكونون كسالى، وما إن يضعوا الخيول في الإسطبل، حتى يركنوا إلى أي مكان فوق الحشائش ليستلقوا فوقه، أو يرقدوا في ظل الإسطبل. وحتى لو أن المكان من حولهم ممتلئ ببراز الخيل، فإنهم لا يهتمون. كنت في هذا اليوم على وشك أن أشرح لهم أهمية رعاية خيولهم بأنفسهم في نفس اللحظة التي ظهر فيها شخص جاء إليّ برسالة من طرف الرائد آليتش، وقام بتحيتي وأخبرني أن الرائد يريد مني الحضور إلى المقر الرئيس.

وبصوت ذي نبرة جادة، سألني ما إذا كنت مستعدًّا لقبول أداء مهمة خاصة، وكنت دائمًا في وضع الاستعداد لقبول أي مهمة. كانت المهمة امرأة شابة زوجة لأحد أصدقاء الرائد، وهو أحد السادة المحليين من رواد المجتمع، ويملك فرسًا إنجليزيًّا أُهدي إليه. أرادت امرأته الشابة أن تتعلم ركوب الخيل لتمتطي الفرس الإنجليزي. لاحظتُ أن الضابط الإداري والموظف اللذين كانا يراقبان الموقف كتما الضحك حتى لا ينفلت منهما. قال الرائد آليتش:

بدلًا من أن تضيع وقتك مع المجندين الأغبياء، ستصبح معلم فروسية لفترة ما.

الحقيقة لم أكن مستاءً من العمل مع المجندين الأغبياء الذين كانوا سرعان ما يتحولون ـبفضل إرشادي- إلى فرسان مهرة. ما يسيئني في الحقيقة هو فكرة أن أصبح معلمًا لدى امرأة شابة ثرية ومدللة. على كلٍّ، فقد اجتزت جميع الاختبارات العامة والخاصة بالأكاديمية، بدرجة الامتياز، من أجل أن أخدم ملكي ووطني.

«هذه طريقة مختلفة لخدمة ملكك ووطنك». قال لي آليتش وكأنه قرأ أفكاري.

على أي حال، لن يستغرق الأمر أكثر من شهرين، بعدها أعود إلى مناورات فرقتي الخريفية. قلت له إنني تحت أمره، فماذا يمكن للجندي أن يقول غير ما قلته؟ نظر إلى عيني للحظات، وقال لي بنبرة أبوية وكأنه على وشك أن يرسلني إلى أرض المعركة:

«ستيفان، يا بني! هناك درس أريد أن أعلمه لك عن شرف الضابط! هل تعرف ما هو شرف الضابط؟».

فهمت ما أراد أن يتحدث عنه. لقد أراد أن يخبرني أن معاملة المرأة باحترام هو ما يلزمني به شرف الضابط. قلت له:

أعرف!

أجابني ضاحكًا أنني ما دمت أعرف فإن كل شيء سيكون على ما يرام. حين رأى الضابط الإداري

أن الجزء الرسمي من المقابلة قد انتهى، وأن الرائد في حالة مزاجية جيدة، أضاف:

كن حذرًا حتى لا يعضك تمساحها!

في أعقاب ما أضافه، ضحك الثلاثة، فسألت «أي تمساح؟» فقال لي آليتش: سترى بنفسك. انصراف، يمكنك الذهاب!

قبل أن أبدأ تأدية مهمتي الخاصة، في إطار التفاني في خدمة ملكي ووطني، اضطررت إلى مقابلة زوج تلميذتي المستقبلية. تقابلنا في مقهى (يونيون كافيه). بالطبع هو يستطيع أن يدعوني إلى منزله -هكذا قال- ولكنه أراد أن يراني أولًا. رجل طويل ونحيف، شعره أشقر مصفف للوراء، لا تشوب أناقته شائبة، كأنه عارض أزياء متأنق إنجليزي خرج لتوه من بين صفحات مجلة موضة. كنت مرتديًا زيّي العسكري، وكان له أثر كبير على الناس في تلك الفترة حيث كانوا يظهرون إعجابًا وتقديرًا للضباط في كل مكان. وبالجلوس إلى جواره، بدوتُ شديد الغرابة. فقد ارتدى السيد المحترم الأنيق حلة بيضاء وحذاء أبيض، ومن الواضح أنه اعتاد أن يترك انطباعًا متميزًا وفوريًّا لدى كل من يتعامل معه بهذا المظهر. وصل إلى المقهى في سيارة فارهة، وتناولنا معًا كأسين من الكونياك. وأخبرني أنه من الأفضل أن أحصل على مقابل ما سأعطيه لزوجته من دروس، لكنني رفضت. لقد تلقيتُ أمرًا عسكريًّا، وتلك ليست سوى مهمة رسمية. ضحك حين قلتُ ذلك، إن كل شيء عند الرائد آليتش يجب أن يكون رسميًّا. لم يكن متحدثًا اجتماعيًّا، قال ما أراده دفعة واحدة وفي نَفَس واحد. قال لي:

ستدربها بحلبة الفروسية في قرية شتي بانسكا، وسيكون لطفًا منك لو بدأت بأسرع وقت ممكن بتدريبها في الغابات والمروج. فإن فيرونيكا متحمسة جدًّا، وسوف أشارككما التدريبات بمجرد أن تصبح فيرونيكا قادرة على امتطاء الخيل وركوبه.

هذا كل ما قاله. طلب مني أن أسهر على أمنها لأنها في بعض الأحيان تتصرف ببعض الاستهتار، وتميل إلى فعل كثير من الأشياء في الوقت نفسه. قال:

لقد أردت أن أراك في البداية على انفراد، فقد أخبرني صديقي آليتش أنك أكفأ ضباطه، والآن يمكنني تصديق ما قال.

ولكن كيف يمكنه تصديق ما قال على الرغم من أنه الوحيد الذي يتكلم طوال الوقت، وعلى الرغم أيضًا من أنه اعترف بلسانه أنه لا يعرف شيئًا عن العسكرية إطلاقًا؟! بالطبع هذا منطقي، فإن ذلك النوع من الرجال سيعرف الكثير عن سوق البورصة والملابس الثمينة والسيارات الفارهة. نعم، كذلك عن الطائرات، فقد ذكر أن ولعه الثالث بعد كل من الخيول والسيارات هو قيادة الطائرات. ربما يصطحبني ذات يوم إلى رحلة فوق الجبال القريبة لأرى جمال سلوفينيا الذي لا يمكن وصفه، تمامًا مثل جمال صربيا.

بالطبع أنت من فاليفو، أليس كذلك؟

أجبته بأن هذا صحيح، وأن والدي تاجر خيل. وقلت لنفسي وأنا أجيبه: «وبالطبع والدي عرف الكثير من الأغنياء أمثالك، كما عرف أيضًا أن ابنه لن يكون ثريًّا مثلهم في يوم من الأيام. لذلك فقد أصبح ضابطًا، وفي صربيا لا يقل الضابط مكانة عن الثري، إن لم يكن أعلى مكانة بقليل». قال

لي إنه لم يسبق له زيارة فاليفو من قبل.

أنتم تزرعون البرقوق هناك، وتصنعون مشروب السليفوفيتس، أليس كذلك؟

لا، نحن نصنع هناك أعظم الجنود!

ضحكنا وكنت سعيدًا لأن الحديث عن مهمتي لم يستغرق الوقت الكثير.

في اليوم التالي، سقط المطر في الليل، لذا سرى نسيم الصباح عليلًا ومتجددًا. اصطحبها معه في سيارته. كانت امرأة شابة ترتدي بنطال ركوب الخيل، وعرّف كل منا للآخر، وذهبت معهما لرؤية الفرس الهاكني الإنجليزي طويل الساقين. في النهاية قال لي شيئًا بمعنى: أنا أتركها تحت إمرتك ورعايتك! ثم قبّل وجنتها وأسرع منطلقًا بسيارته بعد أن رفع سقفها ليلوح لنا مرة أخيرة قبل أن يتجاوز جانب الطريق. (لورد) هو اسم الحصان. قلت لنفسي: ماذا يمكن أن تطلق سيدة شابة ثرية على حصانها غير اسم كذلك الاسم؟ كان فرسًا أصيلًا. تراجع قليلًا إلى الوراء حين حاولت أن ألمسه مدللًا إياه، لكنه سرعان ما منحني ثقته. فرسٌ سريع الخبب وثّاب، يحافظ على انتصاب قوامه ورأسه وذيله بلطف. أخبرتُها أنّ أول شيء أطلبه من المجندين في فرقتي أن تعلّم الفروسية لا يبدأ بركوب الخيل، ولكن بالعناية بها، والأدوات الأولى التي عليهم أن يتعاملوا معها هي فرشاة تنظيف الحصان ومُقلِّم الحوافر.

قالت لي إنها ليست أحد المجندين في فرقتي.

لم أجبها، ولبرهة من الوقت شعرت بالندم على قبول هذه «المهمة الخاصة». ثم قلت لها ربما هي ليست من المجندين عندي، لكن لا بدَّ من الاعتناء بنظافة ومظهر الفرس قبل سرجه. تقضي الخيول معظم أوقاتها في مرابضها داخل الإسطبل حيث لا تحصل على كفايتها من ضوء الشمس، ولذا فعلينا أن نتأكد من نظافة أجسادها وما يوضع على أجسادها كل يوم، وحتى في الأيام التي لا نمتطيها خلالها.

إذًا، لِمَ نبقيهم داخل الإسطبل لو أمكن أن نتركها في الخلاء تتجول بحرية؟ لِمَ نبقيهم في الإسطبل؟

الحقيقة لم يسبق أن سألني أحد هذا السؤال من قبل.

الخيول كائنات حرة، وأكثر حرية من البشر أنفسهم. علينا أن نمنحها حريتها على الأقل لتتحرك دون قيود وتنطلق في الغابات والمروج.

فقلت لها: «عندئذ لن نتمكن من امتطائها، وسيتحتم علينا أن نجر عرباتنا بأنفسنا، ولن يكون بالجيش فرقة ذات تاريخ جليل، اسمها سلاح الفروسية، الذي أفخر بانتمائي إليه. إنه يماثل في شهرته شهرة كل من سلاحي الفروسية الخفيفين بالجيشين الإنجليزي والفرنسي اللذين كانا مفخرة لبلديهما بانتصارهما في عديد من المعارك الكبرى. لكن يظل الأعظم من بينها جميعًا هم فرسان الـ(أولان البولندي) الذين لا يهابون الموت».

لكن «الأولان» لم يتركوا لديها أي انطباع قط! إن فكرة أن تسحب الخيول إلى غمار معركة حربية بالنسبة لها أمر من الصعب تصديقه. وأبدت اعتراضها مرة أخرى.

هو فعل غير مسؤول، فقد تنفجر بها قنبلة ما.

«ليست القنابل، بل مدافع الهاون» قلت لها مصححًا: «فالقنابل تُلقى من الطائرات على المخابئ والحصون، أما الهاون فهو ما تقصف به قوات المشاة والفرسان أيضًا».

لكن لماذا؟

قالت وقد فقدت أعصابها:

لِمَ هذا الجنون؟!

منذ اللحظة الأولى، اشتبكنا في جدال عن الخيول والفروسية، ووجدت أنه جدال عقيم لن ينتهي بنا إلى أي نتيجة. توقفت عن الإنصات لما تقول، وبدأت أشرح لها كيف تضع سرج الإسطبل على ظهر لورد، ثم كيف تغسل رأسه جيدًا وتحرص على تنظيف المنطقة التي بين أذنيه، وأسفل خط جبهته. ثم تستخدم المكشطة في تنظيف جسده. بدأت هي تشعر بالملل، وسألتني: «متى يمكنني ركوبه؟» تراجعت عن إخبارها بأن هذا سؤال كل مجند غبي، وبدلًا من ذلك أخبرتها أنها إن لم تتحلَّ بالصبر أو رفضت التعاون، فإنني سوف أقدم استقالتي. نظرت إليّ بغضب، وفهمت أنها تراجعت عن قول شيء ما بدورها.

لا بأس، إذًا! أرني كيف يمكنني تقليم الحوافر.

أجابتني ثم ربتت على ظهر الفرس مداعبة إياه. فمن وجهة نظرها، خلق الله الخيل ليدللها الإنسان ويداعبها، تمامًا كما يفعل مع القطط. نظر إليها لورد ممتنًّا، بينما صررت فكيّ غيظًا وأنا أكمل ما أفعله. راقبتني وقد عقدت ذراعيها على صدرها.

«أرى أن لك أسلوبًا لطيفًا مع الخيل». قالت لي.

أوضحت لها أن هذا الأسلوب هو ألف - باء الفروسية. فالخيل تشعر بذلك جيدًا، وتفهم متى نعاملها بلطف، ولو توقفنا عن معاملتها بهذا اللطف فإنها تتمرد. وأكملت بأقصى ما أستطيع من دماثة:

فقط تخيلي، يا سيدتي، أن فرسًا يمتنع عن الاستجابة حين يساق إلى أرض المعركة؟

هل هذا ما تعلمه لمجنديك؟

نعم، هذا ما أعلمهم إياه!

إذًا، ما تحاول أن تقول هو أنك تعاملهم بلطف فقط حتى يمكنك أن تقودهم إلى أرض المعركة تحت وطأة تلك القنابل والمدافع؟

أجبتها بغضب أننا نذهب معهم إلى هناك أيضًا، أن الآلاف منا قتلوا في معركة كولوبارا. فسألتني في براءة وبنبرة حقد وضغينة:

ولكن، من أجل ماذا؟

من أجل الملك والوطن.

أصدرت شخيرًا كشخير الفرس، وأطلقت ضحكة خبيثة مستهزئة عقب الشخير.

في الصباح التالي، أخبرت الرائد آليتش بكل ما حدث، وطلبت منه أن يعفيني من هذه المهمة.

سألني ما الذي ضايقني، فأخبرته أن السيدة تعتبر سلاح الفروسية -وطلبت منه أن يسامحني على تجاوز اللفظ- ضربًا من الجنون.

هل هذا ما تعتقده؟

نعم، وقالت إنها ليست مجندًا.

ضحك وقال:

هي على حق، رادوفانوفيتش، فهي ليست من مجنديك. عليك أن تعامل السيدات الشابات بطريقة مختلفة عما تعامل به مجنديك. وبشكل عام، وفي ما يخص ذلك، عليك أن تعامل النساء بطريقة مختلفة.

نظر بعيدًا باتجاه النافذة، ثم أكمل بعد لحظات:

هل أخبرتك أنها حصلت على تعليمها في برلين؟

لا، لم تخبرني.

إنها حصلت على تعليمٍ راقٍ. من الممكن أن تتعلم منها شيئًا أو اثنين. ولكن هذه هي الحقيقة.

ثم صمت لبرهة وكأنه يفكر لو يستطيع أن يخبرني بما أوشك على قوله أم لا:

السيدة الشابة هي إلى حد ما... كيف أقولها؟... غير عادية. زوجها، صديقي ليو جارنيك، أخبرني أنه منذ أيام قليلة استقلت القطار إلى أوشاك ولم يعرف أحد إلى أين ذهبت، وحين عادت قالت إنها ذهبت للسباحة. هل تتخيل؟

هززت كتفي لأن الأمر بدا لي غير ذي صلة بما أقول. فأنا أتعامل معها فقط بهدف تأدية مهمتي، ثم وجدت أن الأمر ليس بالسهولة المتوقعة.

يقال إن جدها هو من بنى نصف مدينة ريكا. هل سبق وأن زرت ريكا؟

ماذا تعني بذلك؟ الإيطاليون هناك.

نعم، ولكننا يومًا سنستعيدها. إذا وصلت إلى هناك عن طريق البحر، فستجد في الميناء بنايات شاهقة تطل على الواجهة البحرية، ومقاهي، جميعها كانت له. تلك الأسرة، رادوفانوفيتش، شديدة الثراء، إلى حد لا يمكنك تخيله. ومن مصلحة الجيش أن تكون على صلة جيدة بهم، هذا ما نريده. هل تفهم؟

أفهم، ولكن أخشى أن السيدة الشابة لا تأخذ الأمر على محمل الجد، ولا تريد أن تتعاون. فكيف سأعلمها ركوب الخيل إذًا لو ظلت تعطيني الأوامر بدلًا من أن تستمع إلى ما أقول. كما أن لا فكرة لديها على الإطلاق عن سلاح الأولان، ولا تعرف من يكونون.

الأولان؟ وما علاقة الأولان بركوب الخيل؟

صمت لفترة ثم استطرد:

كيف يمكن لأمر مثل ذلك أن يسترعي انتباهها؟ هناك الكثير غير ذلك مما يمكن أن تهتم به. فهي ليست مجرد امرأة غير عادية، ولكنها... كيف أقولها؟... غريبة الأطوار. سمعت أنها تربي تمساحًا في بيتها كأنه حيوان أليف، وأنها تأخذه أحيانًا للتمشية. هل تتخيل؟

نظر في عيني وأكمل:

على كلٍّ، أنت الآن تعرف كل شيء.

أشكرك، ولكن هذا لن يسهل مهمتي.

عضضت لساني بعدها، فأنا معتاد على أن أتحاور مع الرائد، ولكن لم يجب قول ذلك. اتخذ سمت الجدية، وقال:

ماذا تريدني أن أقول لصديقي جارنيك؟ إن الضابط الأفضل من بين ضباطي، فشل في أداء المهمة لأن زوجته ترى سلاح الفروسية ضربًا من الجنون؟

لا أعرف، ولكن يمكن أن تقول إنه لم يصلح لأداء المهمة، ولذا فقد أعدته للسرية التي ينتمي إليها.

أجابني آليتش بنفس الجدية وبصيغة رسمية اعتاد أن يتحدث بها حين يصدر الأوامر:

اسمع أيها الملازم! أنت يا رادوفانوفيتش لن تُملي عليّ ما أقول ولمن أقوله. لم أرسلك إلى هناك للتحدث مع السيدة عن سلاح الفروسية، أو لتعلمها أشياء عن الأولان البولنديين ولا معركة كولوبارا. أنت هناك لتعلمها ركوب الخيل. هل تفهم؟

أفهم!

ولن تأتي إلى المقر الرئيس لمقابلتي، أو تقديم أي تقرير آخر عن المهمة إليّ، إلا حين تنتهي من أدائها. وستقول في التقرير إنك أديت مهمتك، وإن السيدة الشابة أصبحت محترفة في ركوب الخيل. هل تفهم؟

أفهم، سيدي!

رحلت وأنا أشعر بالضآلة إلى حد ما، لكنني كنت متصالحًا مع قدري. رحلت وفي رأسي صورة ذهنية، لامرأة شابة ترتاد القطار وحدها إلى أوشاك، وتتنزه في الشارع الرئيس في ليوبليانا بتمساح مربوط بسلسة. لكن الصورة التي طغت على تفكيري كانت صورة الرائد آليتش على حالته. فإن مستقبلي الوظيفي يتوقف عليه. هو أحيانًا يتعامل معي بأبوة، فيقول لي: «يا ستيفان، يا بني، يا ولد»، ولكنه حين يتحول إلى القائد بلغته الرسمية أستشعر الخطر في الهواء من حولي. أرعبتني فكرة أن تسوء الأمور أكثر، فأنا أعرفه جيدًا، وما حدث منه الآن ليس سوى مجرد منتصف العاصفة. لو أن مؤشر الغضب زاد درجة واحدة، كان ليقول لي: «هيا، هيا سِر إلى الإسطبلات، يا ابن الـ...».

امتطيت فراناتس ووصلت إلى إسطبلات البلدية، ورتبت الأمور لإقامته هناك في غيابي، طوال الفترة التي سيستغرقها التدريب. وعزمت أمري على أن أسرّع الأمور بقدر الإمكان. فكلما انتهى الأمر بشكل أسرع، سيكون ذلك أفضل. في الصباح التالي كنت منتظرًا حضورها، لكنها لم تحضر

قط. هي أيضًا شكتني لزوجها. جاء في سيارته وأخبرني من مقعد السائق أن زوجته تطلب معلمًا مهذبًا. هو قال إنه لم يقصد أي إهانة للرائد آليتش الذي عين له أفضل الضباط عنده، لكنه توقع مني أن أتعامل مع زوجته بأخلاق سيد محترم، وأن أعتذر وأتابع التدريب حتى نهايته.

سوف تكمل مهمتك في الغد.

قال ذلك ثم انطلق بسيارته وهو يستند بذراعه على إطار النافذة، بينما حرك الهواء شعره الأشقر حتى تطاير.

وهكذا بدأت المهمة برغبة كلينا في التراجع عن خوضها. ولكن ربما هذا هو السبب الذي جعل المهمة تسهل في ما بعد. اعتذرت...

إذا أسأتِ فهمي حين قلت إن أول ما أعلمه للمجندين هو... ثم فهمتِ أنني أعاملك كواحد من المجندين... لكن في الحقيقة...

أوه! دعك من هذا!

قاطعتني وهي تضحك، ثم قالت:

أعطني هذا المقشط!

هكذا هي شخصية فيرونيكا، من الممكن أن تتغير حالتها المزاجية بين لحظة وأخرى. أعطيتها المقشط، فضحكت وراحت تدعك جسد الحصان بحماس شديد. منذ ذلك الحين تجنبنا أي حديث عن المجندين، مهمات سلاح الفروسية، ومعركة كولوبارا. في وقت قليل، كنا قد انتهينا من الجزء المتعلق بتركيب السرج، وفي خلال أيام قليلة أخرى، تعلمتْ الوضعية الصحيحة للجلوس ومرونة الأفخاذ عند الركوب، وإخراج النفس من الحجاب الحاجز، والحفاظ على الأكتاف مسترخية. بعد ذلك، حان وقت التدريب على الإمساك باللجام والقيام بأول محاولتين لتنظيم خطوات الفرس. حققت المرأة الشابة تقدمًا سريعًا، وتركت لدي انطباعًا بفهمها حقيقة أن الفروسية في حد ذاتها عمل متكامل يتألف من ركوب الخيل والعناية به، ومن قبلهما علاقة المعلم والطالب، وأن أسلوب التعامل مع الفرس ليس مجرد عملية فنية، وإنما الأهم من ذلك هو كسب ثقته من ناحية، والوثوق في المعلم من ناحية أخرى. لم أخبرها بما اعتدت أن أخبر به المجندين عن احترام المعلم وتنفيذ شروطه بلا استثناء في حال أرادوا أن يحترمهم الفرس وينفذ أوامرهم. بنهاية الأمر بدا أنها فهمت ضمنيًّا أهمية تلك العلاقة الثلاثية التي يعتمد فيها كل طرف على الآخر. لحسن الحظ أنها لم ترغب في الحديث عن هذا صراحةً، لأنني واثق من أن أي حوار سنتجاذب أطرافه سينتهي بجدال وخلاف. كنت أشعر بالاسترخاء التام ذات صباح جلسنا فيه سويًّا على العشب وقت الاستراحة، حين طلبت مني أن أحدّثها عن الخيل. وفكرت، ماذا يمكن أن أقول لها عن الخيل؟

كل شيء!

إذا أخبرتها بكل ما أعرف سيطول الحديث. فأنا أعرف عنها الكثير.

إذًا، أخبرني بهذا الكثير!

أجابتني، ثم عادت لتسأل:

هل حقيقي أن الخيول في عصور ما قبل التاريخ كانت في نفس حجم الكلاب؟

حقيقة! كانت مجرد حيوانات صغيرة الحجم جدًّا حين استوطنت غابات سيبيريا الصنوبرية وغابات وسط أوروبا. ولكنها الآن أكبر حجمًا وأكثر وسامة مثل فراناتس ولورد.

حكيت لها عن الخيول العربية والليبيزانية، وعن الهافلينجر والهانوفرية، وأخبرتها عن حياتي التي قضيتها منذ الطفولة مع خيول أبي التي كانت تجيء إلينا ثم تباع وتذهب، وعن تربيتي لفراناتس بنفسي حتى استطعت أن أجعله على المستوى اللائق ليُقبل في الجيش، لأستطيع إحضاره من فاليفو إلى ليوبليانا. لم أتحدث عن الأولان والمعارك حيث لا يموت الفرسان فقط، بل الخيول أيضًا.

هل تظن أنها بالفعل تفهم وتعي؟ فهي تبدو كذلك.

إذا استطاع التمساح أن يفهم الإنسان، إذًا فالحصان يستطيع أيضًا.

أجبتها بحذر، فضحكت وقالت:

إذًا فقد سمعت بهذا الأمر أنت أيضًا؟ بالطبع، فمن لم يسمع به؟! لقد كان بالفعل تمساحًا لطيفًا صغيرًا، ولم أكن أحب أن أتركه في المنزل وحيدًا، لذا في بعض الأحيان كنت آخذه في نزهة حول المدينة.

ضحكت مرة أخرى، ربما من فكرة استرجاع انطباعات السائرين الذين كانت تمر بهم في الطريق أثناء تلك النزهات ولم يجدوا تفسيرًا منطقيًّا لما تفعل.

لكنه لم يكن يفهم الجميع، خاصة وعلى وجه التحديد لم يفهم زوجي. هل سمعت أيضًا أنه عضه ذات مرة في حوض الاستحمام؟ ثم بعد تلك الواقعة حرم من التجول في البيت. هذا هو ما فعله التمساح.

عادت لتضحك، ثم في لحظة ما اكتسبت ملامحها الجدية مرة أخرى، وأكملت:

اصطحبه ليو إلى الطبيب البيطري، والآن لم يعد سوى دمية محشوة، للأسف لم يكن هناك حل آخر.

لم أسألها أين عقر التمساح زوجها، وشعرت بشيء من الاشمئزاز من التفكير في أن مثل هذا الحيوان يوضع في حوض الاستحمام. أيضًا، حين حاولت تخيلها تصطحبه في نزهة، وهي تجره من رقبته بسلسلة، وتخيلت التمساح وقد تكيف مع بيئة مغايرة عن تلك التي من المفترض أن يعيش فيها، وكيف يسير من خلفها بخطوات ثقيلة. وتصورت ردة فعل الناس الخرقاء في التجمعات بالشوارع وهم يشاهدونها، ثم عادت فكرة أن يسمح لهذا البرمائي بالبقاء في حوض الاستحمام، لم أتحمل كل تلك التصورات في الحقيقة. لم أفهم هذا العالم، ولا تلك النوعية من البشر. على الأقل هذا ما شعرته نحوهم عندئذٍ.

لقد تحدثت عن هذا الوحش الصغير كما لو أنه قطة أليفة. وبدت حزينة لأنهم اضطروا إلى قتله، ثم وجدت أن ما قالته عن تأملاتها حول حرية الخيول لا ينسجم مع فكرة اقتنائها للتمساح وحبسه داخل شقتهم الفارهة. لم أفصح لها عن أي مما دار في رأسي، لأنني لم أكن راغبًا في فتح الباب لجدال آخر، وآثرت تقبل فكرة توصيف السيدة الشابة كما قال الرائد آليتش باعتبارها غريبة

الأطوار إلى حد ما. وجدت أن شخصيتها تنطوي على بعض المتناقضات، ويمكن بسهولة رؤية ذلك في تحولات حالتها المزاجية الحادة، كأنها حالة الجو في إبريل. لحظة تكون مشرقة ومبتهجة، وفي لحظة أخرى مسبلة الجفن وشاردة. وأحيانًا لا تسمع جملة كاملة أتحدث بها. ولكني لم أرَ أيًّا من هذا يعنيني، على الأقل في هذا الوقت. كنا من عالمين متباينين، شخصين جمعتهما الصدفة، وفي خلال شهر أو أقل سيفترقان حين ترحل هي وزوجها ثم أعود أنا لسريتي في الثكنات. ورغم أن الأمر لم يكن أكثر من دورة تعليم للفروسية، لكننا استطعنا من خلالها أن نفهم بعضنا أكثر، حتى إنني وجدت نفسي في بعض الصباحات أتوق لرؤيتها ما جعلني أتمنى أن ينتهي الأمر بأسرع ما يمكن.

ولكن الحقيقة أنها تآلفت مع الخيول جدًّا، ربما أكثر من قدرتها على التآلف مع البشر.

مع الوقت بدأت أفهم أسباب انزعاجها من أن الجيش يقود الخيول إلى ساحات الحرب المليئة بالتفجيرات والقصف المدفعي. حلت نهاية شهر أغسطس، واقترب الخريف ببطء. في كل صباح، كنت أثبت حضوري في الصباح الباكر بالمقر الرئيس بالثكنات، حيث يداوم الضباط على مضايقتي بالتلميحات عن حياتي المزدوجة. بعدها أذهب لمقابلتها وقضاء الوقت معها ومع الخيول على الأرض حتى الظهيرة، بالكاد لا أتبادل ولو كلمة واحدة مع زوجها حين يأتي لاصطحابها بعد انتهاء الدرس. ونادرًا ما أتى، فسائقهم الخاص هو غالبًا من يقلها إلى التدريب ثم يعود ليأخذها إلى البيت. من المفترض أن ليو جارنيك رجلًا لديه مشغوليات كثيرة، ليس فقط في تسيير الأعمال والتجارة، وإنما أيضًا في صيد الخنازير والآيائل البرية بالطلقات النارية. والغريب أن هوايته في اغتيال الحياة البرية لم تزعج طالبتي قط. ولكن أزعجها أننا نقود الخيول إلى ساحات الحرب، حيث من الممكن أن يسبب لها القصف أو قذائف الهاون إصابات. لاحظتُ أن زوجها يحتفظ ببنادق الصيد في المقعد الخلفي لسيارته، وذات مرة قال لي إنه يحب أن يدعوني لإحدى جولات الصيد. ولكن ربما نسي أمر هذه الدعوة برمته بعد أن عرضها عليّ بلحظة.

في المرة الأولى التي ركبنا فيها معًا لنتدرب على السير في بعض الحلقات حول الساحة، تمتطي لورد بينما امتطيتُ فراناتس، وبعد أن تطور مستواها للأفضل قليلًا، قمت بالثناء عليها والتصفيق لها.

لا بدّ أن أعترف، يا سيدتي، أنني لم أتوقع منكِ هذا التطور السريع في التعلم! فقد بدا الأمر كما لو كان لديكِ معرفة مسبقة بركوب الخيل، حتى لورد يتآلف معكِ بدرجة ممتازة.

يتآلف معي بدرجة أفضل منك. لقد شعرت بذلك.

آسف! ما قصدته أنه بدأ يتقبل فكرة أنك سيدته التي ستقوده.

سيدته؟! يا لها من كلمة غبية!

لكن تلك هي حقيقة الأمر. فبمجرد أن يطيع أوامرك، ويفهم ما تخبرينه به في لحظتها، ستكونين جاهزة للحصول على شهادة اجتياز التدريب بنجاح.

وكيف أصل إلى هذه المرحلة؟

عليكِ أن تتحدثي إليه، وتلمسيه، عندئذ سيفهمك. هناك رابط ينمو تدريجيًّا بين الفرس والفارس.

نظرت إليّ للحظات، ثم عادت لتسأل:

مثل الرابط الذي ينمو بين شخصين؟

نعم. شيء من هذا القبيل.

في اليوم الذي تلى هذا الحديث، وصلتُ إلى ساحة التدريب وحالتها المزاجية غريبة وغير مفهومة. ظننت أنها ربما مرت بليلة عصيبة مع زوجها حول رحلتها إلى أوشاك، أو حول رغبتها في اقتناء تمساح آخر، أو ما شابه. ولكني اكتشفت أن الأمر ليس أي من كل هذا على الإطلاق.

لقد ظللت أفكر في ما قلته لي بالأمس عن الخيول والناس، وكيف أنه من الضروري أن نتحدث إليهم. الحقيقة أننا –أنا وأنت- نتحدث قليلًا جدًّا.

هذا صحيح، يا سيدتي! باستثناء الحديث عن الخيول، ونحن نتحدث عنها كثيرًا.

ضحكت وقالت لي:

هل من الممكن أن تتوقف عن دعوتي بـ(سيدتي) يا ستيفن؟

ثم وجهت نظرها نحو مجرى نهر السافا، وباتجاه السهول الخضراء حول التلال، بأعين خاوية من مضمونها، وسألتني:

هل لك حبيبة، يا ستيفن؟

لي حبيبة.

بعد أن أجبتها، تذكرت أنني لم أعد واثقًا من إجابتي، ولا أعرف إذا ما كنت بالفعل ما زلت أحظى بحبيبة. في الحقيقة أنا لا أعرف. قلت لها:

كان لي حبيبة في فاليفو، ولم تزل ترسل لي بعض الرسائل أحيانًا.

وما اسمها؟

يليتسا.

هل هي جميلة؟

هززت كتفي وقلت لها بنبرة متثاقلة:

لقد بدت جميلة في عيني. لها شعر كستنائي.

وبم تدعوك يليتسا؟

ستيفو.

حسنًا، فأنت ستيفو منذ هذه اللحظة. هل تسمح لي أن أدعوك بما تدعوك به يليتسا؟

شعرت بانقطاع أنفاسي حين قالت لي ذلك، وأكملت:

أنا فيرونيكا، يمكنك أن تدعوني باسمي فقط.

أفهم ما تقولينه يا سيدتي.

أجبتها برسمية كما لو كنت أتحدث إلى الرائد آليتش، فقاطعتني:

ليس هنا أي سيدة. فقط فيرونيكا.

فهمت، يا فيرونيكا.

أنا سعيدة أنك فهمت.

لكنني لم أفهم تمامًا، على الأقل وقتها. ربما أنها هي الأخرى لم تكن تفهم ما الذي يحدث. لكن ما عرفناه أن شيئًا ما بدأ في الحدوث. وبدأنا نتحدث سويًّا حول أمور أخرى غير الخيول. أخبرتها عن شوماديجا، وغاباتها المتسعة وتلالها الخضراء وقراها الملأى بالبيوت الخشبية، وعن خرافاتها وعادات الزواج فيها. تحدثت إليها عن الفلاحين الذين قاوموا الموت على الجبهة في سالونيكا، وعن الأكاديمية الحربية. وهي حكت لي عن برلين، حيث قضت عامين للدراسة، وعن أصدقائها هناك الذين لم يزالوا يراسلونها ويحدثونها عن المسارح والمقاهي، وعن الإبحار والتجديف في البحيرات. لقد عشقت هذه المدينة الكبيرة الواسعة المفعمة بالحياة والحركة. تشعر بالملل من حياتها في ليوبليانا، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضًا، فردًا فردًا. لذلك هي تحاول الهروب من تلك الحياة بين الحين والآخر، باستقلال القطار والاتجاه نحو ساحل البحر. أما عن رأي زوجها في ما تفعل، فلم تذكر عنه أي شيء. لم تتحدث كثيرًا عن عائلتها، باستثناء والدتها التي تسكن وحدها في شقة كبيرة منذ أن تركتها وانتقلت للعيش مع ليو. يوسيبينا، والدتها، لها الكثير من الذكريات في ريكا، حيث توفي والد فيرونيكا، ويدعى بيتر، على اسم ملكنا الشاب. كانت والدتها شقراء مثلها، إلا أن شعرها بدأ يشيب ويتحول إلى الرمادي. أحبت يوسيبينا الرقص كثيرًا أثناء إقامتهم في ريكا، ودعوها هناك بـ»لابيوندا« أي الشقراء. في يوم من الأيام أرادت أن تأخذني للتعرف إليها، وقالت إنها واثقة من أنني سأحب التعرف إليها.

اقترب الشخصان اللذان يقضيان مع بعضهما كل هذا الوقت الطويل من بعضهما أكثر، بعد أن كرها بعضهما بعضًا في البداية، أو أقله هذا ما بدا عليهما. ولكنهما أصبحا أكثر قابلية للاقتراب من بعضهما، حتى اقتربا إلى أقصى حد ممكن.

وأنا الآن في بالمانوفا، أنظر إلى وجهي في المرآة المليئة بالشروخ المُعالجَة. أنظر إلى أجزاء وجهي المقسم، وأرى أن صدغيّ بالفعل غطاهما الشيب بدرجة لا تتناسب مع عمري، كأن الشيب دبّ فيهما قبل الأوان. وأرى مكان سني المفقود والخواء الذي تركه، ومن حول فكي تتدلي شفتي المهترئة، لأدرك مدى قبح المنظر الذي صرت عليه. إنها معجزة أنني بقيت سالمًا من أي أصابة حتى النهاية، حتى وقع ما وقع لي في مكان ما في التلال القابعة فوق إدريا، وبالتحديد قبل أن ننسحب إلى السهول الفريوليانية، وقبل أن ينتهي بنا الأمر في سجن هذا المعسكر. وبعد أن كنا بالأمس رفقاء مسلحين نقف بعضنا إلى جوار بعض، أصبحنا اليوم مجرد حشد من الأسرى الذين يبلغ عددهم عشرين ألف جندي وضابط ظلوا يحاربون حتى الأمس. واليوم قل عددهم وصاروا ضعفاء وبلا فائدة، لا عمل لهم غير الهرولة بين الثكنات والتسكع خارج الخيم. جيش بلا دولة. الآن لم يتبق لنا سوى صورة للملك على حائط الثكنة. الملك الذي بينما كنا ندافع عن مملكته، لم يعرف أحد أين كان. والآن أصبح جيشه في الأسر، بينما خرج هو في نزهة مع كلبه في إحدى

حدائق لندن، أو يشرب الشاي، أو يستمع إلى نشرة الأخبار في الراديو عن آخر خطبة لهذا الجاسوس الروسي، غريب الاسم، تيتو؛ وعن العريف النمساوي السابق؛ وهذا الفلاح الكرواتي الذي انتقل لتوه إلى المنشأة الملكية في مرتفعات ديدني. حين مررت من أمام بورتريه الملك، تحاشيت النظر إليه، موجهًا نظري إلى الأرض. لو نظرت إلى عينيه سأكون مضطرًّا إلى سؤاله أين كان حين كنا نحن –جنود جيشه- نقاوم لنخرج من مستنقعات الوحل والدماء. جده ووالده خرجا بنفسيهما للقتال على رأس جيشهما كلما تطلب الأمر، يرتديان المعاطف العسكرية التي يضعها الضباط أثناء القتال في زمهرير الشتاء البلقاني، وفي وسط معمعة المدافع والخيول. أما هو، فقد قضى فترة الحرب متنزهًا في إحدى حدائق لندن، والأحرى أنه لم يزل يتنزه حتى اللحظة. لا أستطيع النظر في عينيه دون أن ينتابني الغضب، أو حتى الازدراء. أفضل أن أنظر إلى الأرضية. أحيانًا يهيأ لي أننا جميعًا نثبت أنظارنا على الأرضية. جميعنا نحن العشرين ألف رجل العالقين هنا في بالمانوفا، نشعر بالعار والمهانة. لكننا في الليل، نرفع رؤوسنا لننظر إلى النجوم، غير قادرين على تفسير ما يحدث لنا.

في الليل، حين أطيل النظر في سماء مايو المغطاة بالنجوم، غالبًا ما أسأل نفسي إذا ما كانت هي أيضًا تنظر إلى نفس النجوم. عما إذا كانت لم تزل تعيش في تلك القلعة التي اشتراها لها زوجها. لو أن الأمر كذلك، فبالتأكيد ستنظر إلى نفس السماء، على مسافة مئتي كيلومتر شرقًا فقط من هنا. للحظة، شعرت أن ظلًّا أسود مر من أمامي: وعدت بأفكاري إلى تلك الليلة، وتساءلت عن سبب زيارة طيفها النابض بالحياة لي وقتها. في موطني، يؤمن الناس بأن أرواح الموتى تتجول حولنا. هل حدث لها شيء ما؟ فهي الحرب. ولكنني سرعان ما طردت هذه الفكرة من رأسي. إذ لا بدَّ أنها استطاعت التعامل مع الموقف، وإن لم تستطع فإن ليو قادر على اتخاذ كل الاحتياطات. هو دائمًا يفعل ذلك. ربما ليسا في القلعة الآن لأن الشيوعيين سيطروا على هذا الجزء من الحدود وهم لا يتقبلون أصحاب المزارع كثيرًا، رغم أنهم يعشقون ثرواتهم. منذ أيام قلائل، كنت في زيارة لمعسكر مجاور يُحتجزُ فيه الحرس الوطني السلوفيني، وسألت هناك عمن يعرف ليو جارنيك. بالطبع لم يكن هو من يهمني، ولكنني أردت أن أطمئن على أحوالها. أخبرني أحد الضباط أنه من المحتمل كونه الآن مقيمًا في دوقية كارينثيا النمساوية، لأن هناك الآلاف من الناس هربوا من سلوفينيا في مايو، ولا بدَّ أن يكون جارنيك بينهم. فهو ليس أحمق للدرجة التي تجعله يجلس في انتظار أن يأتي إليه الشيوعيون.

لو أن جارنيك زوجها في النمسا، فمن المحتمل أنها معه هناك. وقد أراحتني هذه الفكرة وهدأت من روعي. أما عن زيارتها تلك الليلة، فقد تكون قصدت بها شيئًا آخر. لو أن أرواح الموتى تحوم حولنا، فلم لا تفعل أرواح الأحياء كذلك؟ لم لا تتقابل أرواح المقربين الذين فرضت عليهم الظروف أن يفترقوا؟ ربما تحوم روحي حول فراش نومها في الليل وأنا أحدق في النجوم المتناثرة في سماء السهل الفريولياني بينما أتخيلها تحدق في النجوم المتناثرة في السماء المطلة على قمم الألب، من نافذة قلعتها في المنطقة المرتفعة من كارنيولا. وإن لم تكن مقيمة هناك، فأتخيلها تراقب النجوم من الجهة الأخرى من مرتفعات الكارافانك.

تُرى، هل تذكرت أيًّا من أيامنا الخوالي في أغسطس؟ حين ركبت الفرس وسارت به على ضفاف نهر السافا وإلى جوارها معلم الفروسية؟

في أغسطس من علم 1937 كنا قد أصبحنا أقرب ما يمكن أن نكون. في اليوم الذي سألتني فيه عن اسم حبيبتي كنا بالفعل مقتربين كثيرًا لدرجة أن أي شيء يحدث بيننا لم يكن إلا ليقربنا من بعضنا أكثر. في البداية كنا نقضي الصباحات سويًّا، وبعدها أصبحنا نقضي اليوم بأكمله بعد أن صارت تلميذتي أكثر تحمسًا بنفس القدر الذي يتحمس به كل مجند يحافظ على توازنه ولا يسقط أثناء ركض الفرس للمرة الأولى وهو يمتطيه، ويزداد الحماس في ما هو أهم من التوازن، حين يشعر أن الفرس يطيع أوامره، حتى إنه يتوقف حين يعطيه الأمر. لكنني بالطبع ترددت في إخبارها بذلك. أتقنت وضعية الجلوس الصحيحة على الخيل، واستخدام اللجام، والتوازن في المنعطفات، وتحويل كتلة ووزن جسدها. تمرست على كل عنصر جديد علمته لها بسرعة ودون أي جهد يذكر. وسيطرت الحماسة عليها تمامًا، واكتشفت بنفسها طريقة خاصة تُحدث بها فرسها ويفهمها ويستوعب ما تقول. قالت له: ام – مشِ، هر-رول، توقّ- قف، ولكن الشيء الوحيد الذي فشلتُ في تعلميها إياه هو استخدام المهماز والسوط، رغم شرحي لها أن هذه الأدوات مهمة للتواصل مع الفرس، تمامًا مثل استخدام الصوت ولغة الجسد. تدرب لورد بالفعل على أساسيات الفروسية من حيث جاء، ولذلك كان البناء على ما تعلمه أمرًا شديد السهولة. حين لاحظت أنه يطيعها، وأنه بعد تدريب واحد نكزها في كتفها بناصيته مداعبًا فاندفعت للأمام.

هل هذا ممكن؟

سألتني:

إنه يفهمني!

ذات مرة مثلت لها وأنا أمتطي فراناتس كيف تتم المبارزة بالسيوف على ظهور الخيل، ولكنني بالطبع لم أحمل سيفًا في يدي حتى لا أذكرها أن الخيول يزج بها في الاحتراب والاقتتال، ثم قامت بالتصفيق لي حين ترجلت عن الفرس.

لم يسبق لي أن رأيت عرضًا كهذا من قبل. لقد بدوت كمخلوق مذهل ومتفرد!

لم نكن نفترق أبدًا، وصارت الأيام بطولها وعرضها ملكًا لنا. كنا نتناول غداءنا معًا أسفل أشجار الكستناء التي تقع في ملكية فندق صغير في جوار ساحة التدريب. أحيانًا أرى زوجها حين يوصلها في الصباح، ولكن السائق الخاص هو الذي يحضر لتوصيلها في المساء، ويجلس يحدق في اتجاه الجبال دون أن يبدو على ملامحه أي تعبير. بينما كنا نقف نحن الاثنان بجوار السيارة، غير قادرين على الافتراق بينما نُذكر بعضنا بأحداث اليوم، والتدريبات، ونعود للتحدث عن الخيول. ذلك ما جعلني غير متفاجئ بسؤالها عن اسم حبيبتي يليتسا في ذلك اليوم. وحين سألتني: بم تدعوك يليتسا، وقلت لها: ستيفو. «حسنًا، فأنت ستيفو من الآن، وأنا فيرونيكا، انسَ أمر (سيدتي)، فقط فيرونيكا، هل فهمت؟ من الجيد أنك فهمت».

ما فهمته لحظتها أن هناك شعورًا ما يختمر بيننا ولم يعد هناك مجال لاجتناب حدوثه، منذ اللحظة الأولى. حين ركبنا وسرنا جنبًا إلى جنب بطول نهر السافا، نجذب لجامي فرسينا لنوجههما في السير بين جوانب المرتفعات وسط الغابة، ثم جلسنا فوق الحشائش، وتحدثنا عن أن الخيول كانت في الماضي بحجم الكلاب ثم ازداد حجمها عبر التاريخ، قلت لها:

الآن، أصبحت الخيول كبيرة، وذكية، وأكثر تحررًا من البشر أنفسهم.

لأن البشر لا يتمتعون بأي حرية على الإطلاق. بكل تأكيد، أنا لست حرة.

وقفت على قدميها فجأة، وسارت روحة وجيئة فوق العشب، ثم أكملت:

أنت على الأخص أقل حرية مني في ثكنتك العسكرية تلك.

هنا شعرت أنني لم أفهم ما قالته مرة أخرى،

لم قد يكون البشر غير أحرار؟ ولماذا تظنين أنكِ لستِ حرة؟

بدأت تتحدث عن الثكنات وكأنها نوع من أنواع السجون، والحقيقة أنني لم أعتبر مهنتي العسكرية أبدًا قيدًا يحد من حريتي. أوضحت لها وجهة نظري، والتي لطالما أمنت بها وما زلت حتى اليوم. وهي أنه بداخل الصورة -التي يبدو إطارها عبارة عن مجموعة من القواعد والأوامر التي يجب اتباعها وإطاعتها وتنفيذها- يوجد الكثير من الحرية لشخصٍ يفكر ويقرأ ويهتم بالتاريخ العسكري، ويركب الخيل ويتجول بها في المروج.

صمتت بعض الشيء لتفكر في ما قلته:

ربما تكون على حق! فلو أنك قادر على وضع الحدود لحياتك بنفسك، ويسعدك السير عليها والالتزام بها، فإن في ذلك حريتك. أما أنا، فالآخرون هم من يحددون أبعاد حركتي، بعض الخطوط غير المرئية، يفرضون عليَّ مساحتي ويقولون لا يجوز أن تتعدي الحدود إلى ما وراء ذلك. ما وراء ذلك لم يعد جزءًا من عالمك بعد الآن.

لقد صدمتني فكرة أن مساحة عالمي أكثر اتساعًا من عالمها، وعندئذٍ، رن في أذني صوت الرائد آليتش وهو يتحدث عن شرف الضابط. في ظهيرة أحد الأيام، دخلت فيرونيكا عالمًا لم يعد عالمها بعد الآن، وهو عالمي. وأظن أنه من الممكن أن أدعوه عالمنا. هي دخلت عالمنا. إن اللحظة التي قررتْ فيها أن تتعدى حدود عالمها وتتجاوز الخط الذي يفصل بين كل من حياتها مع ليو جارنيك وحياتها مع ضابط الفروسية هي لحظة انقلاب العالم رأسًا على عقب. لم ندرك حينها ما الذي حدث، لأننا في هذا الحين لم نفهم، ولم نضع في اعتبارنا أي توابع قد تحدث في المستقبل، وخاصة ما الذي سيجلبه ذلك على حياة ضابط يقيم في المقر الرئيس للخدمة بقاعدة عسكرية تقع في شمال صربيا.

في نفس اليوم، وبعد أن تناولنا الغداء، ركبنا الخيول في نزهة بطيئة حول مرتفعات التلال في الغابات، وسألتني فجأة:

ما رأيك بأن نسرع الخطى أكثر؟

ثم ضربت مؤخرة لورد بالسوط، فارتجف جسده على أثر ذلك، كأنها أيقظته من نوم عميق، ثم في اللحظة التالية انطلق في عدوه. اعتدلت في وضعها على السرج، وضبطت حمل وزنها على الفرس، ففهم لورد من حركتها أنها مستعدة للانطلاق بسرعة أكبر. انطلقت وراءها ولحقت بها في منطقة متسعة وسط المروج. قلت لها بفخر:

أنتِ تركبين الفرس كأنكِ أحد الأولان البولنديين.

ضحكت بصوت عالٍ، ونطقت بلكنتها المائلة إلى تطويل المدّ:

أولانيي؟ أنا أركب الفرس مثل أولانيي بولندي؟!

دارت بالفرس في طريق جانبي مظلل لتتوغل أكثر في الغابة، وفزعتُ خوفًا عليها حين اصطدمت بفرع ممدد من الشجر كاد أن يصيب فرسها، لكنها استطاعت أن تحافظ على اتزانها وبدت في وضع السيطرة تمامًا. حين خرجنا إلى طريق يسطع فيه ضوء النهار، بدأت تهدئ من روعه بإعطائه الأوامر، وربتت على ظهره، ثم قفزت عنه بخفة وببراعة.

لو كنتِ أحد المجندين لدي، لكنت تباهيتُ بكِ الآن، وبنفسي أيضًا.

منذ أسابيع قليلة، لو سمعت عن المجندين لفقدت أعصابها في التو واللحظة، أما الآن فقد ابتسمت.

إذًا! سأعتبر هذا إعلانًا منك بأن طالبتك قد تخرجت من دورة تعلم الفروسية.

يمكننا قول ذلك، إلا إذا كنتِ راغبة في البدء بدورة تعلم الرماية.

أوضحت أن غالبًا ما يبدأ المجندون تعلم الرماية بمجرد الانتهاء من الفروسية، باعتبارها ضمن تدريبات القتال أثناء المعارك: مثل إطلاق النار من فوق سرج الفرس، واستخدام السيف، وأصول الكر والفر. ولكن بالنسبة لاختصاصات مدرسة الفروسية، فإن مهمتنا تنتهي بانتهاء دورة الفروسية.

قالت بذهول:

النهاية؟

بعدها جلسنا على العشب، وظننتُ أنها على وشك أن تبدأ واحدًا من نقاشاتها عن الخيل والحرية، لكنها في ظهيرة ذلك اليوم نظرت إلى الخلاء من حولها بقليل من الشرود، وامتد نظرها إلى صفحة السافا بموجه الرائق والظلال السامقة التي سقطت على جوانب المرتفعات العشبية المنزلقة بعض الشيء. فجأة، استلقت في حجري ونظرت في عيني.

هل تسمح لي؟

كما لو كنت بالفعل أملك أن أمنحها أي تصريح ممكن. عبرت عن عدم ممانعتي، فسألتني وهي على نفس وضعها:

ماذا يمكن أن تقول يليتسا الآن؟

ظننت في نفسي أن السؤال الأكثر مناسبة للسياق يجب أن يكون سؤالي عما يمكن أن يقوله ليو زوجها. أما يليتسا، فهي بعيدة هناك في فاليفو، وقد مر شهر كامل منذ أرسلت إليّ آخر رسالة منها. حيث لم تعد رسائلها تحتوى على: «ياه، كم أفتقدك! شاسعةٌ هي المسافات التي تفصل بيننا»، بل بدلًا من ذلك فقط: «أتمنى أن تكون على خير ما يرام في سلوفينيا، كما آمل أن تحصل على ترقيتك قريبًا وتأتي إلى هنا متفاخرًا بنجوم النقيب على كتفيك. سوف يكون والدك فخورًا بكَ كثيرًا» والحق أن يليتسا فعلًا بعيدة جدًّا، لكن زوج فيرونيكا قريب جدًّا. وربما سيأتي هذا المساء يقود سيارته الرياضية، مرتديًا حلة بيضاء، وقد يسأل:

حسنًا، ما مدى تطور مهارات الفارسة الآن؟

امسحْ على شعري. أعرف أنك ترغب في ذلك!

قالت لي، مضيفة الجملة الأخيرة حين شعرت بترددي. كنت شاردًا في صورة الرائد آليتش وهو يقول «شرف الضابط، شرف الضابط!» لكن ردة فعل يدي كانت أسرع وأقوى من شرف الضابط، ومن مقدرتي على التراجع عنها، أو كبحها، لم أجرؤ على ذلك ولو لأسباب شخصية. فكيف أجرح إحساس مجندة من أكثر المجندين لدي طاعة وحمقًا، خاصة أنها أنثى، وأن الرائد مهتم بها كثيرًا. فماذا إذًا لو أنها متزوجة من صديقه الحميم، عماد المجتمع المحلي وخيرة رجاله، الذي وضع لفيرونيكا حدودًا غير مرئية ليبقيها سجينة ومنزوعة الحرية؟ لحسن الحظ هو لم يأتِ في مساء هذا اليوم، لم يعد من الممكن محو ما حدث. كنا منتشين من أثر ما وقع بيننا في الظهيرة، حتى صرنا في اللحظة التي تلتها مختلفين تمامًا. أتوقع أنه حتى السائق الذي فعل ما يفعله كل يوم بعد وصوله ليقلها -في انتظار أن ننتهي من وداع بعضنا، فيقوم بالتخفيف من ألم الوقوف بتوزيع حمل جسده على قدميه، وتبديل الارتكاز عليهما، بينما يحدق في نقطة ما لا معلومة باتجاه المرتفعات- أتوقع أن يكون قد فهم ما يجري بيننا. حين انطلق بها في السيارة أخيرًا، لوحت لي بمنديل أبيض ثم تركته يسقط في زاوية قريبة، تمامًا قبل اللحظة التي اختفت فيها السيارة.

قمنا بمد فترة التدريب في ما بيننا دون أي اتفاق على ذلك، وقضينا أسبوعين من ركوب الخيل في جو الخريف الرائع، يستمتع كل منا بصحبة الآخر. أسبوعان في سبتمبر حين يملأ الضباب سماء ضواحي ليوبليانا ويستمر أثره في الجو حتى الصباح، حين تتساقط أوراق الأشجار الصفراء وتتطاير فوق سحب الضباب.

تنفس لورد وفراناتس بخار الضباب وملآ به صدريهما، ويداعبان بساقيهما أكوام أوراق الأشجار الساقطة، ويشقان طريقهما بصعوبة في الطرق الموحلة. نتركهما أحيانًا مقيدين إلى جذع شجرة، يتمايلان تحت شمس الظهيرة الساطعة التي ما إن تشرق في نحو الحادية عشرة، حتى تكون قد امتصت كل الضباب الأبيض لآخر سحابة منه، بينما نرقد أنا وهي على الطحالب، حرين -تمامًا كما قالت- حرين كوحيدين في هذا العالم. أو على الأقل في هذا الجانب من العالم.

بدت السحب التي تشكلها العاصفة القادمة بالكاد واضحة في الأفق. واصلت ألمانيا في هذا التوقيت التدريبات وتجميع حشودها، بينما حكمت المحاكم الخاصة في إيطاليا على الوطنيين السلوفانيين بالسجن. وعرفتُ من التجمعات الصباحية داخل المعسكر أن الجيش الملكي يستعد لمناوراته الخريفية الكبرى، والتي صممت بهدف استعراض الجاهزية لأي معركة مقبلة. كنت سأشعر بحماسة أكبر لأن سريتي انشغلت بالتدريبات المكثفة، ولخفق قلبي من السعادة لو سمعت أخبارًا عن القيام بالمناورات لأنها الوقت المثالي الذي يمكن لضابط من نوعيتي -ضابط جيد- أن يظهر أنه قادر على الأداء، وعلى اجتياز أي مهمة، وكنت سأنشغل راضيًا بكل هذا لولا ما وقع بيني وبين فيرونيكا. فكرة الترقي بالنسبة لي لم تكن سوى مزية ثانوية، ومجرد الكلام عن أي فرص للترقي في مثل هذه الظروف ممنوع منعًا باتًّا إلى أن تنتهي المناورات. ولكن أثناء الاستعداد للقيام بالمناورات، لا يمكن لأحد أن يجرؤ ولو على مجرد التفكير في هذا الأمر. ذلك أن الإجراءات في النهاية تحافظ أولًا على أولوية مصالحها. لكنني الآن لم أعد مهتما بأي ترقية، فقد صار قلبي ينبض أسرع كلما وصلت إلى قرية شتيبانجا، ثم أسرع وأسرع وأنا أجلس في انتظارها، وأعرف

أنه سيرتج بين ضلوعي في اللحظة التي تصل فيها، ثم يبدأ في تقليل سرعة نبضه رويدًا رويدًا إلى أن يهدأ تمامًا في النهاية في ذات اللحظة التي سنجلس فيها جنبًا إلى جنب نتجاذب أول أطراف الحديث. وسيرتاح أكثر لفكرة أننا وحيدان مرة أخرى، وأننا معًا فقط ننعم بحريتنا ونحافظ على خصوصية سرنا. لا أدري كيف استطاعت هي أن تخفي ما بيننا، أو أن الأمر مجرد صدفة سعيدة. ولكن الغريب أننا في خلال هذين الأسبوعين اللذين خلونا فيهما إلى نفسينا تمامًا، لم أر زوجها ولو مرة واحدة. في كل صباح يقلها سائقهم، وقبل حلول المساء، وأحيانًا بعد أن يحل الظلام، يأتي ليأخذها ويجلس مصطبرًا حتى نظهر فجأة من صوب ما. بل صار يصطحبني معها ويوصلني إلى بوليي، أمام المبنى المكون من طابقين حيث قمت بتأجير شقة صغيرة، وبعدها يأخذها إلى المنزل في وسط المدينة. حتى إنه أصبح متكيفًا مع طول الانتظار في لحظات وداعنا الطويلة، ولا أعرف كيف استطاعت أن تبقيه صامتًا وتمنعه من الوشاية بنا.

ذات مساء، وفي وقت متأخر حين قاربت الساعة العاشرة، قالت لي أثناء رحلة توصيلي إلى منزلي إنها تريد أن ترى مكان سكني. حينها أسقط في يدي تمامًا، ولم أدر بماذا أجيبها. كانت شقتي شديدة التواضع، مكونة من غرفة واحدة ومطبخ صغير، أما الحمام فيقع خارج الغرفة بنهاية الممر، ومشتركًا مع السكان الآخرين. ضباط آخرون سكنوا معي بنفس البناية، وتقع شققهم بطول ممر الدخول الذي تنبعث منه رائحة الرطوبة. وهم يبقون أبواب شققهم مفتوحة دائمًا، وغالبًا ما يطل رأس أحد الضباط أو النساء أو الأطفال من فتحات الأبواب لاستراق النظر وإشباع الفضول كلما خرجت من البيت أو عدت إليه. تعامل السكان مع هذا الممر على أنه ساحة تجمعات عامة لإلقاء التحايا وإقامة الحوارات. ونحن جميعًا منسجمون في إقامتنا بالمكان، ولا يبدو أن أيًا منا لديه من الأسرار ما يريد أن يخفيه. وفي المكان كله لا يوجد سوى ثلاثة عُزَّاب، أنا واحد منهم، بالإضافة إلى اثنين من الضباط المبتدئين، وكلاهما متزوج وتقيم مع كل منهما زوجته وحفنة من الأطفال. لم أكن مستعدًّا ولا راغبًا أن ترى فيرونيكا المنطقة التي أسكن فيها ولا أبواب الشقق على الممر، ولا النوافذ المطلة على الساحة، والتي سرعان ما ستفتح جميعها، وتطل منها تلك العيون الفاحصة المستكشفة التي تنزع عنك خصوصيتك وتتخذك مادة خصيبة للنميمة والإشاعات. وكنت أعلم أن ظهور أي امرأة لزيارتي ستكون في اليوم التالي حديث جميع أفراد الثكنات. لكنها أصرت، واصطحبتها إلى شقتي، ولم ترحل إلا في نحو منتصف الليل. لاحقًا، سألتها كيف أنها تسيطر على لوجي السائق بحيث لم يكشف عن علاقتنا حتى الآن، لأنني ظننت أن الأمر إذا انكشف دون أن يخبر زوجها بنفسه، فإن ذلك قد يكلفه وظيفته. كنت أتساءل: هل دفعت له المال لتبقيه صامتًا؟ فأجابتني بنبرة يشوبها شعور بالإهانة:

أنا لا أفعل مثل تلك الأمور!

لكنها بعد ذلك ضحكت:

إنه سحري!

ما حظيت به فيرونيكا أكثر من السحر ومن الفتنة، بل شيء ما غامض يجعل الجميع يقع في حبها: السائق، الخيل، وملازم سلاح الفروسية الشاب الذي دار رأسه وافتتن بقربها منه، وبشعرها الذهبي الأشقر، وضحكتها، ولمستها، وقبلاتها، للدرجة التي جعلته ينسى كل شيء عن حياة الثكنة، وسريته، والمناورات، وجيرانه الضباط، وحتى «شرف الضابط» الذي حدثه عنه الرائد آليتش.

وأظن أن تمساحها وزوجها أحباها أيضًا.

ربما لم أره في هذين الأسبوعين، ولكن هذا الغياب لم يعن بالنسبة لي إطلاقًا أنه لم يعد موجودًا. وبالرغم من شعورنا في تلك الأيام بأن العالم كله يخلو إلا مني ومنها فقط، ومن فرسينا، لكني كنت أدرك أن هذا لا يعني أن العالم من حولنا قد اختفى، أو أننا صرنا غير مرئيين. صرنا مألوفين لسكان ذلك الفندق الصغير الذي نجلس في مطعمه تحت شجره الكستناء، وغالبًا ما نتناول غداءنا هناك. بالطبع ليس هناك عيب في أن يجلس معلم الفروسية مع تلميذته لتناول الطعام في استراحة الظهيرة، فقط لو أن فيرونيكا لم تستمر في تجاوز هذا الخط المحظور الخفي الذي طالما تحدثت عنه، ثم وجدت في تجاوزه كل تلك المتعة. حين وقف النادل بالقرب من مائدتنا بانتظار أن نطلب ما نريد، لم تلق فيرونيكا بالًا له وقالت بصوت عالٍ:

إن زوجي رجل غيور بدرجة لا تصدق، ويتجول بسيارته وهو يحتفظ دائمًا ببنادق الصيد في مقعدها الخلفي.

رأيت النادل يجفل بعينه على أثر سماع ما قالته وأنا أنظر بطرف عيني تجاهه، وأردت أن ألفت نظرها إلى أننا لسنا وحدنا، ولكنها لم تعطني أي فرصة وواصلت بحماسة أكبر:

سوف تقنصه بالرصاص قبل أن يقنصنا هو، أليس كذلك أيها الملازم؟

قرر النادل فجأة أن ينسحب ويسير بعيدًا حتى لا ينصت إلى ذلك الحوار الخطر، وكذلك حتى لا يطلب للشهادة في ما بعد بأمر المحكمة. ضحكت فيرونيكا بصوت صاخب، ثم قالت:

طرفة لطيفة! أصابت النادل المسكين ببعض الذعر. وأنت أيضًا، أيها الملازم! أي نوع من الجنود أنت لتخاف من بندقية صيد؟!

الحق أنني لم أكن خائفًا من بنادق الصيد، بل ما أخافني فعلًا كان هي. كنا نجلس في الساحة المفتوحة من المطعم، وفجأة توجه جميع الجالسين من حولنا بالنظر إلينا بأفواه مفتوحة عن آخرها حين سمعوها تقول لي بصوت عالٍ إنها ستعبث بشعري، ثم مالت بجسدها نحوي، لتسقط كأس خمرها وتنسكب على الطاولة. قال النادل الذي راقب المشهد وهو يعدو مسرعًا باتجاهنا ويحمل في يده المناديل:

لا عليك، سيدتي! هذا وارد الحدوث لأي شخص.

ألا تتفق معي أنه أوسم بكثير حين يكون شعره غير مرتب؟

سألت النادل الذي شعر بالحرج مرة أخرى، وانهمك في تنظيف الطاولة، بينما راحت هي تواصل إثارة الفوضى بشعري. أما أنا، فقد جلست في مقعدي كتمثال خشبي، وكنت أشعر بوخز عيون جميع أهل ليوبليانا المحترمين الذين ثبتوا نظرهم على ظهري، وتخيلت شفاه سيدات المجتمع المحترمات ورجال المجتمع المحترمين وهي تتهامس وتتندر بالفضيحة التي تقع على مرأى من الجميع. كنت أخشى عليها لأنني كنت أعلم جيدًا أن هذا الأمر لن ينتهي نهاية جيدة. وهو ما حدث بالفعل. في هذا المساء، ونحن عائدان في الطريق إلى سكني أخبرتها صراحة أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو. وأن هذا الأسلوب سيجعل زوجها وعائلتها بأكملها يكتشفون العلاقة التي بيننا بأسرع ما يمكن إذا ما استمرت في التصرف بهذا الشكل.

وكيف ترى تصرفاتي؟

سألتني بغضب، ولم أجب. فهي إن لم تعرف كيف تتصرف سيدة محترمة من علية القوم في مجتمع ليوبليانا، كيف لي أنا –ضابط من فاليفو حيث نزرع البرقوق ونحتسي السيليفوفيتس حتى الثمالة كما يظن زوجها- أن أخبرها.

آها! لقد فهمت. أنت ترى أنه لا بدَّ أن نختبئ. ولكن ممن؟

لم أجبها مرة أخرى، فنحن لم نكن في السيارة وحدنا على أي حال. اتخذ السائق سمت القرد الأحمق الذي لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم، ولم يرفع عينه عن الطريق أمامه وكأن شيئًا لا يحدث إطلاقًا، ويضرب البوق كلما اعترضت طريقه عربة يجرها حصان. ولكن رغم كل ذلك هو لم يزل جالسًا معنا في السيارة.

لا تقلق!

واصلت حديثها:

لن يطلق عليكَ الرصاص.. ليو لا يغار إطلاقًا.

تعكر مزاجي، ولم أشأ أن أسمع أي حديث عن زوجها ولا عن علاقتهما في تلك اللحظة. لم يكن يعنيني لو أنه غيور أم لا. حين توقفت السيارة أمام مسكني، خرجت منها معي، وقالت للسائق شيئًا ما فهز كتفيه وانطلق مبتعدًا.

إذا أردت أن نختبئ، فهيا بنا نختبئ. سوف أقضي الليلة معك.

كنا نقف على حافة الطريق لكنني شعرت أننا نقف على حافة جرف سحيق.

الآن، أنظر لذلك الذقن غير الحليق في تلك المرآة المتشققة، في مكان ما بمنتصف سهول الفيريولين الرطبة الحارة التي تقع فعلًا على حافة هوة جرف سحيق، ليلقى بنا جميعًا إلى جحيم الهزيمة مع أعلامنا وخيولنا وقَسَم العسكرية، ومدافعنا، وشرفنا وبنادقنا الآلية، تمامًا مثل هذ السياسي لوتيش[1] الذي مر بسيارته فوق جسر، ولم يلحظ سائقه قصير النظر أنه مقبل على هوة صنعتها قنبلة سقطت من طائرة فوق الجسر، ليسقط به في الجحيم. ثم سلّم الشبح نفسه حيث استقرت الجثة في قاع ممر مائي ضيق على مجرى نهر ما في سلوفينيا، بعيدًا كل البعد عن بيلجراد، وعن الملك الذي يقيم في لندن يقوم باستعداداته مع حلفائه الإنجليز للعودة إلى الوطن والاحتفال بالنصر. لكنه لن يعود، ونحن أيضًا لن نعود. فمصيرنا إلى الجحيم لا محالة. النهاية قريبة وكل شيء على وشك الانتهاء، كما توشك قصتي على الانتهاء الآن.

أسمع صوت البوق ينادينا للتجمع ولكن تنازعني نفسي عن الامتثال للنداء ولا أجد رغبة في التحرك. أسمع بعض الجنود يهرعون إلى النداء، ولا أفهم من أين أتوا بتلك القدرة على التجاوب مع الواقع. ما معنى أي شيء نفعله الآن؟ رفع العلم والمسيرات التي لا وجهة لها، والغناء من أجل رفع الروح المعنوية للولاء العسكري.

« نسير في صفوفٍ، إلى الأمامِ اصْفُفْ!

فرسانُ الملكِ بيتر بِدرعنا والسيف»

هكذا ينسى الجنود الهزيمة، وأنهم في الأسر، وأنه لا سبيل للرجوع. لقد صار الملازم رادوفانوفيتش –واحد من أخلص ضباط الرائد آليتش وأكثرهم انضباطًا- في عداد المفقودين، ولم يعد له وجود في سجلات الأحياء. هو لم يعد يدرك معنى كل ما جُبِلَ على القيام به من تدريبات وتحايا عسكرية، ورفع للعلم. «كل هذا الجنون!» كما كانت تسميه عزيزتي فيرونيكا. بعد كل ما رأيت في البوسنة وليكا، والجبال السلوفينية، وكل ما مررت به حتى نهاية الحرب، لم أعد قادرًا على رؤية تلك التدريبات العسكرية التي كنا نقوم بها سوى درب من الجنون. ما زلت أذكر تشيدو، صديقي الذي قال لي قبل أن يموت، والدماء تغطي وجهه وتفور على شفتيه: «اللعنة على هذه الحرب!». كان ضابطًا أيضًا، وطالما تفاخر بالسير في ماريبور والتجول في طرقاتها مرتديًا حذاءه العسكري اللامع. طالما غنى «نسير في صفوفٍ...»، وكنا نغنيها معًا من قلوبنا. حين ترى صديقك يُرغي دمًا وهو يحتضر، كما يحدث لفرسٍ يسقط بعد عدوٍ طويل، لن تجد لديك صبرًا يحملك على تقبل المزيد من الغناء، ورفع الأعلام. أي أعلام تلك التي يرفعها جنود سجناء في معسكر الحرب بعد أن تحطم جيشهم ونالت منهم الهزيمة؟! أغبط تشيدو على أنه عُفي من تحمل هذه المهانة.

الضباط الإنجليز يسيرون حول المعسكر، ثم يأمروننا بالصعود إلى عنابرنا قبل أن تحضر إلى المعسكر لجنة ما ستنعقد لتحدد من الذين يتعاونون مع الألمان، ومن الملطخة أيديهم بالدماء.
«نسير في صفوف، إلى الأمام اصفُف...»، ما هذا الغباء! بعد أربع سنوات من الحرب، من هذا الذي لم تتلطخ يده بالدماء؟! «فرسان الملك بيتر، بدرعنا والسيف...» لِمَ لم تسأل العريف المرتدي زي المشير، جوسيب بروز -هذا لو أن ذلك فعلًا اسمه الحقيقي- ذلك الشيوعي المتسبب بالأساس في كل هذا من البداية، والذي طعن شعبنا في صربيا في الظهر، كما طعن جنرالنا دراجا؟ بالأمس تملق الإنجليز دراجا ميهايلوفيتش الذي أُعجب بهم كثيرًا. تملقوا تشيشو محبوبنا الذي تخرج من الأكاديمية الفرنسية العسكرية ويعرف أنه أول من انقض على الألمان وهاجمهم. فقد كان زعيم العصابات الأكبر في أوروبا، ووضع الأمريكان صورته على الصفحات الأولى من جرائدهم. لِم لم يسألوا غريب الأطوار المدعو تيتو الذي منح نفسه لقب مارشال وهو لم يكن سوى مجرد عريف نمساوي، لا أكثر؟ لم لا يسألونه ما إذا تلطخت يده بالدماء أم لا. منذ أيام قلائل، وقف ليلقي خطبة عريضة لحشد من الناس في ليوبليانا، وقد أتى مراسلونا من يوغوسلافيا ليقدموا لنا تقريرًا عن أن الشيوعيين أجبروا الناس على التجمهر للاستماع إلى تلك الخطبة لأن جميع المواطنين هناك ضدهم ويخططون للقيام بانتفاضة قريبة. ستكون تلك هي اللحظة المناسبة لنا كما يقول الناس هنا. لذلك يرون أنه من الضروري أن نكون مستعدين دائمًا، وكل ما علينا: حين ينطلق البوق، تجمعوا حول العلم!

اليوم بدلًا من أن أذهب للتجمع حول العلم على إثر صوت البوق، قررت أن أبقى لأتخذ قرارًا بشأن ما إذا كنت سأحلق أم لا. هذا الحقل الكثيف الذي نما في أنحاء وجهي وأخفاه، والشيب المنثور على صدغيه والذي ظهر قبل ميعاده، والثقب المظلم في مقدمة فكي العلوي البارز وسط أسناني الأمامية. هذا هو ما أصبحت عليه، وما يعبّر فعليًّا عما يجول بداخلي. وبدلًا من أن أقضي اليوم في الحديث مع رفاقي في الجيش عن الوسائل الممكنة للعودة إلى الوطن، سأظل هنا أفكر في أجمل أيام حياتي الماضية. الأيام التي قضيتها مع تلك المرأة التي جاءت لزيارتي فجأة تلك الليلة،

وللمرة الأولى منذ سبع سنوات.

بعدما قضت الليل في مسكني كما أخبرتني أنها ستنام عندي ليلتها -وسأقول «تنام» بغض النظر عن دقة ما قالت- رأيتها في الصباح التالي تقف عند أقرب موقف سيارات، وعرفت لحظتها أننا لن نعود إلى ما كنا عليه في الأيام السابقة. الصباح التالي كان يوم أحد، وهو يوم الإجازة من دروس الفروسية حيث يكون جدولها ممتلئًا بتجمعات الغداء وما بعد الظهيرة. لكنها لم تأتِ إلى الإسطبل في اليوم التالي ولا بعده. ومنذ حدث هذا، انفتحت كوة من الخواء والفراغ في حياتي خرج منها ظلام أطبق الخناق على صدري، لم أستطع التخلص منه ولا محوه، لا بجولات التنزه على الفرس وحيدًا، ولا بكميات السليفوفيتس التي جرعتها بنهم، أو غيرها من الخمور أو الأشياء التي أغرقت نفسي فيها. عندئذ فقط أدركت روع ما حدث، ومدى غبائي حين أعطيتها تلميحات سلبية عن سلوكها. لقد أحببتني تلك المرأة ولم أكن قادرًا على الاستمرار في الحياة من دونها. الآن لم أعد مهتمًّا إطلاقًا بما يقوله الناس عني، أو كيف ينظرون لي، وإلى ما يمكن أن يؤول إليه هذا أو ذاك. لم أعد أبالي بـ»شرف الضابط»، فعليه اللعنة وليذهب إلى الجحيم. هكذا قلت لنفسي: «لستُ مهتمًّا». أردت بقوة أن أسُدَّ تلك الكوة المظلمة وأستعيدها في حياتي. اشتقت إلى شعرها الذهبي، شفتيها، جسدها، صوتها، ضحكها على تلميحاتها الوقحة. فقط أردت استعادة كل هذا دون اهتمام بالتوابع التي قد تترتب على ذلك. سأكون مثلها حين فهمَتْ أن شيئًا لا يمكن منعه يحدث فعلًا بيننا، ولم تهتم منذ فترة طويلة بتوابع ذلك أيًّا كانت. أما أنا، فلم أفهم إلا حين غابت لعدة أيام فقط.

لذلك لم أهتم حين ظهر زوجها يوم الأربعاء عند الإسطبل حيث كنت أداوم على الذهاب يوميًّا.

اتصلت بالقاعدة فأخبرني الرائد آليتش أنه لا بدَّ وأنني سأجدك هنا.

قال ذلك، ثم أطال النظر إليّ كأنه ينتظر توضيحًا مني، ثم أكمل:

من الواضح أن الرائد لم يكن يعرف أنك انتهيت من التدريب.

صمت مرة أخرى، ولم أكن قادرًا على التأكد من أنه عرف شيئًا عما وقع بيني وبين زوجته، لكنني في الوقت نفسه لم أكن مهتمًّا. ما حدث هو أنني كذبت على الرائد وأخبرته أن التدريب باقٍ على انتهائه أسبوع، لأنني أردت أن أراها لمرة أخيرة على الأقل.

هل مرضت؟

ظل المغفل الماكر يحدق فيّ بعينيه الزرقاوين، ثم أجاب:

لم لا تأتي لزيارتها لتعرف ما إذا كانت مريضة أم لا؟

لا أجرؤ على فعل ذلك، فأنا مجرد مدرب خيل.

احتقرت نفسي حين خطر ببالي أنه الآن يراني كاذبًا غبيًّا وخائنًا مدعي. ولكن ما الذي يمكن أن أقوله غير ذلك؟

يمكنك الاتصال بها، وأنا واثق من أن ذلك سيسعدها.

سأحاول! سأتصل بها من هاتف القاعدة عندما أصل إلى هناك. فلا بدّ أن أعود الآن، وأقدم تقريرًا

نهائيًّا للرائد بأن تدريب الفروسية الخاص بزوجتك —وأتمنى ألا أكون قد أسأت الفهم- قد انتهى.

هذا صحيح تمامًا! لقد رأيت بنفسي أنها صارت بارعة في ركوب الخيل. هي نفسها تقول إنها تقود الفرس كالأولان البولنديين. أنا آسف أنني لم ألحظ ذلك من قبل.

ابتسم ببرود وواصل حديثه:

ستبقى في الفراش لبضعة أيام، ثم ستسافر باتجاه الساحل. لقد اشتاقت إلى قضاء سبتمبر في دالماسيا التي يقال عنها إنها أجمل مكان يمكن قضاء سبتمبر فيه.

دعوت ألا يلحظ ارتعاش يدي. وبالتأكيد هو لم يسمع تسارع نبض قلبي وارتجاجه في صدري. قلت لنفسي: إذًا، فقد انتهى كل شيء.

ليو جارنيك، زوج فيرونيكا، والسيد المسيطر على روحها، وراعي صحتها، وصاحب ملكية جسدها، قال لي مبتسمًا:

حسب ما أذكر لقد دعوتك ذات مرة للرماية.

بالفعل دعاني ولكني ظننته نسي ذلك.

أنا ذاهب الآن إلى ساحة الرماية، فهل تحب أن أصطحبك معي؟

أول ما أملته عليّ غريزتي حين دعاني هو أن أرفض تلك الدعوة المتطفلة في الحال، ذلك أنها استدعت طرفة فيرونيكا عن أنه قد يرمي كلانا بالرصاص. لقد كرهت ابتسامته، وسيارته، ملابس الصيد التي يرتديها، وشعره المصفف بعناية للخلف، وتمنيت لو أنه أمسك ببندقيته الملقاة على المقعد الخلفي، وصوبها على جبينه العريض الذي رفع عنه شعره الأشقر، وهو يقف بالقرب من السيارة، ثم يسحب الزناد ويطلق الرصاصة.

ليس هذا الموعد الذي تعود فيه إلى القاعدة، فهذا هو الوقت المخصص للفروسية. وطالما أنه لا فروسية، فلنذهب للرماية.

وذهبنا للرماية، ورأيت العديد من الرماة في الساحة، مرتدين زي الصيد، وقام زوج فيرونيكا بتقديمي إليهم واحدًا واحدًا وهم يقفون في صفوفهم. على طاولة ليست بالبعيدة عن الصفوف، كان هناك نادل يقدم المشروبات الباردة وزجاجات الخمر.

سنشرب معًا نخب انتهاء دورة تدريب الفروسية. ولكن أولًا سننطلق إلى العمل.

بمجرد أن بدأنا، اتضح لي أن الهدف من وجودي هو مشاهدة الاستعراض الذي حرص ليو على تقديمه أمامي. حرص على الاحتفاظ بابتسامته رغم ارتعاش يديه الذي تسبب في أنه أخطأ التصويب لخمس دورات متتالية. ولم يكن أدائي أنا أيضًا أفضل منه بأي حال. ولكن على الأقل أراحني كثيرًا أني عرفت حقيقة الموقف. فالديوث يعرف كل شيء عن علاقتي بزوجته وسوف يسعى للتخلص من وجودي بأكبر قدر ممكن من اللطف والهدوء. كذلك اتضح لي أن فيرونيك لا تريد الاستمرار في هذه العلاقة. بمجرد أن رفعنا كأسينا لنعلن النخب، قال لي:

بالمناسبة، سمعت أنه سيتم انتدابك إلى مكان آخر.

«أيها الخنزير!».

بالكاد حبست الكلمة على لساني، وامتنعت عن قول ما لزم أن أقوله في هذا الموقف: «أيها الخنزير الثري القذر، لعلك الآن فخور بنفسك بما يكفي». حري بي أن أفجر رأسه بعيار ناري لتتناثر شذراتها في كل مكان بساحة الرماية في ليوبليانا. ولكن الرجال أمثاله لا يموتون بعيار ناري، ولا يحدث لهم مكروه، ولكنهم يظلون محتفظين بهذه الابتسامة على وجوههم للأبد. ابتسم الوغد، وقال:

الرائد آليتش صديق صدوق، وهو الذي أخبرني بذلك بنفسه.

التفتُ، وسرتُ بعيدًا، فناداني:

أيها الملازم، لا تنسَ أن تتصل.

لم أنس. فقد توجهت مباشرة إلى القاعدة وذهبت لأثبت حضوري وأقدم تقريري، ولكن بينما كنت جالسًا في انتظار أن يسمح لي الرائد آليتش بالدخول، قمت بالاتصال، وجاءني من الطرف الآخر صوت امرأة تخبرني أنه لا يمكنني التحدث إلى فيرونيكا لأنها مريضة، وحين أصررت قالت صاحبة الصوت أن بإمكاني التحدث مع والدتها يوسيبينا التي جاءت لزيارتها. لكني أغلقت الخط، ووضعت السماعة، ثم سرت في خطوات وئيدة من الباب إلى النافذة، جيئة وذهابًا. صفعت الباب من خلفي وتوجهت إلى الطرقة المؤدية إلى مكتب الرائد آليتش الذي تركني منتظرًا الدخول إليه لفترة طويلة، حين دخلت، كان جالسًا على مكتبه، ولم يرفع رأسه لينظر ناحيتي حتى بعد أن تعمدت أن أرفع صوت وقع قدمي لألفت انتباهه، وبعد أن أخبرته أني جئت لأقدم تقريري. وقع بعض الأوراق أمامه وأزاح ورقة من بينهم على المكتب باتجاهي.

إن لم تأت اليوم لتقديم تقريرك، كنت سأستدعيك للحضور. لقد تم إعادة انتدابك. إلى فرانيا. على الحدود البلغارية.

لم يكن ليجد أبعد من هذا المكان عن ليوبليانا لينفيني إليه. التقطت الورقة من فوق مكتبه.

هذا ما كنت على وشك أن أسأل عنه. الموقع الذي انتدبت إليه.

أنت تعرف الآن.

أعرف. ولهذا السبب أتيت لأقدم تقريري.

هل كنت تفكر في محاولة إقناعي بإبقائك في ليوبليانا؟

خطر على بالي أن هذا ما كنت أفكر فيه فعلًا على وجه الدقة، وأنه لمثير للشفقة أن أفكر فيه. أن أتوسل للبقاء بقرب المرأة التي علمتها ركوب الخيل.

لقد أردت أن.....

هذا كل ما قلته، ولم أستطع أن أكمل. قال لي بهدوء:

حين عهدت إليك بهذه المهمة....

لم يكمل جملته. ربما أراد أن يقول شيئًا عن شرف الضابط. لو قالها، لكنت قلت له: «ليذهب شرف الضابط إلى الجحيم، فلا يهمني شرف الضابط بمفهومك أنت وفي عرفك. شرف الضابط الحقيقي يُختبر في أرض المعركة حين تكون حياته على المحك». ولكني لم أقل ذلك. من المؤكد أنه أراد أن يقول إنني «أستحق الإبعاد وإعادة الانتداب للالتحاق بالمشاه حيث آكل التراب وأسبح في الوحل. سلاح الفروسية يبصق على المشاة». لكنه لم يقلها.

اثبت حضورك في موقع القيادة في خلال ثلاثة أيام. الرقم مكتوب في ذيل الورقة.

تململت في وقفتي، وقلت له:

أردت فقط أن أعرف ما أسباب هذا النقل.

لم أزد على ذلك، فرد دون أن ينظر إليّ:

لم أسمح لك بالتخلي عن وضع الانتباه في وقفتك.

انتصبت مشدودًا مرة أخرى في وقفتي. فقال:

يمكنك الذهاب الآن، ولا أريد أن أراك مرة أخرى.

ذهبت، ثم بالكاد رأينا بعضنا بعضًا مرة أخرى حين بدأ الأمر برمته، قبل غزو إبريل ليوغوسلافيا. بعدها سمعت أنه سلم نفسه ووحدته لفرق مدرعات ألمانية بالقرب من درافوجراد. أُخِذَ في الأسر بعد أن تصالح مع «شرف الضابط»، حتى يقضي الفترة المتبقية من الحرب في سلام. أما أنا، فقد دافعت عن شرفي وشرفه على أرض المعركة الدامية في البوسنة، وليكا، ودون توقف حتى اليوم الأخير من الحرب في جبال سلوفينيا. كان لا بدَّ أن أعرف منذ زمن أنه جبان. لو لم يكن جبانًا لما ارتعد خوفًا ممن أطلقوا النيران في ليوبليانا واستسلم لهم وصار تحت إمرتهم. لو لم يكن جبانًا لسألني عن حقيقة ما حدث. لكن الأمر لم يعنه، ولم يهتم بمعرفة ما حدث ولا بما أعرف.

يمكنك الذهاب!

قال لي دون أن يرفع رأسه أو ينظر لي حتى بعد أن أديت التحية وخرجت من الباب. وفي الخارج، رأيت مندوبًا للمراسلة يأتي مهرولًا ناحيتي، وقال لي: هناك مكالمة لك في غرفة مناوبة الضباط. مكالمة من فيرونيكا. سألتني:

ما الذي حدث؟

لا شيء. ألستِ على الساحل الآن؟

أي ساحل؟ أنا راقدة في فراشي، ودرجة حرارتي تعدت المئة بأربع درجات. هذا ما يحدث للنساء حين يكذبن وهن جالسات على أرض الغابة العشبية الرطبة في سبتمبر.

حاولت أن تضحك، ولكنها سعلت بقوة وعنف بدلًا من ذلك. واستمر السعال وهي تحاول مواصلة الحديث:

يقول ليو إنه قد تم إعادة انتدابك.

هذا صحيح، إلى الحدود البلغارية.

كنت قادرًا على سماع صوت أنفاسها الثقيلة، وقالت بعد لحظة:

هذا غير حقيقي.

بل هو صحيح، آسف.

لم أستطع قول كلمة أخرى، وأغلقت الخط.

نظر جميع من بالغرفة إليَّ نظرات ساخرة، ولكني شعرت بلا مبالاة. ذهبت إلى مكتبي لأجمع أغراضي، ولكن موظفي القاعدة توافدوا إلى المكتب واحدًا تلو الآخر، لا لشيء إلا ليشاهدوا الضابط الذي عوقب بإعادة الانتداب على ما فعله بنفسه. في النهاية، قررت أن أنتهي من جمع باقي أغراضي في الليل، حين يكون المكان خاليًا من الجموع أثناء المناوبة الليلية. رأى آليتش أن يضعني على جدول المناوبات الليلية الإضافية كشكل من أشكال توديع ليوبليانا، وذهبت لإحضار فراناتس من الإسطبل إلى القاعدة، فوجدته في إسطبلات البلدية، واقفًا إلى جوار لورد، ونظر كلاهما إليّ محدقًا بحيرة. فمنذ الأحد، لم يعتنِ بنظافتهما أو بتبديل سرجيهما أحد. شعرت بالاختناق وأنا مضطر لترك لورد وحيدًا، ليظل ينظر ناحية الباب الذي لن تمر منه صاحبته، ولا معلمها مرة أخرى.

انتهى الأمر! وداعًا ليوبليانا! وداعًا فيرونيكا! أهلًا سلسلة جبال البلقان، وفرانيا، ونهر مورافا!

ما الذي كنت أتوقعه بعد كل ما حدث؟ أن الأمر سيستمر إلى أجل غير مسمى؟

لم نتوقع -لكن الأمر صار واضحًا الآن- أن علاقتنا المسالمة انقلبت علينا، وصار دفع الثمن واجبًا بعد أن تم الإعلان عنها باعتبارها علاقة خيانة زوجية. وبدا أن العائلة تمر بظروف أليمة تم إخفاؤها بقدر الإمكان. الرجل المتأنق يتصرف كما لو أن شيئًا لم يحدث على الإطلاق، بالرغم من أن كل شيء قد حدث بالفعل. حتى لو أن الواقعة زلزلت حياة فيرونيكا وليو، وصدمت أصدقاء العائلة وكل شخص آخر عرف عنها، ولكني أظنها ستتحول بسهولة من واقعة خيانة زوجية إلى مجرد حدث مناسب لأحاديث الملتقيات الاجتماعية، فهل من الممكن أن تأخذ المسألة أكبر من حجمها؟ من أن تؤخذ باعتبارها مجرد نزوة؟ قال آليتش عن هؤلاء الناس أنهم أغنياء بدرجة خيالية. ولهذا سيتفهمون أنه من غير المنطقي أن تربط فيرونيكا مصيرها بمصير ضابط فروسية من فاليفو، حيث نزرع البرقوق، كما يقول زوجها دائمًا. امرأة متزوجة. في بلد كاثوليكي. تربت وتعلمت في ترف وبذخ. كما أنها أظهرت بعض السلوكيات غريبة الأطوار التي طالما تقبلها الآخرون من حولها وتفهموها. منها هذا التمساح، مثلًا، الذي عض زوجها في حوض الاستحمام. ولكن السؤال: أين عضه التمساح؟ هل ابتسم ابتسامته المعهودة حين عضه التمساح في مؤخرته؟ هل تقبل الأمر للدرجة التي جعلته يأمر بقتل التمساح وحشوه واستخدامه للزينة؟ لم يتبقَّ من ذكراي لدى هذه الأسرة أكثر مما تبقى من ذكرى هذا التمساح. وذات يوم ستقول فيرونيكا عني بنفس الطريقة التي تحدثت عن التمساح بها: «اضطررنا إلى إخراجه من المنزل»، ستقول وهي تضحك: «آه! ذاك الملازم! لقد أرسله ليو إلى الحدود البلغارية».

لكنني كنت مخطئًا حين فكرت بهذه الطريقة. أخطأت تفسير شخصيتها وأسأت فهمها. حتى زوجها

وأقاربها أيضًا أساؤوا فهمها. توصلنا جميعًا إلى اتفاقية سلام ضمنية: وقع آليتش الأوراق ودفع بهم على المكتب باتجاهي، وارتاح ليو وعاد لتركيزه مرة أخرى في الرماية، ولم يعد يخطئ التصويب، وتنفست والدتها وكل فرد آخر في أسرتها الصعداء، وأنا لم يكن لدي خيارات أخرى غير أن أتكيف مع الوضع كله. إلا هي، إلا فيرونيكا. فهي لم تكن طرفًا في تلك الاتفاقية. ففي الليلة التي جمعت فيها حقائبي وعُدتي للسفر، سمعت الهاتف يرن. قيل لي حين أجبت أنه توجد امرأة في انتظاري عند البوابة. جلستْ في غرفة الانتظار حين وصلت، ووجدتُ مجموعة من الجنود المناوبين وقد انحشرت أجسادهم في مدخل باب الغرفة ينظرون بفضول إلى المرأة الشابة الجالسة هناك، ويحدقون بنهم في ركبتيها العاريتين. سعلت في منديل أمسكته بيدها ووضعته على فمها، ولكن هذا لم يكن دافعًا كافيًا ليثنيهم عن فضولهم وتجمعهم، ولو بأقل درجة. تراجعوا عند ظهوري لأنني نظرت إليهم كوحش مفترس على وشك أن ينهشهم. جلست إلى جوارها، ووجدت شعرها ملتصقًا بجبهتها المتعرقة. ارتعش جسدها من شدة السخونة من أثر الحمى.

أنت لن ترحل!

قالت لي وهي تبدو موشكة على نوبة بكاء هيستيري، فقلت لها:

سأعود.

نظرت إليّ مبهوتة:

لِم تكذب؟ أنت تعرف أنك لن تعود أبدًا.

لم أجبها. كنا جالسين في منطقة الاستقبال عند البوابة الرئيسة للقاعدة، والهواء حولنا معبق برائحة عرق الجنود، وجلد الأحذية، وصوف الزي العسكري، تلك الرائحة المحملة بالرطوبة والتراب. وكلما مرت دقائق ثلاث، جاء أحد المجندين ليحشر رأسه في مدخل الباب. قمت بإغلاق الباب، ورغم ذلك لم يحدث إغلاقه فارقًا. بعدها بلحظات، جاء أحدهم ليدق على الباب ويقول كلامًا سخيفًا غير مفهوم، في حين حشر الآخر رأسه في النافذة. همست لي بجدية:

دعهم، وانسَ وجودهم! ليس لهم أهمية.

أطلقت ضحكة غريبة، وأكملت:

على أي حال يجب عليّ أن أبدأ في التكيف مع الجنود.

بدأت في الاعتذار لها عن أن الفرصة لم تسنح لنا للتحدث في مكان آخر، وأخبرتها أنني أناوب ليلًا، ولم أجد لدي الوقت....

قاطعتني:

ألم تسمعني؟ قصدت أنني ذاهبة معك حيث ستذهب!

شعرت أنني أسقط في دوامة من السعادة المفاجئة حين قالت ذلك، ولكنها سعادة مشوبة بالخوف والحذر. نفس الشعور الذي يغالبني كلما أقبلت على الدخول في معركة، أو في ثناء الانتظار بأحد الكمائن إلى أن تظهر قافلة العدو. سألتها:

كيف؟! إنهم يراقبونك طوال الوقت!

نظرت إليّ وضحكت ضحكة طويلة لم يعترضها سوى السعال الذي انتابها، ثم قالت بعد أن توقف:

أنا؟ هل تتخيل أن أي أحد يقدر على مراقبتي أنا؟!

كنت أعرف أنه من المستحيل أن يستطيع أحد مواصلة مراقبتها، وأنها إذا اتخذت قرارًا بشأن أي شيء، محال أن يثنيها عنه أحد. إذا قررت أن تستقل القطار إلى أوشاك، ستفعل. إذا قررت أن يكون لها تمساح أليف، بدلًا من أن تقتني جروًا أو قطة سيامية، ستحصل عليه. وإذا أرادت ملازمًا من سلاح الفروسية دربها على ركوب الخيل، ستحصل عليه. عرفت أنها تركت لهم بالبيت رسالة وداع، والآن هي راغبة في استقلال القطار إلى زغرب، والانتظار في محطة السكة الحديدية حتى أصل إلى هناك. لم أعرف إطلاقًا ما محتوى الرسالة. على أي حال، لم يقم زوجها بأي محاولة لإحباط هروبنا، وكل ما حاول أن يعاقبنا به حتى هذه اللحظة ارتد عليه في المقابل. فقد قدمها بنفسه إلى مدرب فروسية تحول لاحقًا إلى عشيقها. ثم حين اكتشف ما حدث، حاول التخلص منه، ليجد نفسه قد دفع بها -بفعلته هذه- إلى أحضان عشيقها.

لا أعتقد أنه سيبحث عني.

قالت لي ذلك، ولكنها رأت أنه من الأفضل أن تستقل القطار هذا الصباح إلى زغرب، ثم تنتظرني هناك لننطلق معًا إلى بلجراد. ومن ثم نسافر من هناك إلى أقصى الجنوب.

لنتجنب أي مفاجآت غير سارة في محطة قطار ليوبليانا إذا ما سافرنا معًا من هناك.

أوضحت لي، بينما كنت أتصور ردة فعل السيد المحترم الأنيق الذي في الغالب لن يكون قادرًا على ترتيب أي مفاجآت قذرة. لم أشعر بتأنيب الضمير وأنا أتصوره يعاني من فقد زوجته التي حاول بكل طريقة أن يسعدها، واهتم بذلك أكثر من شيء آخر حتى دفعها في النهاية لأن تهجره. كل ما شغل تفكيري في هذه اللحظة هو أن تلك المرأة الشابة الجميلة الذكية قد اتخذت قرارًا بأن تهرب معي. إلى فرانيا. وهي ليس لديها أدنى فكرة عن موقع فرانيا على الخريطة. إنه مكان ما في أقصى نقطة من جنوب صربيا. لو حاولنا تحديد الموقع بالضبط، سنقول إنها تقع في تركيا. النساء في تركيا يرتدين البناطيل الفضفاضة، أعني النساء المسلمات، ولا أعني الصربيات. ولكن حتى النساء المسيحيات الأرثوذكس ليس في استطاعتهن الخروج في الأماكن العامة دون مرافق ذكر.

أفهم! ولكنني لن أحتاج إلى الخروج من المنزل. سأكون معك طوال الوقت. غالبًا في الفراش!

ضَحكت وأردَفتْ:

وحين تذهب إلى عملك، سأطهو لك. سوف أتعلم كيف أصنع يخنة الفاصوليا المطبوخة، وسأشرب معك السليفوفيتس.

عاد السعال يُخفي بهجة ضحكتها، وحين توقف مرة أخرى قالت بنبرة حالمة:

فرانيا! كم هو اسم لطيف! تمامًا كاسم فراناتس.

وصلت إلى زغرب في قطار الظهيرة، ورأيتها تجلس على رصيف المحطة فوق شنطة سفر

ضخمة. كانت تدخن وقد عقدت ساقيها أمامها. ورغم أن رأسي دار من فرط السعادة، أو ربما من تسارع الأحداث وتبعاتها على مدى الأيام القليلة السابقة، إلا أنني بادرت بتحذيرها من سلوكها مرة أخرى.

لا يمكنك التصرف بكل هذه الجرأة، ما الذي سيفكر الناس به؟

نظرت إليَّ بحيرة فحاولت أن أوضح لها:

النساء اللاتي يركبن القطار هن نساء من نوع خاص.

لم تفهم ما قلته:

من نوع خاص؟! حسنًا... هأنذا.. امرأة من نوع خاص أتيت لركوب القطار.

لم تفهم السبب في أنها لا يجوز أن تجلس على رصيف محطة زغرب فوق حقيبة سفرها، عاقدة ساقيها وفي فمها سيجارة. وبذلك يكون الخلاف الأول بيننا قد وقع قبل حتى أن نستقل القطار معًا. وفي الأيام التالية، حدثت خلافات أخرى متتابعة. توجهت إلى القاعدة العسكرية في فرانيا بمجرد وصولي لأثبت حضوري، وكنت مرهقًا من طول السفر وفي حالة من الإجهاد الشديد بعد ركوب عدد من القطارات المتتالية. وربما لم تكن الرحلة مطابقة للصورة التي تخيلتها فيرونيكا في ذهنها لتلك الرحلة الرومانسية التي أقبلت على القيام بها مع حبيبها باتجاه الجنوب. انتقلنا للسكن في شقة صغيرة على حافة مستوطنة الغجر. أهل فرانيا من المواطنين الصربيين يسكنون على جانب واحد من المدينة، وفي الجانب الآخر تقع المنطقة القذرة حيث بنيت المصارف الصحية على النهر الصغير لتصب فيه، بينما بعيدًا عن أطراف مدينة الحمام التركية القديمة تقيم مجموعات كبيرة من المستوطنين الغجر، ويطلقون على أنفسهم غجر ماهالا. تمتد مساكنهم على جانبي الطريق وحتى نهايته عند جرف لطيف على النهر. يعتبر السكان في هذه المنطقة أن النهر الصغير الذي يتدفق في أراضيهم مرورًا بمدينة الحمام التركية بمثابة خط أحمر غير مرئي لا يجوز أن يتعداه أحد، سوى الجندرمة (*رجال الشرطة) والتجار. يذهب الغجر إلى الجانب الذي يسكنه الصربيون للقيام ببعض الأعمال، وأغلبها العمل كموسيقيين. وبالطبع من المتوقع ألا تقبل فيرونيكا فكرة التواجد بالمنزل وحيدة أثناء غيابي ولو لدقيقة واحدة، ولم تستسغ فكرة الحدود الخفية التي تفصلنا عن المنطقة الممنوعة، رغم أنها تعي تمامًا مسألة ترسيم الحدود في المحيط الذي نعيش فيه. في اليوم الثاني أو الثالث من وصولنا، خرجت فيرونيكا في الصباح والشمس ساطعة، متجهة إلى حي الغجر. وقبل أن تواصل السير إلى داخل الحي، أوقفها مجموعة من الصبية الغجر وتجمعوا حولها في صخب وفضول، ثم ظهرت مجموعات من النساء والتفوا حولها، ثم بدؤوا يلمسون ملابسها الفاخرة، وبعدها لحق بهم مجموعة من الرجال جاؤوا مبتسمين ابتسامات عريضة، ودعوها أن يصطحبونها إلى منزل قريب. أمسك أحدهم بذراعها، وحاول أن يشدها عنوة لتسير معه، ولكن لحسن الحظ ظهر فردان من الجندرمة ونجحوا في إنقاذها من حشود الماهالا وسط صياحهم وفوضاهم، ثم أخذاها إلى المنزل، وتركاها هناك بعد أن حذروها وهددوها من أن السلطات لن تكون مسؤولة في حال وقع لها مكروه. بعدها استدعوني ليأخذوا مني وعدًا بأن هذه الواقعة لن تتكرر. في تلك الليلة، وقع أول جدال بيننا، وأخبرتها أنني أمنعها منعًا باتًّا من الخروج باتجاه الحمام التركي مرة أخرى.

هنا ليس ليوبليانا، ولا حتى بلغراد.

ورغم أنها لم تزل ترتعد من تذكر تلك الوجوه والأيدي العديدة التي أحاطت بها فجأة، إلا أنها نظرت لي نظرة مفعمة بالغضب والحنق:

أنت تمنعني منعًا باتًّا؟ أتظن أن في استطاعتك أن تحدثني بهذه النبرة المتسلطة؟

ليس عندي خيار آخر!

قلت لها إننا نتحدث عن حمايتها وأمنها الآن، فأجابتني بنفس الغضب.

أنت!

قالت بأسلوبها المستهجن وخرج صوتها كالفحيح، بالضبط كما تحدثت معي حين رأيتها لأول مرة:

أنت دائمًا تتعامل معي على أني أحد المجندين عندك.

كانت أكثر هدوءًا في اليوم التالي، وبدا عليها أنها بدأت تتفهم دخولها إلى عالم مختلف له قواعده، ولا يشبه مجتمع ليوبليانا المُرفَّه. وبعد هذه الواقعة ولمدة عدة أسابيع، عشنا في حالة رائعة من السلم والتعايش. بالتأكيد أن الأوقات هنا لا تشبه تلك التي قضيناها في ليوبليانا، ولكن فيرونيكا حاولت التكيف مع الحياة الجديدة. كنا نسير معًا على شاطئ نهر مورافا الذي يتدفق في جنوب المدينة، تتطاير من حولنا أوراق الخريف الجافة ونمشي من خلالها. تعلمت أغنية «أوي مورافو» ودندنت لحنه، وقالت لي:

إنه جميل! وسيكون أجمل لو استطعت أن أمتطي فرسًا وسرت حول النهر وأنا أغنيه.

منذ اليوم الأول لنا وأنا أحاول أن أجد وسيلة يمكن بها إحضار الفرسين –فراناتس ولورد- إلى فرانيا. ولكن من الصعب أن تحضر خيلًا إلى قاعدة عسكرية تستخدم كسجن عسكري ينتدب إليه الضباط الذين لهم سجلات انحراف نظامي خطيرة، ومن بينهم من لهم سوابق أحكام بالسجن فعليًّا. وبعد تقديم العديد من الطلبات، نجحت في استعادة فراناتس، وتم بالفعل إرساله بعد الانتهاء من بعض الإجراءات الحكومية لنقله عن طريق البحر. أما في حالة لورد، فلم يكن هناك أمل إطلاقًا في أن يتخلى زوجها عن فرسه الهاكني الإنجليزي الأصيل، ويرسله إلى زوجته الهاربة وعشيقها. هذا بالضبط هو توقع ما يستحيل حدوثه. اكتشفت -بعد سعادتي البالغة بوصول فراناتس إلى حيث أقيم- أنه ليس مسموحًا لي اصطحابه إلى خارج إسطبلات القاعدة. وقيل لي:

الاستخدام الشخصي للخيول العسكرية هو خرق لقواعد المستعمرة الجزائية.

قدمتُ فيرونيكا إلى زوجة صديقي تشيدو، النقيب بسلاح المدفعية، وغنينا نحن الأربعة معًا «أوي مورافو» ذات ليلة في إحدى حفلات الزفاف. قامت مجموعة من عازفي البوق الغجر بالتشكل في دائرة حول مائدتنا، وعزفوا لنا بعض الأغاني المحلية. واحدة من تلك الأغنيات على الأخص أعجبت فيرونيكا بشدة لأنها مليئة بالحياة. قالت كلماتها: «أوتفوري مي بلولينشي، فراتانسا، فراتانسا». قالت لي فيرونيكا:

أغنية جميلة فعلًا!

«دا تي فيديم، بيلو لينشي، أوستانسا، أوستانسا».

وضعت رأسها على كتفي وهي تستمع إلى تلك الأغنية الجميلة، بينما أسبلت جفنيها، وهمست في أذني:

إنها أغنية حزينة جدًّا! تجعلني راغبة في البكاء!

طلب تشيدو وزوجته منهم أن يغنوا أغنية سلوفينية، فقالت فيرونيكا إنها تذكر أغنية قديمة غناها الجنود في الأزمان التي خدم فيها الصبية الفلاحون إمبراطور النمسا لسبع سنوات. وبدأت تغنيها بصوت منخفض، منخفض جدًّا وجميل، حتى التفت جميع الجالسون في الطاولات المجاورة إليها، وأنصتوا لغنائها، ثم خيم على الغرفة كلها صمت رهيب والجالسون يستمعون إليها.

«لا تبكِ يا حبيبتي، ولا تحزني كل هذا الحزن. بعد أن تمر السنوات السبع الطويلة سنلتقي مرة أخرى».

لفترة بدا على فيرونيكا أنها تكيفت مع حياتها الجديدة. ثم بعد ذلك جاء سبتمبر بلياليه الطويلة وأيامه الممطرة، حين يضطر الواحد إلى أن يقفز متجاوزًا مستنقعات الوحل الصغيرة في الشوارع التي هطل فيها المطر وتسرب عبر التلال المجاورة. فاض المورافا، وخرج عن ضفافه إلى الطرقات، حتى جعل من المستحيل على أي شخص أن يفكر في السير بها. قرأت فيرونيكا الكثير من الكتب، خاصة تلك التي ترسلها لها أمها باستمرار. واعتادت الذهاب إلى المكتبة لتقرأ هناك، كما علمت نفسها اللغة السيريلية بسرعة بعد أن تحمست لفعل ذلك. قضت الكثير والكثير من الأوقات جالسة في المنزل. وحين عدت ذات يوم من مسيرة ثلاثة أيام في الوحل –حدث ذلك في نوفمبر- قالت لي:

لقد شعرت أني «كوشتانا»!

الكوشتانا هي مسرحية صربية شعبية، بمعنى أدق مسرحية موسيقية، تتحدث عن امرأة يموت زوجها. وبحسب العادات القديمة، لا يسمح للأرملة بمغادرة المنزل إطلاقًا بعد وفاة زوجها، وتظل وحيدة ومسجونة بداخله. تحلم كوشتانا في ضوء القمر بالحياة التي سبق أن حظيت بها، ورغم أن أنفاس الحياة تدب فيها، لكنها تحيا كالأموات. عاشت كوشتانا في فرانيا، وعرفت فيرونيكا قصتها من قراءاتها بعد أن صارت تقرأ كل ما تصل يدها إليه.

لقد صرت سجينة في هذه الشقة، أي نوع من الحياة تلك؟!

كنت مرهقًا لدرجة أني لم أستطع أن أجمع قواي لأهدئ من ثورتها.

هذا هو ما أردته أنتِ!

أجابتني بهدوء:

حقًّا؟! أنت تتحدث مثلما يتحدث زوجي!

كان لا يزال هو زوجها. لقد قالت لي حين هربت معي أنها ستطلب منه الطلاق ثم نتزوج. نقيم حفل زواج أرثوذكسي. وقلت لها: سنقيم حفل زواج صربي لائقًا، وسنحضر عازفي البوق، وندعو مئتي ضيف. سيكون هناك الكثير من الأغنيات، وأكثر من نخب، وسيستمر لثلاثة أيام. لكن الأيام مرت، وفجأة لم نعد نتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى. تلك المرة الأولى التي تذكر فيها أن ليو ما

زال زوجها. والحياة حيث يكون زوجها، ليو جارنيك، بكل تأكيد مختلفة عن هنا. فضَّلتِ البقاء في المنزل لفترات طويلة، لأنها في كل مرة ذهبت فيها إلى المدينة –هذا لو تجاوزنا وسمينا القرية الصغيرة ببيوتها التركية الشعبية ومساكن الماهالا البدائية «مدينة»- عادت في مزاج سيئ. إلى أن جاء يوم وانفجرت فيه من الغضب:

هل يستحيل على امرأة في هذا المكان أن تخرج من بيتها دون أن يتتبعها كل الرجال بنظراتهم؟

لدي فكرة سابقة أنها اعتادت أن يحدق فيها كل الرجال في منتزهات ليوبليانا حين أخذت تمساحها إلى الممشى هناك، وسحبته من سلسلته. ومن ثم، لن يضيرها أن يتبعوها بنظراتهم من الحين للآخر.

أليس مسموحًا لي أن أرتاد أحد المقاهي دون أن أسمع تعليقات وضيعة؟!

اقترحت عليها أن ترتدي فساتين طويلة، تصل إلى أسفل الركبة. وأنه سيكون أفضل لو أنها ذهبت إلى الخارج أو ارتادت المقهى بصحبتي، على اعتبار أنني سأكون مرافقها. لكن ما قلته لها لم يهدئها بل زاد من ثورتها ودفع غضبها إلى الحافة:

إذًا، فإن النساء هنا ليسوا سوى سجناء.

عندها فقدت صبري، وشعرت بالغيظ، فلم يعد بوسعي ما يمكنني أن أفعله لأجعل حياتها أسهل.

في القاعدة، رحت أصرخ في المجندين، وأطبق عليهم العقوبات. وبسبب هذا المزاج المعكر، اشتبكت في عراك حاد مع أحد العريفين. حدث ذلك بعد الانتهاء من وجبة الغداء بوقت قصير، والساعة نحو الثانية عصرًا. سرت في طرقات الثكنات المظلمة والمصابيح من فوق رأسي تومض وتنطفئ، وفي الخارج تكومت السحب الرمادية في السماء. سمعت أصواتًا خلف باب مكتب الضابط المسؤول عن التموين، وعرفت أن من اجتمعوا في الغرفة تناوبوا على تناول جرعات من الميكانا التي سرعان ما لعبت برؤوسهم بعد أن تناولوها. ذكر أحدهم اسمي، مصحوبًا بالضحك، ثم قال الآخر بوضوح:

هل تعرف ماذا يقول الكرواتيون؟ يقولون: «لا عاهرة أفضل من عاهرة سلوفينية».

فتحت الباب فجأة، وسألت الجميع من منهم تحدث لتوه، ولكنهم جميعًا نظروا إليَّ مشدوهين. قال عريف وقف بجوارهم، وممسكًا بيده زجاجة انتهى لتوه من صب آخر جرعات فيها في كؤوسهم:

أنا.

ثم ضحك، وأضاف:

ولكن لا تأخذه على محمل شخصي، أيها الملازم.

توجهت إليه وضربت الزجاجة التي بيديه فسقطت متحطمة. قفز الضباط الآخرون من أماكنهم، بينما أمسكت به من حزام بنطاله وسحبته تجاهي، ثم قذفت به إلى الوراء ليرتطم بالحائط، صرخت في وجهه:

لكن ما قلته شخصي. ما قلته كان شخصيًّا!

يومها فقدت صبري تمامًا، وأعصابي أيضًا. أعماني الغضب حتى جعلني أفك أزرار جراب سلاحي، وأسحب المسدس. بالطبع لم يكن في نيتي أن أطلق الرصاص عليه، ولم أعرف ما انتويت حين فعلت ذلك. ربما أردت أن أخيفه، ولم أفكر لحظتها أن مجرد فك أزرار جراب سلاحي كفيل بأن يتسبب في وقوفي أمام محكمة عسكرية. ولحسن الحظ انتهى الأمر عند عقوبة تحذيرية: قضاء أسبوع في السرية، وذلك لخرق قواعد الخدمة، أما العريف فقد حصل على نفس عقوبتي لأنه جلب الخمر إلى القاعدة. بعد بضعة أيام، وبينما كنا نقوم بتسليم حزامينا ورباطي حذاءينا قبل أن نتوجه لنقضي وقت العقوبة، اعتذر لي عما قاله، وقال إنه لم يكن يقصد الإهانة. شعرت بالأسف على الحال التي وصلنا إليها. شعرت بالأسف لفيرونيكا، ولما ستعانيه وهي مسجونة داخل الشقة من دوني، وشعرت بالأسف لنفسي على اضطراري للرحيل عن ليوبليانا حيث كنت على وشك الترقي. شعرت بالأسف لأنني انتدبت في فرانيا؛ مقلب التفايات التركي بشوارعه الموحلة وغجره الماهالا، والضباط المنفيين في قاعدته من أنحاء يوغوسلافيا عقابًا لهم على كونهم سكيرين كسالى، لا يتمتعون بالكفاءة، وعلى النقيض مني تمامًا. أنا الذي كان فقط بالأمس أفضل ضابط في لواء الرائد آليتش. خبطني العريف على ظهري ممازحًا، وقال لي:

تلك هي نهاية مستقبلك الوظيفي، أيها الملازم. إلا لو اندلعت حرب ما قريبًا.

عندئذٍ، أوشكت الحرب فعلًا، ولم تكن مجرد «حرب ما»، وفي نفس اليوم الذي انتهت فيه مدة عقوبتي، وذهبت إليها، وجدتها غارقة في دموعها، ظنًّا منها أنها صارت حبيسة الـ(ديرت) –وهو الاسم الذي يشير إلى السجن والحزن المؤبدين اللذين عاشت فيهما كوشتانا- قالت لي إنها ظنت نفسها قد صارت بالفعل حبيسة الديرت، ولكنها عرفت أن الأمر ليس كذلك، فقد ذهبت إلى الماهالا....

هنا، انتابتني حالة من الغضب والجنون أوقفت تفكيري حتى إنني لم أسألها ما السبب الذي دفعها للذهاب إليهم. ظهر الغضب الذي اختزنته طوال فترة عقوبتي داخل السرية، والذي عدت منه لتوي، والغضب من العريف الذي ظل يسخر مني حتى بعد انتهاء العراك واعتذاره، حين عايرني بأن مستقبلي المهني قد انتهى هنا إلى الأبد. الغضب من منظرها حين جلست في محطة زغرب فوق حقيبة سفرها تدخن سيجارتها كعاهرة سلوفينية تجلس في انتظار الزبائن. الغضب من حقيقة أنها ظلت تسلك هنا نفس سلوكها هناك وهي تتجول في منتزهات ليوبليانا. الغضب من الضباط الذين اتخذوني مادة للاستهزاء، ومن رغبتها المستمرة في أن تفعل كل ما يخبرها الناس أنه ممنوع، مثل الهروب مع مدرب الفروسية، والرجوع إلى مساكن الماهالا. وقبل أن أمنح عقلي فرصة ليعمل، ويفكر كما ينبغي، تحركت يدي لتصفع وجهها. لم أسألها حتى لِمَ تبكي. ضربتها لأن ما غلب على تفكيري بمجرد ذكرها الذهاب إلى الماهالا هو تلك المجموعة من الغجر الذين أمسكوا بها وسحبوها من اتجاه لآخر، حتى يثبتوا لها أنها ليست حرة في الذهاب إلى أي مكان وقتما أرادت. تذكرت الرجال الغرباء الذين طلبوا منها أن يصطحبوها إلى منزلهم لأنهم ظنوا أنها -كما يبدو من مظهرها- تعرض نفسها عليهم. كنت قد ظننت أنها تعلمت مما حدث لها هناك أنه يجب ألا تضع نفسها في مثل تلك المواقف مرة أخرى.

تجمدت في مكانها وهي تحدق بي دون أن يصدر عنها أي ردة فعل. ثم مسحت دموعها، وقالت بعد فترة بصوت هادئ:

كان يجب عليّ أن أعرف ذلك. أنت رجل عنيف.

اجتاحني الحزن كموجة هائجة اقتلعتني من مكاني، وانطلقت إلى خارج المنزل متجهًا إلى أقرب حانة حيث تناولت عدة جرعات من البراندي. لم أستوعب ما الذي يحدث لي. منذ أيام هاجمت هذا العريف أحمر الوجه وقذفت به إلى الحائط، والآن صفعت وجه فيرونيكا التي كانت تبكي غالبًا بسبب وقوع أمر سيئ لها، وحتى لم أكلف نفسي عبء سؤالها عنه. لم أعرف كيف تحولت شخصيتي إلى هذه الدرجة من السوء. ما أعرفه وما أومن به هو أن كوني جنديًّا لا يعني بالضرورة أن أكون عنيفًا. لا شك أن العنف جزء في شخصية أي جندي، ولكن شرف الضابط يمنعك من أن تظهر قوتك على من هم أضعف منك. أنا واثق من أن زوجها لم يفعل بها شيء كهذا أبدًا. فهو لديه القدرة على حل أي مشكلة بابتسامة. هي لا تحب الرجال العنيفين الذين يضربون الخيل بالسوط في المعارك تحت نيران القنابل وقذائف المدفعية. الرجل الذي يقدر على فعل ذلك هو غالبًا رجل قادر على ضرب امرأة. سيكون بطبيعته رجلًا عنيفًا. كنت أعرف أنها لن تسامحني أبدًا على هذه الصفعة، وحين عدت في هذه الليلة إلى البيت، وجدتها نائمة في الفراش على ظهرها، تنظر إلى سقف الغرفة. قالت:

أريد العودة إلى الديار.

ركعت إلى جوار السرير، وطلبت منها أن تغفر لي. فقالت:

لقد سامحتك بالفعل. لقد فهمت أن بقائي معك ليس بالأمر السهل عليك.

مَلستُ بيدي على شعرها، ولكنها أبعدت رأسها عن يدي.

أنا خائفة منك.

قالت لي ثم حمت وجهها بذراعها ودفست رأسها في الوسادة، وأبقت عينيها مثبتة على وجهي.

أنت تبدو شريرًا. أنا أخاف من الأشخاص الذين يبدو على ملامحهم الشر.

في هذه الليلة صارحتها بما لم أصارح به أحدًا قبلها. أخبرتها عن روح الطفل التي قابلت العنف للمرة الأولى في حياته، حين كنت في سن السادسة، وقرر أبي أن يصطحبني أنا وأمي في العربة إلى قرية ما تبعد عن فاليفو ركوبًا نحو ساعة. لم تسعفني الذاكرة لأتذكر ما السبب الذي دفعه إلى اصطحابنا معه. ربما ظن أن وجودنا معه سيسهل له الحصول على مال من أحد الفلاحين. ولا أذكر كذلك ما السبب الذي جعلنا نبقى هناك حتى حلول الليل، فربما وقعت مشكلة ما لواحدة من عجلات العربة، أو ربما قضينا وقتًا طويلًا بإحدى الحانات على الطريق. فقد شرب أبي الكثير من الخمر حتى صار أكثر شجاعة، على ما أظن، لأنه في الأوقات العادية معروف بكونه رجلًا لطيفًا وعطوفًا، ولا يميل إلى الجدال أو العراك إلا إذا فرضت عليه الظروف. أذكر أنه أخذنا معه لأنه اعتبر وجودنا سيدفع هذا الفلاح لرد المال دون إبطاء، وليذكر الرجل بأنه في حاجة إلى المال وأنه يعول أسرة. أوقفنا العربة أمام بيته بالقرب من سور حديقته، ولم يكن هناك أضواء حول البيت، فاقترحت أمي أن نعود أدراجنا لأنه –كما يبدو- لا يوجد أحد بالمنزل. ولكن أبي أكد أن الرجل بالمنزل، وبدأ في النداء عليه عدة مرات بصوت مرتفع، لكن لم يجبه سوى رجع الصوت، ولم تضأ المصابيح. عاد ليناي بنبرة تهديد لم يسبق لي أبدًا أن سمعت أبي العطوف يتحدث بها:

توبالوفيتش!

لم أفهم أين وجد تلك النبرة. ربما في الخمر الذي تناوله على الطريق.

توبالوفيتش!

عاد لينادي عليه مرة أخرى باتجاه المنزل، وحتى اليوم يستحيل أن أنسى اسم هذا الرجل.

توبالوفيتش! أعرف أنك بالمنزل. لقد جئت أستعيد المال الذي اقترضته مني.

وفجأة، سمعت صوت شيء ما يتحرك بجوار السور، ومر بجوارنا ظل ما، ثم صدر من جهة هذا الظل صوت ارتطام شيء ثقيل. وحين رفعت وجهي لأعلى، وجدت وجه أبي غارقًا في الدماء. فقد أتى ذلك الرجل، توبالوفيتش، متسللًا من خلفنا في الظلام، وضربه ضربة قوية بكتلة خشبية على رأسه. وسمعنا ظل الرجل يقول:

سأربيك! سأعلمك نتيجة أن تأتي إلى بيتي وتطالب بمالك.

ثم انهمر سيل من السب واللعن على أبي بعد أن ضربه، وصاحت أمي باكية، أما أنا فشعرت أن شيئًا ثقيلًا ارتمى على صدري ضاغطًا عليه، يحطمه. شعور لم أعرفه قبل هذه اللحظة أبدًا. الموقف بأكمله بدا غريبًا عليّ تمامًا: أبي يقف بوجه يتصبب منه الدم، وصوت أنينه من وقع الضربة، وربما بكاؤه أيضًا، وأمي تنتحب وتبكي هي الأخرى. وسمعت سؤالًا متحيرًا متكررًا: ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟ تراجعت الخيول إلى الوراء في فزع، وظلت تسحب العربة في الظلام حتى وصلت إلى رأس الطريق الرئيس المؤدي للقرية. أما نحن الثلاثة، فبقينا في أماكننا لا حول لنا ولا قوة، ملقىً بنا في مكان غريب لا نعرف عنه شيئًا أمام البيت المظلم الذى اختفى بداخله ظل الرجل بعد أن فعل فعلته. بعدها، سرنا نبحث عن العربة والأحصنة من حولنا، وبالكاد رأينا الطريق أمامنا في تلك القرية المظلمة. لسنوات عديدة، ظلت ذكرى هذا الموقف تؤرقني، وتمر أمام عيني بتفاصيلها، فأنهض وأتمنى لو كنت وقتها أقوى مما كنت عليه لأحمي أبي من هذا الفعل العنيف الشنيع. لم أعرف منذ ذلك الوقت إذا دفع هذا الرجل دينه لأبي مقابل الأحصنة التي أخذها منه، أم لا. نحن لم نفتح الموضوع إطلاقًا في البيت. في تلك الليلة التي حدثت فيها الواقعة، كنا نسير في عربتنا لنعود أدراجنا، وبدأ الصباح يلقي بضوئه على التلال. ورأينا أحد الفلاحين يمر بعربتنا، وهو يسحب بعض الخيول من لجامها، ويمعن النظر فينا ونحن جالسون داخل العربة. كنا نسير ببطء شديد لأننا اضطررنا للتوقف على مدار الليل مرات عديدة لتقوم أمي كل مرة بشق قطعة من قميصها الأبيض لتضمد به جرح أبي النازف.

لم تزل فيرونيكا تحدق في السقف، وحين توقفت عن الكلام قالت بعد لحظات:

هذا أمر فظيع!

ثم بدأت نوبة بكاء جديدة، وهي تردد:

آه ستيفان، ستيفان المسكين! ما كل هذا العبء الذي حملته على كاهلك؟ ثم قررت أن تلتحق بالمدرسة العسكرية، ربما هذا هو السبب.

لا ليس هذا هو السبب! الحقيقة أنني لم أقوَ على فعل مثل هذا الشيء يومًا مع أي مخلوق أيًّا كان.

حقيقة الأمر أنه في صربيا، يحلم كل شاب بالذهاب إلى المدرسة العسكرية. واختياري هذا لا علاقة له بتلك الحادثة التي حكيت لك عنها.

ربما لهذا السبب الآخر، إذًا!

قالت، وصمتت للحظة، ثم واصلت:

عدني أنك لن تفعل أبدًا شيئًا بشعًا مثل هذا لأحد.

لن أعدك لأنني بالفعل أخبرتك أني لن أفعل، وأنني لا أتخيل نفسي أفعل هذا بأي شخص على الإطلاق. باستثناء شخص واحد. توبالوفيتش! الذي لم أرَ وجهه أبدًا، ولم أسمع عنه أي شيء طوال حياتي منذ ذلك اليوم. أنا قادر على أن أفعل به ذلك.

ولكنني فعلت هذا وأكثر بشاعة منه إلى أن انتهى بي المطاف في بالمانوفا. ليس فقط لأشخاص غير توبالوفيتش، بل إنني أطلقت الرصاص على فرسي فراناتس بيدي، الفرس الذي طالما أحبَّته هي كثيرًا. ولكن، هي الحرب! الحرب! الحرب التي نجوت منها بأعجوبة، وبجرح وحيد أفقدني سنًّا من أسناني، ودون شك كنت محظوظًا بدرجة لا تصدق.

قبل وصولنا إلى بالمانوفا بوقت طويل، قضينا نحن وفيلق تيتو التاسع شتاء وربيع عام 1945 بأكملهما ونحن نطارد بعضنا بعضًا حول أنجاد الجبال السلوفينية. في البداية لاحقناهم، وبعدها بدؤوا هم يلاحقوننا. لقد كنت جد محظوظًا طوال تلك السنوات، فما نلته من ويلات تلك الحرب الهائلة ليس سوى جرح صغير لا يذكر. يا إلهي! لا أصدق حين أتذكر إصابات الآخرين أنني نجوت من كل هذا الرعب والألم. الموتى في كل مكان، الجثث الخضراء في قرى البوسنة التي تعفنت دون أن تجد من لديه الوقت لمواراة رفاتها. والخيول النافقة! نعم، يا فيرونيكا يا حبيبتي، الخيول التي امتطيناها وألقينا بها وبأنفسنا تحت وطأة القصف المتواصل من مدفعية المرتزقة الموالين. لم تكن مجرد قنابل كما ظننتِ، فيرونيكا، بل قذائف الهاون التي مزقت بطون الخيول إربًا وتمزِّع سيقان الفرسان. الفرسان الذين علمتهم بنفسي كيف يركبون تلك الخيول، ويسحبون بنادقهم من فوق أكتافهم وهم على ظهورها، ويبرزون سيوفهم في وجوه أعدائهم. يا الله! كم كنا حفنة من الرجال المخبولين! نقف أمام أوكار آليات القصف، ونملأ خزاناتنا بالرصاص، ونغني: «املأ خزانك، يا رفيقي الشيتنيك2 فالقتالُ مُهلِك». كلام فارغ! كما قالت فيرونيكا، «جنون»، تلك هي الكلمة المناسبة، فجميعنا قد انتابنا الجنون. كنا قساة غلاظ القلوب، هم ونحن! لم يبق للسجناء والأسرى والجرحى من الجانبين أي فرص للنجاة.

«سنقتل ونذبح كل من ليس في صفنا» كانت تلك أغنية نغنيها أيضًا، وتلك الترجمة هنا تخفف من رهبة المعنى، لأن السلوفينيين لا يقولون «سنقتل ونذبح...» هكذا فقط، ولكنهم يعبرون عن القتل دائمًا بقولهم: «سننحركم كالخنازير». وهذا بالضبط ما قاله أحد السجناء الخيول التي امتطيناها وألقينا بها وبأنفسنا تحت وطأة القصف المتواصل من مدفعية المرتزقة البارتيزان حين سألناه عما حدث للنقيب فوكميريتسا الذي وقع في أسرهم منذ أيام قلائل:

فوكميريتسا؟ هذا الشيتنيك؟!

سألنا، وهو ينظر إلينا وقلبه يرتجف من الرعب. فقد تأكد بعد أن سقط هذا الصبي الفلاح في أيدينا

أنه هالك لا محالة. فمن يقع في أيدينا لا يبقى حيًّا أبدًا. قال:

لقد نحرته مثل الخنزير!

لم يخش أن يقولها رغم الخوف الظاهر في عينيه، وكانت آخر ما قال قبل أن يتقدم أحد أفراد الشومادييناتسي من القوات الخاصة من وحدتي، وهو في نفس عمره تقريبًا، لإعدامه بفصل جسده إلى نصفين بقذيفة شمايسر.

تلك العينان اللتان تنعكسان على المرآة قد شهدت كل ذلك وأكثر، والآن ترى هذا الوجه المشروخ والشيب المنثور فوقه. تلك العينان اللتان رأتا في الحرب ما يشيب له الولدان. الحرب هي التي نثرت الشيب في ملامحي. ربما شبت في اليوم الذي اضطررت فيه إلى أن أردي فراناتس قتيلًا، وحين تحطم قائماه الأماميان، وسقط على الأرض وهو ينظر إليّ نظرة آدمية. هناك خيول لديها تلك النظرة، وتراها حين تفهمك وكأنك تتحدث إلى إنسان مثلك. أذكر تمامًا أين حدث ذلك، رغم أنني لا أذكر أين بالضبط سقط معظم رفاقي في الجيش صرعى. أما الموقع الذي سقط فيه فراناتس لينهي أخيرًا خدمته العسكرية ويصل إلى نهاية رحلته معي، ويرحل عن هذا العالم، فيستحيل أن أنساه. في قرية أودبينا في ليكا! ربما سنحتاج أنا وفيرونيكا أن نعود إلى هذا المكان يومًا. ربما سأعود وأسترجع تلك اللحظة مرة أخرى. لكنني أحاول الآن بكل ما أوتيت من قوة أن أنسى. أحاول رغم أصوات البنادق والقذائف والأوامر والانفجارات والقصف والهرب والصراخ وبكاء الأطفال والنساء والنحيب وقعقعة حوافر الخيول على الأرض، وانهيار عوارض وأسقف البيوت بعد اشتعالها بالنيران، وغيرها من الأصوات التي لا تكف عن الارتداد في أذني وعقلي. لن أنسى فراناتس، ومتأكد من أنك أنتِ أيضًا تفكرين فيه كثيرًا، يا فيرونيكا. لقد وجدت فرسًا أسود آخر، وسميته فراناتس أيضًا. هو الآن في الحظيرة يعدو بحرية مع باقي فرس الضباط الآخرين. أليس هذا ما أردته؟ ألا تسجن الخيول في الإسطبلات. أن تترك في العراء بحرية لتنطلق وتعدو؟ هو صغير ومزاجي وخجول أيضًا، وقد مر في حياته بأهوال تفوق ما قد يمر بها أي فرس عادي. حتى الخيول التي تجر العربات الملكية أو تلك التي تسير في الاستعراضات العسكرية لتشاهدها الحشود المجتمعة في المدرجات بساحات الميادين. الليلة الفائتة، سمعته يصهل وظننت أنكِ ربما مررت إلى جواره حين أتيتِ لزيارتي، وأنه عرفك. ولكن كيف يمكنه أن يفعل ذلك؟ الفرس الذي يعرفك جيدًا تمزقت أشلاؤه في ساحة حرب بقرية في ليكا. ربما ظننت ذلك لأنني لم أزل أفكر فيكِ طوال الوقت. لم يمر يوم منذ رحلتِ وتركتني إلا وفكرت فيكِ. فإن لم أذكرك بالنهار، سأذكرك دون شك عد حلول الليل. ذكرتك وأنا في وسط جبال البوسنة، وفي أحد بيوت الفلاحين في ليكا، وحين أسير على شاطئ نهر سوتشا البارد، وحتى هنا في بالمانوفا داخل معسكر السجن الحربي. يستطيع الفرس أن يقرأ أفكار فارسه، لن أقول سيده، بل سأقول فارسه. لأن الفرس وفارسه غالبًا يكونان جسدًا واحدًا. ربما استيقظ فراناتس في تلك الليلة، وصهل لأنه شعر بي حين رأيتك تسيرين في ممر الثكنة كما لو كنتِ حقيقة، وكنتِ تشعين بالحياة، وتتجهين نحوي من بين طوابق الأسِرَّة التي ينام فيها الضباط.

لم نبق في فرانيا طويلًا، لكن بكل تأكيد تلك الفترة غير الطويلة مرت علينا وكأنها إلى الأبد. في ربيع عام 1938 تم إعادة انتدابي إلى ماريبور. أخبرني حدسي بأن الأيدي الرقيقة للديوث ذي الحلة البيضاء الأنيقة لم تزل تتدخل في حركات تنقلاتي وإعادة انتدابي. تلك الأيدي التي تعد

الأوراق المالية وتحشرها في ظرف ثم تدفعه باتجاه الرائد آليتش على طاولة في يونيون كافيه أو في مطعم شجرة الكستناء. قد تكون فيرونيكا فكرت بعد تلك الصفعة الشنيعة بجدية في العودة للتواصل مع زوجها، وبالفعل أقدمت على ذلك. ولكن الحقيقة وراء ذلك النقل المفاجئ الثاني والسريع والغامض غابت تمامًا عني، ولم أستطع أن أعرفها. ما أعرفه أنني لم أعد ذلك الضابط المنضبط الذي قد ترى القيادة أنه يستحق النقل من قاعدة عقابية شمال فرانيا إلى الحدود النمساوية، حتى لو احتاجت فرقة الدرافا باستمرار إلى حشد عدد أكبر من القوات.

بغض النظر عن اليد الخفية وراء هذا النقل، وصلنا بالفعل إلى ماريبور بحلول ربيع 1938، وتم توفير مسكن لي في المدينة، وعينت مسؤولًا عن سرية خيالة بسلاح الفروسية. وقتها، بدأ الجليد هناك بالذوبان، وعادت فيرونيكا لحيويتها وروحها المقبلة على الحياة. فقد صارت هناك وسط أهلها، واندمجت في مجتمعها واعتادت الذهاب إلى التجمعات في الحديقة الرائعة بالمدينة، وركوب الخيل مع السيدات الآخريات في نادي الفروسية في قرية كامنيتسا. حكت للناس عن فرانيا والأغنيات الحزينة الحالمة التي تعلمتها هناك، وعن نهر الموارافا، والحمام التركي، وأبواق الغجر وحفلات الزفاف. وفي جلسات الشاي، تعلم منها الأصدقاء كثيرًا عن العادات والتقاليد الأرثوذكسية، وحكت كيف أن الناس يأخذون إلى المقبرة الأطباق المفضلة للميت ويتركونها فوق القبر بعد الدفن حتى تتناول منها روحه، فيأتي الغجر في الليل ويقيمون مأدبة عريضة يتناولون فيها كل تلك الأطعمة. الآن صارت فرانيا مغامرة مثيرة ومضحكة يمكن الحكي عنها، والتي ستضفي عليها قصة الهروب مع الضابط الفارس طعم حكايات الفروسية والقصص الخيالية الأسطورية. ستقول لهم:

ستيفان حبيبي، فارس أحلامي وبطلي!

من حسن الحظ أن الصفعة لم تُذكر في واحدة من تلك الجلسات. فقد أحبت أن تُضحك من حولها، واستطاعت أن تجعلهم يضحكون إذا ما ذكرت بعضًا من الأقوال التي علمتها إياها؛ «سلاح الفروسية يبصق على سلاح المشاة»، مثلًا. ذات يوم، أتيتُ إلى المطبخ فسمعتها تتحدث في غرفة المعيشة إلى صديقتها التي جاءت لزيارتها، وتحكي لها عن يوم سارت فيه إلى مستوطنة غجر الماهالا، حين فُجعت من منظر الحملان والخراف المذبوحة. حاولت التنصت قدر الإمكان عليهما فعرفت أنها تقص عليها ما حدث معها قبل عراكنا الأكبر. قالت إنها حين سارت على الطريق وجدته غارقًا في الدماء السائلة من العروق النافرة لرقاب الأغنام التي تجري في قنوات الصرف ومنها إلى الشوارع والطرقات أمام أعتاب البيوت.

كلما عادت إلى مخيلتي ذكرى هذا اليوم، أرى المشهد المرعب بكل تفاصيله بمجرد أن أغلق عيني.

هي لم تخبرني بأي شيء عن هذه القصة، لا حين كنا في فرانيا، ولا بعد أن خرجنا منها. لم تحك لي ما الذي حدث لها في ذلك اليوم حين عدت إلى البيت بعد أن قضيت فترة حبسي في القاعدة، ثم صفعتها على وجهها في يوم عودتي لمجرد أن علمت أنها عاودت أدراجها إلى الماهالا مرة أخرى. من الواضح أنني لم أكن أستحق أن تهتم بإخباري تلك القصة. وفي نفس الليلة، حين عدت إليها، لم تر أني أستحق أكثر من الشعور بالشفقة على القصة التي رويتها لها من أيام طفولتي. لكنني كنت أعني لها أشياء أخرى. فقد كنت الفارس الذي لن يتوانى عن الدفاع عن شرفها، وكنت

رفيق الرقص في حفلات ماريبور التي أطلقوا عليها ليالي الأدرياتيك. لكن الحقيقة التي طالما حاولت أن أتجنبها هي أن شيئًا قد انكسر بيننا في فرانيا، تلك المدينة البائسة. شعرت بأنها طير في قفص، وكنت أفهم شعورها، وربما تكون قد أخبرت إحدى صديقاتها بالفعل عن هذا الجزء من القصة أيضًا. وعن أشياء أخرى انكسرت بيننا في أماكن أخرى. وفي ماريبور على الأخص، انزلقت علاقتنا على منحدر جبلي، ولكن بسرعة ثابتة. كنا نقضي معًا وقتًا أقل بكثير مما اعتدنا قبل ذلك. على صعيد آخر، ازدادت مناورات فرقة الردرافا بشكل متكرر. لم تكن الحدود تبعد عن ماريبور سوى كيلومترات قليلة، وعلى الجانب الآخر منها لم تعرف النمسا هدوءًا ولا سكونًا، حيث قام النازيون المحليون بالمسيرات المكشوفة طوال الوقت دون أي تغطية. كان العالم مليئًا وقتذاك بأحداث حرجة متتالية الوقوع والجميع يشعر بالهزة الأرضية القادمة. حصلت فرقة الفروسية الخاصة بنا على دبابات خفيفة، ومركبات قتال صغيرة صنعها الإشكودا في براغ، بالأساس لتحل محل قوات الفروسية. وقتها اعتقدت أن هذا ليس سوى خبل، ولكن لم يكن لدي خيار، واضطررت لقبول تلك الآليات وبدأ تدريب الفرسان عليها. وبالفعل كنت أقود تلك المركبات القذرة المخلخلة بدلًا من فرسي فراناتس الذي وضعته مجبرًا في الإسطبلات لأتفرغ لذلك الجنون.

بعد فترة قصيرة من وصولنا إلى ماريبور، جاءت يوسيبينا والدة فيرونيكا لزيارتنا، وفي خلال أيام قليلة من وصولها صار البيت مؤثثًا بالكامل ليصبح مشابهًا لتلك الأماكن التي اعتادت فيرونيكا على العيش فيها. في أحد تجمعات الشاي والحلوى، حكت لنا يوسيبينا عن أيام شبابها في ريكا، وهي لم تزل شقراء. لذا دعوها «لابيوندا». زوجها -ووالد فيرونيكا- أسموه بيتر تيمنًا باسم الملك الشاب، كما روت. كان لهما بيت جميل يطل على شاطئ البحر على جزيرة تشيريس، يحيط به حديقة واسعة. نفس الكلام سمعناه من قبل في جلسات سابقة. عملت لدينا فتاة تدور طوال اليوم في البيت تنظف كل ذرة تراب يمكن أن تصل إليها، إلا حذائي العسكري الموحل، فإنها لا تنظفه أبدًا. هي بالأحرى تجده مثيرًا للقرف وقذرًا، خاصة كلما عدت به بعد جولة تدريبات ميدانية لمدة تسعة أيام لا أخلعه عن قدمي أثناءها، حتى في نومي، إلا حين أعود إلى البيت. توالى الزائرون على بيتنا المؤثث بعناية، وخاصة النساء، وأغلبهن من رفيقاتها في نادي ركوب الخيل، وبالطبع برفقة رجالهن من سادة المجتمع. بدأ شعوري بالدونية في صحبتهم يزداد ويزداد، وكنت في بعض الليالي حين أغادر القاعدة، أفضل أن أمر على إحدى الحانات لأتناول عشائي.

وفي ليلة، كنت بإحدى الحانات بشارع الملك آليكساندر، وجلست لتناول العشاء. ثم جاءت جماعة من الرجال وجلسوا على المائدة المجاورة، يتحدثون بصوت صاخب مرتفع. عرفت أنهم بعض رجال الأعمال من خارج المدينة، أحدهم تشيكي يبيع الآلات، والآخر مندوب شركة يبيع معدات مختبرية. وحسب ما سمعت، فإن هذا الأخير كان متجهًا إلى تريست، ومر بماريبور لينتظر زميله القادم من براغ، اسم صديقه إردمان ولا أعرف لِم ما زلت أذكره، أما الرجل الأكثر صخبًا من بينهم هو رجل أعمال كرواتي يرتدي ساعة ضخمة من الذهب الخالص، ولسبب ما لا أدريه بدأ في التلميح بالكلام عني دون أن يعرفني. فهو حتى لم يطرف عينه تجاهي. قال:

أما في ما يتعلق بهؤلاء الصربيين، فهم لا يرون العالم سوى مجرد ثكنة فروسية. مجرد ثكنة قذرة للفرسان.

كنت منصتًا فقط دون أن أنطق بكلمة، رغم أن داخلي يغلي. فأنا أفهم تمامًا أننا نحن الصربيين

بشكل عام ملامون على كل شيء بلا استثناء، وبشكل خاص سلاح الفرسان باعتباره فرقة في الجيش الصربي، يظنون أن لا فائدة منها، وأن الحل الأمثل هو استبدال خيله ببعض المدرعات الخفيفة التي صنعتها الإشكودا. وبالأخص أكثر، ضابط الفروسية الذي تحولت شقته إلى مسكن فاخر تغطي نوافذه الستائر الحريرية، ليليق بضيوف السيدة يوسيبينا المحترمين اللطفاء وابنتها المرفهة، والذي تعمل به خادمة تنفر من أحذية الضباط العسكرية.

مر وقت إلى أن ارتاحت الأم يوسيبينا في الحديث بحضوري حتى صارت لا تجد غضاضة في ذكر الديوث أمامي ووصفه بكل حب وإعجاب. حكت عن مشاريعه التجارية وسياراته الفارهة. ثم ذات مرة، وأنا جالس معهما، أخبرت السيدة يوسيبينا ابنتها السيدة فيرونيكا عن القصر الذي اشتراه ليو في شمال كارنيولا:

الحقيقة هي ضيعة شاسعة! قصر أثري على مساحة هائلة تحيط به مزرعة كبيرة، بها حديقة وبحيرة ومحمية صيد، وإسطبلات للخيل.

أطلق عليها عِزبة بودجورسكا، وحملت المقاطعة التي تقع فيها نفس اسمها. وهي ضيعة كبيرة بها غابات وحقول وحظائر تنتمي إلى نفس المزرعة وتطل على جبل ستيب الذي لا يدل اسمه على حقيقته. فهو لم يكن منحدرًا، بل تل منزلق مغطى بالأشجار، ويطل عليه القصر من الخلف. أما الواجهة التي يطل عليها فكانت لأرض مستوية ممتدة شاسعة على أطرافها تقع قرية جورينيا وقرى أخرى، حيث يعيش المزارعون الذين يعملون في أرض العزبة.

إنه مكان لطيف!

تقول السيدة يوسيبينا إنها زارت المكان وتجولت في أنحاء حديقته الخضراء، وإنها ثملت من رائحة نسيم الصباح في الربيع هناك.

ليو، زوج فيرونيكا.....

تعيد وتكرر قول ذلك في حضوري كثيرًا، ودون أن تنتظر تجاهي:

ليو، زوجك، صار يقضي هناك وقتًا أكثر مما يقضي في ليوبليانا. يستضيف الرسامين الذين يدعمهم ويشتري لوحاتهم، وفيتو عازف البيانو، تذكرينه يا فيرونيكا! وأحيانًا يقيم حفلات موسيقية ليلية.

في الغالب، يكون الفضول هو رد فعل فيرونيكا حين تسمع تلك القصص، وتبدأ في الاستفسار عما قالته أمها بسلسلة من الأسئلة المتتالية، كما فعلت حين سمعت عن القصر، فأرادت أن تعرف مزيدًا من التفاصيل عن الملكية الجديدة التي امتلكتها العائلة؛ كيف تبدو الغرف، أين يقع المطبخ، ما المناظر التي تطل عليها غرف النوم، هل المكان مناسب لامتطاء الخيل. بالطبع، عاد الجبار ليو جارنيك للظهور، دون حتى أن يكلف نفسه عناء الحضور. كان جالسًا معنا وحاضرًا في معظم أحاديثنا. الحق أنه لم يغب عنا أبدًا، ولا حتى في فرانيا. ولو أن وجوده ظل خفيًّا إلى أن جاءت لحظة تلك الصفعة الغبية، والتي من بعدها صار حضوره أكثر وضوحًا وتأثيرًا. يزورنا بين حين وآخر في قصص السيدة يوسيبينا والدتها، وحتى حين ترحل، يبقى هو معنا حتى إن لم نره. ولكن بعد مرور أيام قليلة على رحيلها، عادت مرة أخرى لتقيم معنا فترة أطول من سابقتها. هكذا الأمر

دائمًا.

رحلت فيرونيكا ذات يوم في صباح أحد أيام الشتاء الدافئة المشمسة، وأذكر هذا اليوم جيدًا لأننا صحونا على حديث المدينة كلها عن جريمة دموية وقعت في مرتفعات بوريا. ردد الجميع الأنباء عن الزوجين المسكينين غير المحظوظين اللذين خرجا –كما يتضح- للتنزه داخل إحدى الغابات، وسارا في طريق صاعد مرتفع ومغطى بالجليد، وعلى ظهريهما حقائب بها أغراض التنزه في الغابة. ثم قابلهما غرباء اعترضوا طريقهما وقتلوهما، وتقريبًا سرقوا حقيبتيهما وأغراضهما. بلغ الحديث عنهما قاعدة المارشال ميشيتس نفسها، وقد نقل واحد عن المارشال أنه يظن السلوفينين المحبين للسلام قادرين على اقتراف مثل تلك الفعلة الشنعاء. لا أعرف لماذا ظن ذلك، ولكني لم أهتم لأن الأمر لم يتسبب لي في أي مضايقة. فالمجرمون الذين يمارسون العنف موجودون في كل مكان في العالم، فلم قد تمثل ماريبور استثناءً لذلك التعميم؟ عدت إلى البيت متأخرًا في ظهيرة ذلك اليوم، وفتحت لي الخادمة الباب. شحب وجهها، وظننت للوهلة الأولى أن الخوف قد أصابها حين سمعت عن الجريمة،، ولكنها قالت لي:

لقد رحلت السيدة وتركت لك خطابًا.

لحظتها فهمت تمامًا ما حدث، ربما لأنني توقعت حدوثه من فترة طويلة. ظلت الخادمة تراقبني وأنا أفتح الرسالة وقالت إنها ستبقى في حال كنت أحتاج إليها. لكنني طلبت منها أن ترحل وقلت لها:

لا داعي، فالأمور على ما يرام، يمكنك الذهاب.

على كلٍّ، يمكنني تنظيف حذائي بنفسي كما تعودت دائمًا. لم أكن محتاجًا إلى أحد منذ تلك اللحظة.

في الرسالة، شرحت لي أنها عادت إلى ليو، وأنها ما زالت تحبني، ولم ولن تندم على ذلك، ولا على كل ما مررنا به سويًّا. لكن بالتأكيد أنا -ستيفان- أستطيع أن أرى إلى أي حد تباعدنا في الفترة الأخيرة. شعرت عندئذٍ بشعور تمساح تم تحنيطه وحشوه قبل حتى أن تتاح له الفرصة ليعقر زوجها.

وصلتني منها آخر رسالة في ربيع 1938، والآن تحل بواكير صيف 1945. بالكاد مرت تلك السنوات السبع منذ رحيلها. بالنسبة لي أشعر أن الأمر كله حدث بالأمس. أذكر شقة ماريبور وهي خاوية من كل شيء. لن أنساها. ظل الأثاث موجودًا. لم تأخذ أي شيء معها بخلاف ملابسها وبعض الأغراض الخفيفة. وبرغم ذلك بدت خاوية تمامًا لأنها ذهبت. رحلت وأخذت معها كل شيء، ضحكها وخطوتها الرشيقة. لم تترك خلفها شيئًا. في الحمام، لم يزل صنبور الاستحمام الأفقي على الحائط يقطر بعض الماء المتبقي من أثر استحمامها في الصباح. لقد حصلت على حمامها الصباحي ورحلت. لن أنسى تلك القطرات المتساقطة لدرجة أنني ما زلت أسمع صوت وقعها على الأرض. طق، طق، تخبط في البورسلين على الأرضية، على وتيرة متزامنة، كالثواني تدق في ساعة حائط، كالدقائق، كالساعات، كالزمن يمر في صمت مميت. كأن شيئًا ما توقف منذ تلك اللحظة عن التدفق، وتحول اتجاه تدفقه إلى مكان آخر. أذكر تفاصيل هذا اليوم بوضوح، بالرغم من أن الأحداث التي مرت بها في السنوات السبع الماضية كانت أكبر وأكثر من كل الأحداث التي مرت في حياتي قبلها. هي ذهبت، كما ذهبت يوغوسلافيا. ذهبت كما ذهب الجيش

الملكي واختفى تمامًا، ولم يعد هناك منطق في دعوة هؤلاء المتسكعين الأسرى الذين يجولون في ممرات الثكنات الآن في بالمانوفا للخدمة بأفراد الجيش الملكي. لكنني ما زلت هنا، وسأظل أفترض أنني ما زلت هنا.

حين أذكر الزمن الذي يفصل بين رحيلها واندلاع الحرب، أشعر بأن تلك الفترة فارغة من الحياة، وكأن شريطًا سينمائيًّا قد توقف فجأة عن العرض، وتجمدت الصورة. تلك الفترة في حياتي تشبه حفرة لا قاع لها. أكبر أمنية حلمت أن تتحقق هي أن تعود حياتي إلى عهدي بها قبل أن أقابلها: حياة ضابط ملتزم، تخلو من الحماسة. أقوم بأداء مهامي وأصيح في المجندين وأتثاءب أثناء مناوباتي الليلية وأنا أتناول السليفوفيتس وأسكب بعض القطرات من كأسي أو أسكب أحد كؤوس الضباط الآخرين دون قصد. وفي الصباح، أعود للبيت الخاوي بنفس راضية. عادت الرسائل مرة أخرى من فاليفو، وأخبرتني يليتسا أنها لم تزل تنتظرني. قررت أن أسافر إلى فاليفو، وهناك قضيت ثلاثة أيام أتجول في طرقاتها، أو في الفراش مع يليتسا التي بكت في كل ليلة، ورددت أنها لم تعد تعرف من أنا، وما الذي حدث لي. تركت فاليفو وعدت إلى بيتي الذي صار أكثر خواء. كتبت ليليتسا بعدها لأطلب منها أن تأتي إليّ في ماريبور، لكنها قالت إنها لم تعد قادرة على اتخاذ قرار بشأن هذا.

هكذا مر الوقت الثقيل، والحقيقة أن يليتسا لم تأتِ أبدًا إلى ماريبور، بل تشيدو هو الذي انتقل إلى ماريبور بعد أن تم إعادة انتدابه إلى الحدود النمساوية. كنا زملاء في نفس الغرفة في الثكنة، واعتدنا تناول الغداء والإفطار معًا. نظف حذائي مع حذائه، ولمعه وجمع الزجاجات الفارغة وتخلص منها. لكننا تجنبنا أي حديث عن فيرونيكا. في الأسابيع الأولى التي تلت رحيلها، اتصلت بي عدة مرات لتسألني عن أخباري. وكنت أجيبها أنني بخير. ماذا يمكنني أن أقول غير ذلك؟ في آخر مكالمة قالت إنها ستنتقل للعيش في الريف، في المزرعة التي تحدثت عنها أمها، فقلت لها: لا بأس! وساد صمت للحظات طويلة. بعد فترة لن أكون قادرًا على تحمل الوضع، فكتبت لها العديد من الرسائل، لكنني لم أتلق أي رد. طال الانتظار وصار بعيدًا حتى لم يبق منه سوى خيط رفيع اختفى في ظلام الوحشة والوحدة، وترك وراءه هدوءًا قاتلًا. الهدوء الذي لم يكسر حدته سوى هدير قذائف مدافع الهاويتزر في ساحة التدريب بالقرب من سلاني حيث قمنا بمناوراتنا، أو قهقهة صديقات تشيدو حين اصطحبهن من المدينة إلى بيته في الليل، وأيضًا أصوات الغناء والمسيرات العسكرية ودق الكعوب على أرض القاعدة ونحن نقول «نسير في صفوف، إلى الأمام، اصفُف!».

في إبريل، وقبل غزو يوغوسلافيا بأيام، عدوت باتجاه سيارة كان يجلس فيها الرائد آليتش، توقفت خارج مستودع تموين القاعدة. كان في طريقه هو وفرقته إلى درافوجراد في الشمال، ومروا بماريبور ليتزودوا بالذخيرة والمؤن الغذائية. حين ذهبت إليه، قال لي إنه سعيد لرؤيتي. لكنه لم يكن سعيدًا بالطبع حين اضطر أن يتخذ قرارًا بنقلي إلى فرانيا. لزم عليّ أن أتفهم أنه لم يكن لديه خيار آخر. قلت له إنني متفهم، ولكنني لم أكن أهتم بمعرفة شعوره حيال ما فعل بي؛ إذا ندم أم لا. فلا شيء سيغير من الواقع، ولا يمكن الرجوع بالزمن لتجنب ما حدث. رحلت أنا وفيرونيكا عن فرانيا، ورحلت فيرونيكا عن ماريبور. لم يتبق سوى القاعدة العسكرية، والرائد آليتش الذي انطلق ليحرز النصر ويحصل على ترقيته ليصبح عقيدًا. كل شيء بقي كما هو، إلا الحرب الجديدة علينا، الحرب الوشيكة التي بقينا في انتظارها لوقت طويل.

لطالما كنتَ ضابطًا كُفؤًا، والآن أتتك الفرصة لتثبت ذلك.

حين تهيأ للرحيل، تذكر فجأة شيئًا أراد أن يقوله:

بالمناسبة، صديقي ليو جارنيك دعاني لزيارة ضيعته حيث أقام حفل زفاف جديدًا له ولزوجته بمناسبة التئام شملهما.

ضحك آليتش بصوت مرتفع، وأكمل:

لقد ارتدوا سلاسل جديدة رمزًا لارتباطهما الجديد، وحتى لا ينفصلوا مرة أخرى إلى الأبد. طرفة لطيفة، أليس كذلك؟

طبعًا، لم ينتظر الإجابة، وانطلق بسيارته إلى درافوجراد. وهناك بعد أيام قليلة من وصوله، استسلم وسلم وحدته بأكملها بحسب الإجراءات العسكرية لنقيب فرقة مركبات ألماني. أما أنا، فكنت عالقًا في مدرعتي الخفيفة حيث أنا. أفكر في فيرونيكا التي تعيش الآن في مقاطعة يملكها زوجها ملكية خاصة؛ زوجها الذي تزوجها مرة أخرى في احتفال بهيج. حفل زواج ثانٍ من زوجها نفسه. ألقيت اللعنات على الأحمق الذي اخترع المدرعات الخفيفة لتحل محل الخيول والفرسان، فهي مجرد آلات لم نملك المزيد من الوقود لتشغيلها. لم يكفِنا الوقود لنصل إلى شينتلي ونقوم بالهجوم المضاد الذي خططنا له. نفد الوقود في اللحظة التي انتظرناها لتنفيذ الهجوم. لحسن الحظ، كان لدينا خيول. ومع ما تبقى من فرسان في سريتي –الفرسان، هؤلاء الرجال الذين لم يفزعوا حين أثيرت هناك حالة فزع عامة في كل مكان، ولم يجبُنوا حين تملك الجُبن من الجميع، ولم يخونوا مثل من خانوا- قمت أنا وتشيدو بقيادة السرية عبر سلافونيا حيث اعتاد الفلاحون الكرواتيون الوقوف على حافة الطريق ليبصقوا علينا. لم يكن ذلك الوقت الذي اعتادت فيه الفروسية أن تبصق على المشاة، بل الوقت الذي يبصق فيه الفلاحون على الفرسان، ويلوحون لهم بمذراتهم مهددين ليخيفوا بها خيولنا بشكل متكرر حتى تقفز بنا مهرولة. وحينما يحل الظلام، كنا نضطر –نحن القوات الملكية العظيمة المحتفى بها- أن نتوسل إلى الفلاحين السلوفيين ليعطونا بعض القمح لنطعم خيولنا ونأكل. وفي الأوقات التي تبطل فيها حججنا، ولا تجدي نفعًا، كنا نفرض الحجج عليهم بقوة رصاص البنادق.

علمنا بأمر المقاومة التي تتشكل في البوسنة، فبدأت أشعر أن الحياة تستعيد شيئًا من معناها المتزن، وأقسمنا أنا وتشيدو لبعضنا أننا سنحارب الألمان والإيطاليين والمجريين والعالم بأكمله لآخر نفس، من أجل وطننا وملكنا. في أحد بيوت الفلاحين الخالية، جلسنا نقذف بزجاجات الخمر الفارغة إلى عرض الحائط في يأس بعد انهيار الجيش الملكي، فخر الوطن. ثم بعد لحظات، نحتفل في سعادة ببداية جديدة على وشك أن تحدث، ولا نعرف ما هي. وبعد ذلك، نغني ونطلق الرصاصات في الهواء في الساحة الخارجية من البيت. الساحة الخارجية التي عبقت برائحة الجثث والسليفوفيتس. لم يكن لأي شيء معنى. مجرد خبل! هذا القسم، كما قالت فيرونيكا، ليس إلا جنونًا. فيرونيكا التي ضحكت عند أول لقاء لنا حتى كادت تسقط من الضحك حين أخبرتها لماذا نمتطي الخيول في المعركة. من الخبل أن نحارب كل من لا يقف في صفنا، والخونة الذين انقلبوا ضدنا. لكننا حاربنا، وقتلنا، حتى ضرب طوفان الدم والخوف أراضينا. استمررنا في قتال الألمان من أجل الشيوعيين، ثم طعننا الشيوعيون في الظهر وفجأة صرنا حلفاء للألمان. لم نفهم ما الذي يحدث بعد أن فرض علينا نحن أبناء أبطال سالونيكا العظماء أن نرى أعدائنا يدخلون إلى قواعدنا، وضباطهم يتحركون

بحرية في المقرات الرئيسة. وصرنا ننسق الهجمات على حشود الشيوعيين الذين تزايدت أعدادهم بشكل رهيب ومتواصل. ومن جهة أخرى، كنا نحارب الفاشيين من الأوستاشا في كرواتيا، الذين هم بالأصل موالون للألمان، في كرواتيا لم نكن موالين للألمان، وإنما كنا فقط ننسق التحركات معهم. بقيت أنا وتشيدو معًا طوال الوقت، وحاربنا في البداية الألمان جنبًا إلى جنب، ثم الأوستاشا، وواصلنا الحرب حتى النهاية ضد الشيوعيين، وطاردناهم في كل مكان بالبوسنة، وليكا، وجبال سلوفينيا.

وعند نهاية الحرب، أصيب تشيدو بطلق ناري في المعدة وسقط برأسه على صخرة. رفعتها بين ذراعيَّ بينما يرغي الدم من فمه ويسيل على شفتيه كما يحدث للفرس حين يظل يعدو دون توقف. لذلك أذكر كيف غنى «أوي مورافو» في فرانيا، بينما ألقت فيرونيكا رأسها على كتفي، واستمعت إلى الغناء بعينين مغلقتين. ثم بدأت تغني «بعد سبع سنوات طوال، سنلتقي مرة أخرى» بعد إلحاح من تشيدو. وغنينا كذلك في تلك الليلة، حين سارت في الممر بين صفوف الأسرة المتراصة على الجانبين، ثم وقفت إلى جوار سريري، بشحمها ولحمها.

ما بالك يا ستيفان، هل جافاك النوم؟

أردت أن أسألها: «ما الذي تفعلينه هنا؟ لقد ظننت أنك في شمال كارنيولا، عند أعتاب التلال الخضراء العالية. تطلين على الأرض المستوية والحقول. ما الذي أتى بك إلى هنا لتتجولي هكذا؟».

لكنني لم أتكلم، ولم تنتظر هي حتى تسمع إجابتي. فقد ولَّت عني، ثم اختفت. أردت أن أقول لها ذلك لأنني أردتها أن تعرف أني أعلم أين تعيش الآن. في الضيعة الملحقة بقصر منيف. في القفص الذهبي. ألم تقل لي ذات يوم: «أنا لم أعد أملك حريتي!». والآن، شاركت بإرادتها نفس السلاسل والقيود مع رجل قد لا تكون أحبته أكثر مما أحبتني، لكنها فضلت أن تعيش إلى جواره وتظل في رباط أبدي معه. ولكن ما يعزيني أنها، في تلك الليلة، جاءتني بكامل إرادتها.

بعد أيام من تلك الزيارة، جاء المندوبون يحملون الأخبار عن العريف النمساوي الذي منح نفسه لقب المارشال الميداني، وألقى خطبة في ليوبليانا صاح فيها موجهًا حديثه إلى الجمهور ليخبرهم أن الخونة لن يروا بعد اليوم جبالنا الشاهقة رائعة الجمال. ونحن كنا الخونة الذين أشار إليهم؛ جنود الملك الذين حافظوا على عهده. ولكن هذا الخطيب والذين والوه لم يكونوا هم من صوبوا البنادق إلى رؤوسنا حين عدنا في خريف عام 1941. وقتها انقلب العالم بأكمله رأسًا على عقب. كان عالمًا مشرذمًا، مثل تلك المرآة التي قطعت وجهي لشرائح، وجعلتني أرى حياتي المتشظية إلى شذرات في كل جانب. على كل حال، لقد قررت أن أحلق ذقني الآن، وسأضع حزامي وأقوم بكيّ زيّي الرسمي، وحين أنتهي من ارتداء ملابسي، سأتوجه إلى نقطة التجمع حيث يعلو صوت البوق. بالتأكيد سأجد الجميع هناك أحياء تدب فيهم الحياة. ثم بعد ذلك سأمتطي فراناتس في الظهيرة وأتجول به حتى لا يصيبه الخمول. وأفكر أنني... ربما سأكتب رسالة إلى يليتسا.

1- فلاديمير لوتيش – سياسي فاشي ومفكر صربي يوغوسلافي، أسس الحركة القومية اليوغوسلافية عام ١٩٣٥ وتحالف مع السلطات الألمانية المحتلة في منطقة القيادة العسكرية الصربية أثناء الحرب العالمية الثانية)

2- الشيتنيك: جندي في قوات عصابات الغوريلا الصربية القومية في البلقان، خاصة هؤلاء الذين نشطوا أثناء الحرب العالمية الثانية)

(٢)

قلت لبيتر:

لو أن ابنتنا ظلت مقيمة مع ستيفان، لكانت اليوم –بكل تأكيد- جالسة في شقة ماريبور!

نعم، ستجلس آمنة في شقة الضابط الصربي الذي اعتاد أن يترك حذاءه العسكري ذا الرقبة الطويلة مغطىً بالوحل وملقىً في مدخل الشقة. أو ربما ستقيم في مكان ما في شمال صربيا، حيث تربي الدجاج. لا يهم! المهم أن أعرف أين هي. وألا أستيقظ في كل ليلة بفكرة واحدة تعن على رأسي وتؤرقني: وهي أنني من أقنعتها بالعودة إلى ليو، وبالانتقال إلى قصر الضيعة الذي عشقه ليو بقدر ما عشق فيرونيكا. ورغم أنني انتقلت إلى العيش معها، لكنني لم أستطع الحيلولة بينها وبين اختفائها المفاجئ في عام 1944، بعد أيام من الاحتفال برأس السنة الجديدة. هكذا، ومن يومها لم تصلني منها كلمة واحدة.

لا داعي لأن تلومي نفسكِ!

قال بيتر، ثم صمت لفترة طويلة كما يفعل دائمًا، ليعود بعدها ويكرر:

لا داعي لأن تلومي نفسكِ!

معه كل الحق! فعلامَ ألوم نفسي؟ على أني لم أحتمل أن أراها تعيش في المربعات السكنية العسكرية، وتربي الدجاج وتطعمه؟ هي التي كان ولعها في الحياة اقتناء الببغاوات والخيول والتماسيح؟ لماذا؟ لقد درست في برلين، وأحبت موسيقى بيتهوفن. شعرت بالأسى الشديد على حالها حين رأيتها تعيش في هذه الظروف، حتى لو كيفت نفسها على تحمل هذه الحياة، لكنني أنا لم أستطع التكيف معها.

الليلة، وأنا جالسة وحدي في شقتي الخاوية على أطراف ليوبليانا، شغلتني فكرة خبيثة: (ماذا لو أنها بقيت مقيمة مع ذلك الضابط...)، فأضأت مصباح الغرفة، وأمسكت بصورة بيتر، ثم جلست لأتحدث إليه. فقد صرت أحدثه كل ليلة. فهو الوحيد القادر على أن يمنحني الهدوء والسكينة.

هذا الصباح، جاء فيليب لزيارتي. فيليب أخو ليو. تساءل لو أن هناك شيئًا أحتاجه. بالطبع هناك شيء أحتاجه.

هذه الشقة الصغيرة المكونة من غرفتين في ضواحي ليوبليانا النائية ليست ضيعة. بالتأكيد ينقصها أشياء كثيرة!

كنت أمزح طبعًا، وهو يعلم. هو بالذات يعلم جيدًا أن ما ينقصني ليس الضيعة. قال لي:

أنت قادرة على اجتياز تلك الظروف، بشكل ما، إلى أن تختفي تمامًا.

جلست مستندة إلى النافذة المفتوحة، كعادتي، وهو يقف خلفي ليشاهد معي المسيرة التي قامت بها جماعات تحمل لافتات وإعلانات وبورتريهات ضخمة لزعمائهم. ساروا صفوفًا على وقع موسيقى الآلات النحاسية التي تعزفها فرقة موسيقية، والسائرون في حالة ابتهاج وصخب، والبعض يلوح لهم من النوافذ والشرفات. وفجأة، رأيت رجلًا توقف أسفل البناية التي أسكن فيها، ونظر لأعلى،

بالتحديد تجاه نافذتي مباشرة. رجل عريض الكتفين، ممتلئ الجسم، تحيط بعينيه هالات سوداء من ذلك النوع الذي يميز وجوه أصحاب الذاكرة الضعيفة، ومرتادي الحانات السكاري. بدا وجهه مألوفًا شيئًا ما، فظننت أنه ربما أحد العمال الذين عملوا بضيعة بودجوراسكا. لكن لسبب ما فإن نظرته جعلتني أرتعش، كأن شعاعًا غامضًا ومألوفًا توجه من عينيه ناحيتي. وبعد لحظات، التف واختفى وسط الجموع في المسيرة.

بكل تأكيد، سأجتاز كل هذا!

أجبت فيليب وأنا أفكر في الشقة التي تخلو من دورة مياه بها حوض استحمام، فلا يوجد هنا سوى دورة مياه مشتركة يقف أمامها دائمًا صف طويل من السكان في انتظار دورهم لاستخدامها. كل صباح، تقف النساء في أرواب الاستحمام، والرجال ببناطيلهم الساقطة من فوق خصورهم، وقد سقطت عليها حمالاتها. بالطبع سأجتاز كل ذلك بشكل ما. لست أحتاج إلى أي شيء. أجلس هنا على النافذة كل يوم في انتظار أن أرى وجهها، وجه حبيبتي فيرونيكا، أو أرى ليو يمر بسيارته من هنا ذات يوم. وربما أراهما معًا، آتيين معًا، سائرين على الرصيف وهي تمسك بذراعه. ستنظر لأعلى تجاه نافذتي وتبتسم. لا أحد يمكنه أن يبتسم بنفس الجمال الذي تبتسم به فيرونيكا. سألوح لها حين تبتسم لي. قبل قليل، شهدت فيليب قادمًا، فهو يعلم أنني أجرت هذه الشقة، ولذا فهو يأتي إليّ من وقت لآخر ليحضر لي بعض الطعام، والخبز والحليب والدقيق. وأحيانًا قد يحضر لي قطعة من اللحم.

أنتِ لم تأكلي شيئًا.

قال لي فيليب:

أنتِ لم تلمسي الطعام مرة أخرى.

لم أعد أهتم بالأكل.

في كل مرة أقول له ذلك، ويجيبني نفس الإجابة:

هل فيرونيكا سترضى بذلك؟ كانت لتقول لك: عليكِ أن تأكلي يا أمي. هذا ما ستقوله: لا يمكنك أن تعيشي دون طعام.

ذلك بالفعل أول ما اعتادت أن تقوله فيرونيكا في قاعة الطعام حين يتم إعداد طاولة العشاء بالضيعة، حتى في الأوقات التي استقبلوا فيها ضيوفًا يلزم الاهتمام بهم أولًا على مائدة الطعام ودعوتهم له. «قدموا الطعام لأمي أولًا!»، وأحيانًا قد تطرف بعينها فقط كعلامة يفهمها الجميع، ثم ينفذونها. علامة معناها: أمي أولًا. في الأوقات التي يكون فيها مزاجها رائقًا، تذهب إلى المطبخ بنفسها وتساعد الطهاة في الطبخ. ترفع أكمامها عن ذراعيها، وتعد لي بيديها طبقًا أشتهيه؛ فطر البوركينو المطبوخ الطازج.

ما زلت جالسة بجوار النافذة حتى بعد أن اختفت المسيرة وغيرت اتجاهها عند جانب الطريق. تردد صوت الموسيقى في الأنحاء، وأسرع المتأخرون عن المسار للحاق بالمسيرة التي اتجهت إلى ميدان الكونجرس، كما أخبرني فيليب:

- سيقيمون تجمعًا كبيرًا هناك ليستمعوا إلى خطبة سيلقيها المارشال.

أجبته:

- ليلقي خطبة، ولتُعزف الموسيقى، وليلوح له الناس ويبتهجون. فقد انتهت الحرب، ومن حقهم العودة إلى بهجة الحياة.

- أنا لا أستطيع قول ذلك! احذري مما تقولينه أمام الناس. تلك أوقات غريبة وغير مفهومة. وهناك من يؤخذون من بيوتهم في منتصف الليل دون تهمة، وإلى وجهة غير معلومة. ثم لا يسمع عنهم مرة أخرى أبدًا.

- كما أخذوا فيرونيكا؟ أليس كذلك؟

صرخت حين لم يجب:

كما اختطفوها في سيارة وانطلقوا بها؟!

صمتَ لحظات، وقال:

أنت تعلمين، لقد غادرت هي وليو معًا، ومن المفترض أنهما متجهان إلى مكان آمن.

إذًا، فلم لا يتواصلان معي بأي وسيلة؟ على الأقل، أن يرسلا إليّ رسالة. فماذا يضيرهما لو طمأناني على أحوالهما، فأنا لا أتحدث إلى أي شخص. ماذا عساي أن أقول؟

اعتدت أن أجلس إلى النافذة في شقة ليوبليانا كعادتي في الضيعة، حين كنت أجلس على الشرفة المطلة على جبل ستيب. كانت تلك جلستي المعتادة طوال الشتاء الماضي، وبعد أن رحل كل من فيرونيكا وليو بصحبة بعض الأشخاص، ثم لم يسمع عنهما أي شيء أبدًا بعدها. رحلا في تلك الليلة في وقت متأخر، بواحد من أسوأ فصول الشتاء التي مرت على البلاد. تساقط الجليد بكثافة وتراكم في تلال على أنحاء الطرق. لم أعرف أنهما قررا الرحيل، حتى قيل لي في الصباح التالي –في أول شهر يناير من عام 1944- أنهما رحلا مع بعض الزوار. لكنني سمعت هؤلاء الزوار طوال الليل وهم يصفقون أبواب الغرف والدواليب بقوة، ووجدت صعوبة في التحرك داخل القصر، وبقيت جالسة في غرفتي بالدور العلوي لفترة طويلة. ثم جاءت مدبرة المنزل يوجي إليّ، وقالت إن بعض ضيوفنا لم يرغبوا في المغادرة بعد الحفلة المسائية إلى بيوتهم، سألتها:

لماذا يصفقون الأبواب؟

أعتقد هم يفعلون ذلك لأنهم تناولوا الكثير من الخمر حتى غاب وعيهم، ولم نعد قادرين على إقناعهم بالرحيل إلى بيوتهم.

عرفت في اليوم التالي أن فيرونيكا وليو رحلا معهم، وبقيت منتظرة عودتهما. وما زلت منتظرة حتى اليوم، على نافذة غرفة نومي، منذ رحل زوار الليل أنتظر أن ينتهي هذا الشتاء الطويل وذلك الربيع الذي يبدو كأن لا نهاية له من بعده. حين كنت ما زلت أنتظر في الضيعة، رأيت هؤلاء الألمان الغرباء في زيهم الرسمي يحومون حول ساحة البيت، ويسيرون وسط العمال، ثم انضم إليهم غرباء آخرون في زي رسمي مختلف. بقيت في مكاني أنظر من خلال النافذة، وأنتظر أن

أسمع صوت فيرونيكا تنادي من الساحة: «أمي، لقد عدت إلى البيت!» والآن أنتظر على نافذة شقة ليوبليانا، أتفرس في ملامح كل الوجوه العابرة، تحت شمس مايو الساطعة، وتحت ظلام المساء، أحاول أن أتكشف تفاصيل كل وجه، فربما تقع عيني عليهما، أو أعرفهما من طريقة سير ليو.

ماذا لو كانت في زغرب؟

قلت لفيليب:

حين هربت من ليو ذهبت إلى زغرب. ربما أخذها مرة أخرى إلى فرانيا. أو ربما هربت مع ليو إلى إيطاليا؟ أو فرنسا، فهي تعرف بعض الأصدقاء هناك؟

أشك في ذلك! سيكون من الصعب النجاح في الوصول إلى فرنسا في وقت الحرب.

ماذا لو ذهبت إلى برلين؟

هل لها أصدقاء هناك؟ لقد صارت برلين مدينة مدمرة.

ماذا عن سويسرا؟ لقد هرب الكثيرون إلى هناك.

هناك احتمال لذلك.

أجاب فيليب، وهو يحدق في الشارع الخالي من وقع أي قدم أسفل نافذتي.

إذًا فهما في سويسرا. استطاعا أن يأخذا بعض المال معهما والآن يقيمان في سويسرا. فيليب! أنت تعرف أنهما في سويسرا، أليس كذلك؟

لكن فيليب لم يجب.

عليك أن تثق بي، أعلم أنك خائف من أن أخبر أي شخص. لكنني لن أفتح فمي. لن أخبر أحدًا إطلاقًا أنهما في سويسرا.

واصل التحديق في الشارع عبر النافذة، ولم يجب.

فيليب! هل سمعت ما قلته؟

نعم، سمعت.

وصمت مرة أخرى لفترة، ثم سألني فجأة إذا ما كنت أتذكر هذا الطبيب الألماني الذي جاء لزيارتنا في بودجورسكا أثناء الحرب.

بالطبع، أذكره! اسمه هورست.

ارتدى الطبيب يومها زيًّا عسكريًّا، ولكن سمته لم ينم عن كونه عسكريًّا إطلاقًا. بدا سيدًا محترمًا مهذبًا، وقد اعتاد ليو وفيرونيكا أن يدعواه للزيارة. أحب الموسيقى، وحضر كلما أقام فيتو حفلًا موسيقيًّا. أعطى انطباعًا لمن يراه أنه رجل أتى إلى هذا الجزء من العالم بالصدفة، وكأنه في انتظار أن ينتهي كل شيء ويتغير العالم من حوله ليصير ملائمًا لوجوده.

سأثق بكِ، وأخبرك بأمر ما. لقد وجدت عنوانه وعرفت أنه يعيش في ميونيخ، ذلك بالطبع إذا هو

لم يزل حيًّا.على الأقل عرفت أنه أقام هناك قبل الحرب. فكتبت له رسالة، ونحن الآن نحاول أن نوصلها إليه حيث يقيم.

أمسكت بيد فيليب وسألته:

هل يعرف مكانهما؟

ربما! ربما يعرف شيئًا. سنعرف لاحقًا. لننتظر ونرى.

أردت أن أعرف إلى متى سننتظر حتى يمكننا أن نعرف منه أي أخبار. فأجابني فيليب بأن الأمر معقد.

- لقد وجدنا وسيطًا سيأخذ هذه الرسالة إلى جراز، وسيرسلها من هناك إلى ميونيخ. وسيكون عليها عنوان بريدي لإرسال الرد.

- ولكن، لماذا إلى جراز؟ لماذا كل هذا التعقيد؟ لِم لا يرسلها من ليوبليانا مباشرة؟ أو نجد رقم هاتفه ونجعله يتصل به؟

لم أفهم لِم نحن مضطرون أن ندور في تلك الدائرة المعقدة، وظللت أسأل المزيد من الأسئلة، ولكن فيليب رفض أن يوضح المزيد حول الأمر.

فقط انتظري! علينا أن ننتظر!

ثم غير الموضوع وبدأ يتحدث عن نقص الطعام في البلاد، وأنه صار يحصل على الدقيق من بائعي السوق السوداء.

بالطبع آخذه من رجال موثوق فيهم، ولكن الواحد لم يعد قادرًا على الثقة بأي أحد.

وكأنني أهتم من أين يأتي بالطعام! وكأنني أهتم أصلًا أي طعام لا يجده! قال إنه سيأتي غدًا.

هل سمعتني يا فيليب، إنهما في سويسرا؟ صحيح؟ هذا الطبيب الألماني، هورست، يعرف مكانهما بالتأكيد. متي سيجيب على رسالتك؟

لم يسمعني، وقبل أن أتوقف عن الأسئلة، تلاشى صوت وقع قدميه على السلالم الخشبية. بقيت جالسة بالقرب من النافذة، ورأيته وهو يسير أسفل البناية وينظر لأعلى ثم يختفي على جانب الطريق. بقيت على جلستي نفسها طوال الظهيرة، وحتى عادت حشود المسيرة يحملون لافتاتهم وإعلاناتهم ولوحات زعمائهم، جميعها مثنية ومطبقة. لم أبرح مكاني حتى المساء، وبقيت أنظر من النافذة إلى أن رأيت آخر العائدين من التجمع يعرجون على أقدامهم المتألمة، يتناوبون على زجاجات الخمر أثناء سيرهم. أمعنت النظر لأرى ما إذا كان الرجل السمين الذي نظر ناحيتي في الصباح بينهم. فهو شديد الشبه بأحد العمال الذين استأجرناهم في بودجورسكا. لكن الظلام الدامس قد بدأ ينتشر، ولم أتمكن من رؤية الملامح بوضوح.

صرت أخشى المساء. في كل مساء، تومض مصابيح الطرقات الخافتة وتنطفئ طوال الوقت، وتلقي بضوئها المتواتر عبر النافذة إلى داخل الشقة. أجلس في المساء وأنا أعرف أن الليل أوشك، وأني سأذهب إلى الفراش وأبقى فيه متململة ومؤرقة. في الضيعة، وفي تلك الليلة المشؤومة، أتى

الليل فعدت إلى القصر ورأسي يدور من التجول في أراضي المزرعة الشاسعة، لأصعد إلى غرفتي في الدور العلوي، وأسمع أصوات الرجال في الدور الأرضي، يدقون بكعوب أحذيتهم على المشايات في مدخل صالة الاستقبال ليسقطوا عنها الجليد قبل الدخول. ثم سمعت صوت كعوب أحذيتهم تدق على السلالم وهو يصعدون لأعلى، ثم يبدؤون في صفق الأبواب. وسمعت صوت حديثهم المتقطع، وليو يوضح لهم شيئًا ما، ومن بعده فيرونيكا. لكنني لم أتبين الكلام. ارتديت ملابسي لأذهب إلى الدور الأرضي، رغم أن قدميّ كانتا متعبتين من طول السير في المزرعة. ولكن في تلك اللحظة أسرعت يوجي إليّ لتخبرني:

مدام، لا يمكنك النزول الآن إلى الدور الأرضي.

لِم؟

طلبت مني فيرونيكا أن أخبرك أن تبقي في غرفتك.

ما الذي يحدث بالأسفل، يوجي؟

لا شيء يحدث، مدام، إنهما يتناولان العشاء مع الضيوف ويتحدثون جميعًا.

ولكنّ شخصًا ما صاح بصوت مرتفع. وقال: سِر أمامي. لقد سمعته يقول لأحد: سِر أمامي. أخبريني، يوجي، من هؤلاء الضيوف؟ ولمن يقولون: سِر؟

ما كان منها إلا أن وجهتني -تقريبًا دفعتني للوراء- للعودة إلى داخل غرفتي.

لا يجب أن تنزلي إلى الدور الأرضي، مدام. سوف يرحلون في وقت قصير.

من هم؟

سألتها بعد أن جلستُ بملابس الخروج على سريري، وبقيت هكذا في انتظار أن تخفت الضوضاء التي يصنعها هؤلاء الزائرون لأتاكد أنهم ذهبوا. وفي انتظار فيرونيكا أن تصعد وتشرح لي كل شيء. حدثتني دائمًا عن ضيوفها، فيتو، عازف البيانو من ليوبليانا، رسام ما ساعده ليو على تأثيث مرسمه. شاعر كتب بعض القصائد عن الشقراوات، وألقى قصائده في الحفلات التي يقيمها ليو، والتي في أغلبها عبارة عن نكات سخيفة. أخبرتني كذلك عن هذا الطبيب الألماني، هورست، الذي أتي للزيارة أثناء الحرب. قالت إنه جرح في المعركة في روسيا، وصار أعرج. أحب الموسيقى، وأعجب بفيرونيكا. ولكن منذ تلك الليلة المشؤومة، بعد احتفالات العام الجديد 1944، لم تعد ولم تخبرني بأي شيء. لم تكن هنا بالأساس، ولم تعد في اليوم التالي ولا في أي يوم أو ليلة تلت تلك الليلة المشؤومة. حين هدأت الأصوات سرت على أطراف أصابعي إلى السلم، وهبطت إلى الدور الأرضي. رأيت كل خدم المزرعة يقفون بالأسفل: يوجي، فرانتس، فاني، جميعهم، ثم نظروا إليّ.

ما الذي يحدث هنا؟

سألتهم، فأجابوا:

لقد ذهبوا!

أين فيرونيكا؟

ذهبت معهم، وكذلك ليو.

قال فرانتس، وأكملت فاني:

لكنهم سيعودون.

سألتها:

من أين؟ من أين سيعودون؟

قال فرانتس:

لقد ذهبوا إلى كوخ الصيد، يريدون مناقشة أمر ما بعيدًا عن المنزل. سيعودون في الصباح.

وما الذي يحملهم على الذهاب إلى كوخ الصيد عبر الطرق الوعرة المغطاة بالثلج في منتصف الليل؟

لكن يوجي قالت إن فرانتس يقول كلامًا فارغًا، فماذا يمكن أن يفعلوا في كوخ الصيد، لقد أخذوا سياراتهم وانطلقوا على الطريق الرئيس للمزرعة.

إلى أين انطلقوا؟

رأيت بواقي الطعام في الأطباق على المائدة، وإلى جوارها كؤوس، البعض منها ملقىً على جوانبه. قالت فاني حين نظرت باتجاه الطاولة:

لقد قدمنا لهم بعض الطعام، فقد كانوا جوعى، لذا أمر السيد ليو بأن نطعمهم.

لم أذق طعم النوم في تلك الليلة، وحتى الصباح فقد أتى بطيئًا، لم يرجع أحدهما في الصباح، ومرة أخرى وجدت لدي الكثير من الأسئلة بلا أجوبة. لم رحلوا في منتصف الليل؟ إلى أين ذهبوا؟ مع من ذهبوا. بصراحة، لم يعتد ليو أن يخبرنا دائمًا إلى أين يذهب. اعتاد الذهاب لقضاء الكثير من الأوقات في ليوبليانا، وفي مهام عمل أخرى. لكنه هذه المرة أخذ فيرونيكا معه. لماذا؟ لم تأت فيرونيكا على ذكر أي شيء يتعلق بما حدث لي من قبل. في العادة، تأتي وتخبرني أنها تنتوي السفر إلى ليوبليانا قبل أن تفعل. لكن يوجي تقول إنها رحلت مع الزائرين دون سابق إنذار. من هم هؤلاء الزوار؟ لم أستطع تفسير ما حدث. لكنني فكرت أن ليو بالتأكيد رأى أن الرحيل أمر ضروري، وأن عليّ الآن أن أتقبل أنهم رحلوا بالفعل، وأنهم سيعودون. هم دائمًا يعودون. استمر الشرود والحيرة معي في الليالي التالية لتلك الليلة المشؤومة. هذا الشعور غير المفهوم بالخواء داخل رأسي لم يفارقني في كل ليلة. فأدعو بيتر وأتحدث إليه، هو يعرف كيف يشعرني بالراحة، لكننا لا نتحدث أثناء النهار، فهو في النهار لا يتحدث إليّ. فلا أجد ما أفعله غير الجلوس بجوار النافذة والنظر إلى الخارج. أدرس الوجوه والسلوكيات. صرت أميز كثيرًا من الوجوه، ولكني أتجاهل أصحابها. سواء رجال السكك الحديدية الذين يتوجهون إلى العمل في الصباح، أو العاملين الذين يعودون في الليل إلى بيوتهم بعد أن ينتهوا من مناوباتهم الليلية. كذلك المزارعة التي تقود عربة خضروات طازجة جمعتها من حديقتها لتتوجه بها إلى السوق، والضابط الذي يقود دراجته من أمام مدخل بيته عبر الطريق، والشاب الذي يحاول بلا طائل أن يشغل محرك دراجته النارية ويقف إلى جوارها يائسًا لا يعرف ماذا يفعل. أعرف كل هؤلاء الأشخاص، وغيرهم الكثيرين.

ولكني حين ألحظ مرور امرأة غير مألوفة، ترتدي قميصًا وتمشي بخفة إلى أسفل الطريق، ينبض قلبي أسرع، حتى تقترب أكثر من نافذتي، وأتمكن من التمعن في ملامحها، فأتأكد أنني لا أعرفها. لكنني أجلس دائمًا واثقة من أن أحدًا سيأتي. إن لم تكن فيرونيكا، وإن لم يكن ليو، فربما يأتي ستيفان. ربما سيمتطي ظهر حصان من خيل الفرسان في قاعدته العسكرية، ويأتي إلى هنا، ثم يقفز صاعدًا السلالم، درجتين درجتين، بساقيه الطويلتين، ثم يصل إلى غرفتي منقطع الأنفاس ليقول لي: «هاكِ رسالة من فيرونيكا. لقد كتبت لكِ». أو ربما سيأتي غريب برسالة، أو مجرد ورقة صغيرة مكتوب عليها: «أمي، كل شيء على ما يرام. لا تقلقي». أو سيأتي فيليب ويقول إن خبرًا أتاه من هورست، وإنه يقول إنهما بخير، وعلى قيد الحياة. أخبرت بيتر هذه الليلة بعد أن رحل فيليب أنني متفائلة، بعد أن أخبرني أنه سيرسل رسالة إلى ميونيخ. لو أن الطبيب يرسل ردًّا فقط! عندها سأعرف أين هما، ومتى تعود فيرونيكا.

ستعود!

قال لي بيتر، وأكد أنها ستعود، فأجبته أنها لو ظلت مع ستيفان ما حدث لها كل هذا، ولا اختفت فجأة مع أولئك الزوار الغرباء، في منتصف ليل يناير القارس، ومنذ عام ونصف العام. تلك الخاطرة الخبيثة لم تفارقني، وكبلتني بشعور الذنب والندم. فلو لم تهجر فيرونيكا ستيفان، ولو بقيت معه حتى قامت الحرب، والتحق هو بالقوات في أي مكان أيًّا كان، ورحل وتركها -إلى أين؟ يعلم الله!- لعلها بقيت في شقة ماريبور آمنة في انتظار أن يعود. أنا من نصحتها أن تعود إلى ليو، فهو الرجل المناسب لها، الرجل اللطيف الذي يعتني بالتفاصيل، الذي ظل يعشقها دائمًا وبرغم كل شيء. رغم جرحها له بهروبها مع ضابط صربي لتعيش معه في الجنوب. هي وليو أصدقاء طفولة، منذ أن التقت عائلتانا الكبيرتان في المناسبات الاجتماعية. كان دائم المحاولة للتقرب منها، حتى التحقا بالمدرسة، ولم تعد هي تلقي له بالًا. لقد اهتمت بالكثير من الأشياء الأخرى، الرياضات، الرقص، الخيل، الفنون، وغير ذلك الكثير، ما عدا ليو. حتى الطيران، اهتمت به. هي أول امرأة في ليوبليانا تلتحق بدورة تدريبية لتعلم الطيران بالطائرات ذات المحرك. في ما بعد، حين بدأت تخرج مع ليو، كانت بالفعل أول امرأة في يوغوسلافيا حاصلة على رخصة طيار. كنا جميعًا نعرف أن ليو مفتون بها، ولا يقوى على فراقها. جميعنا رأينا ذلك، لكن فيرونيكا الوحيدة التي لم تره. هكذا بدا عليها لفترات طويلة. وكنا جميعًا ندعو أن تأتلف مشاعرهما، ويقتربا أكثر، طبعًا ليس ماديًّا، فهما لم يفارقا بعضيهما، ولكن روحيًّا. ربما لأنهما اقتربا منذ زمن طويل، ثم ازدادت مشغوليات وارتباطات ليو، بعد أن ورث مصنعًا في ليوبليانا، وأصبح مالكًا لواحد من أكبر مصانع التعدين في صربيا، بينما تنضح فيرونيكا بالحيوية والطاقة، وممتلئة بروح الحياة، والفضول تجاه العالم بكل ما فيه، ربما عندئذ شعرت أن الأمور تتغير. بعد زواجهما المحتوم –كما قالت فيرونيكا: «محتوم كالقدر»- صارت مجنونة بركوب الخيل. حتى ظننت أن ارتباطها بالخيل أقوى من ارتباطها بليو. على الأقل هذا ما ظننته أنا.

الفضيحة التي تسبب فيها اختفاؤها المفاجئ بعد أن اتضح أن مرجعه المخجل هو الهروب مع عشيقها ضابط الفروسية وخيانة زوجها، تلك الواقعة غير المسبوقة. كل أفعالها الغريبة التي سبقت هذه الواقعة؛ كقيادة الطائرات، والتنزه بتمساح، والسفر إلى الساحل بعد زواجها دون أن تخبر مخلوقًا، جميعها مجرد أشياء لا تذكر مقارنة بفعلتها الشنعاء التي ترتب عليها موجة هائلة من الشائعات المشينة. كانت صدمة لنا جميعًا، أصابتنا بالإحباط. لم أقو على التحدث إلى أي شخص

لفترة، وبقيت في شقتي مسجونة أتحدث إلى بورتريه بيتر، زوجي المرحوم الحبيب ووالد فيرونيكا، نتحدث معًا طوال الليل. لم يصدق حين حكيت له ما حدث.

بيتر، أنت تعرف ما حدث، إنها صدمة كبيرة!

لكنه ابتسم -على طريقته المعروفة- ورأيت شاربه يرتفع لأعلى في لوحته التي رسم فيها بشاربه وذقنه، وقال:

هناك ما هو أسوأ من ذلك بكثير يجري في العالم!

لطالما كان ماهرًا في تحجيم الأمور، وتهوين المصائب، لكن لا شيء في العالم استحق اهتمامي أكثر مما فعلت فيرونيكا. لقد تعدت فيرونيكا حبيبة أبيها كل الحدود، رغم أنها تملك كل شيء قد تحلم به امرأة شابة، وهربت إلى شمال صربيا لتحيا حياة بدائية، في مساكن العسكريين. لو أن بيتر حي، لتحطم قلبه من فعلتها، والآن ربما كان ليموت ميتة ثانية بسببها، لو أن هذا ممكن. لقد تحطم قلب ليو فعلًا، لكنه نجح في الوقوف على قدميه ومواجهة الأمر. فهو رجل لديه الكثير من العمل ليقوم به، والمسؤوليات الملقاة على كاهله، وهو يحتاج كامل تركيزه لينجح في إدارة أعماله. نعم، تحطم قلبه، لكنه قرر أن يشد من أزر نفسه ويعمل ليل نهار. فقد وجد السلوى في العمل. واهتم بشراء اللوحات والأنتيكات الأثرية القيمة، فلم يكن هناك أي شيء قادر على إسعاده غير ذلك. شوهد أحيانًا مع امرأة قيل إنها صديقته، ولكن لم تحدث بينهما علاقة، لأن المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته هي فيرونيكا. فهو سيد محترم أنيق، هادئ، قادر على إدارة شركة، ومع كل هذا فقد أحب فيرونيكا، وأحبني. في المجمل، هو رجل طيب. ولكن فيرونيكا هجرته إلى قرية صربية على الحدود البلغارية، لتطبخ وتغسل وتكوي، وتعد كل شيء لضابطها الفارس الصربي، وظلت تؤكد لي في رسائلها أنها سعيدة. في إحدى الرسائل، قالت إنها تربي بعض الدجاج لأن الراتب العسكري متواضع، ونادرًا ما يحصل الضابط على علاوات.

دجاج؟! حبيبتك فيرونيكا تقبع في قرية صربية حقيرة، الهواء فيها معبق برائحة السكارى من السليفوفيتس العفنة، لتربي دجاج؟!

قلت لبيتر:

أتلك هي، فيرونيكا، محط أنظار وإعجاب كل ليوبليانا؟! هل من أجل هذا أرسلناها للدراسة في برلين؟

ما المانع؟ آباؤنا ربوا الدجاج، والخنازير أيضًا!

في بعض الأوقات، دفعني بيتر للخروج عن رشدي لأنه دائم البحث عن مبررات لكل شيء. أما أنا، فلم أكن كذلك. في البداية كنت غاضبة جدًّا لدرجة أنني امتنعت عن الرد على رسائلها، ثم فكرت أن أساعدها، وفي مكالمة تليفونية توسلت إليها أن تقبل الأموال التي أرسلها إليها. لكنها رفضت، وعادت الأموال مرة أخرى بعد أن رفضت استلامها.

«إذا قررت أن أترك تلك الحياة لفترة، فعليّ أن أمتنع عن أي شيء له علاقة بها».

بررت لي رفضها الأموال، وقلت لبيتر ليلتها:

يا إلهي يسوع، لم تفعل ذلك بنفسها؟ إنها مستسلمة تمامًا للقدر.

لكن ليو لم يستسلم للقدر، واستطاع أن ينقل ضابطها ليعود إلى سلوفينيا، في ماريبور، بالقرب من الحدود النمساوية، حيث أثثت منزلًا في مساكن العساكر مرة أخرى. حين زرتها للمرة الأولى، رأيت في الحال بقايا السعادة التي انطفأت في عينيها. السعادة التي لا تقدر بثمن، والتي تظاهرت بها في رسائلها. لا أنكر أن ستيفان حاول الترحيب بي بكل الطرق -الطرق التي يجيدها ضابط صربي بالطبع- كالحديث بصوت مرتفع، والضحك الصاخب، لكنه قضى أوقاتًا طويلة خارج المنزل. انشغل ببعض المناورات —والتدريبات الأخرى- التي كان يقوم بها الجيش آنذاك، وترك فيرونيكا في المنزل وحيدة لأن صحبة الضباط وزوجاتهم ليست مناسبة لها ولم تعد تجد فيها أي متعة. كنت أراقب العلاقة بينهما وهي تتداعى، ولأن فيرونيكا روحٌ متحررة، لم تتحمل هذا التجاهل وتحول شعورها إلى الحزن الشديد. وهي في الوقت نفسه عنيدة، فمثلًا لو حاولت أن أشرح لها أن تلك العلاقة ميؤوس منها، فإنها تقاوم بكل قوتها. ولذا فضلت تجنب الخوض فيها.

ذات يوم، بينما خرجنا أنا وهي للتنزه في الخارج، قلت لها:

إذا اكتشف الإنسان أنه ارتكب خطأ، فعليه ألا يستمر فيه.

وقفت أثناء سيرنا، ونظرت إليَّ، ثم قالت:

أنا لم أقترف أي خطأ!

ظل الأمر هكذا حتى كنت في زيارتي الثالثة، أو الرابعة لها، وكنا نجلس معًا في ليلة من ليالي الربيع، حين قلت لها إن لدي شعورًا بأن هناك شيئًا ما يجثم على صدرها. في هذه اللحظة، كنت قد أحسنت انتقاء الكلمات المناسبة، فلو كنت قلت مثلًا: لا يمكنك الاستمرار في تلك الحياة البائسة، أو: كيف سولت لك نفسك الهرب مع ضابط يعلمك ركوب الخيل؟ لأوقفتني عند حدي، ورفضت كل كلامي. بعد هذا اليوم بأسابيع قليلة، اتصلت بي لتخبرني أنها تنوي العودة إلى ليوبليانا، وترغب في الإقامة معي. هي لم تقترف خطأ، بل لم تعد تحتمل الوتيرة التي تسير عليها الأمور. حينئذٍ، جاء دوري أخيرًا لأسعد من قلبي بسماع هذا الخبر.

لكنني الآن هنا، أجلس بجوار نافذتي، لا شيء يسعدني، أنتظر حلول ليلة جديدة كئيبة، أفكر في ما فعلت، ولا أعرف هل هو صواب، أم خطأ. لو لم أقنعها بالرحيل، لربما ظل هذا الشيء جاثمًا على صدرها حتى الآن في ماريبور، لكن أقله ستكون حية ترزق. أعني أنه على الأقل سأعرف أنها لم تزل حية، وبعافية، ومن الممكن أن نتحدث في الهاتف كل حين وآخر. تلك الكلمة تجعل كل عضلة في جسدي ترتعش، مجرد ذكرها: لم تزل حية! بالطبع إنها حية، فلقد خلقت لتحيا، وتستمتع بالحياة. كل ما في الأمر أنها في وضع لا يسمح لها بالتواصل معي. ربما تكون مع ستيفان في مكان ما في صربيا، أو مع ليو في مكان ما بسويسرا. لكنها حين تكون قادرة على التواصل معي، ستفعل.

في نفس ذلك التوقيت، اشترى ليو ضيعة شمال الأراضي المنخفضة من تلال كارنيولا، التي لا تبعد كثيرًا عن ليوبليانا، بإسطبلاتها وحدائقها، والبحيرة التي تسير فيها، ومن حولها تمتد الغابات ليطل عليها القصر، وعلى المروج الخضراء الشاسعة أسفلها حيث ترعى الخيول. حين دعانا إلى زيارة الضيعة، شعرت فيرونيكا بحالة من الانبهار. لم تنبهر فقط بليو الأنيق كعادته، والعطوف

والمُدَلّل والمرحب بها، بل لأنه أيضًا عاملها وكأن شيئًا لم يكن. كأنها اختفت مرة أخرى في رحلة قصيرة إلى أوشاك ثم عادت. وما أبهرها أكثر هو الجو الرائع، حين تصحو في الصباح لتجد كل شيء هادئًا، وتشاهد السحب الضبابية اللطيفة وهي تحيط بالمنزل، وتسقط على المروج. كل شيء هناك جديد عليها، أسعدها منظر الندى على أوراق العشب وهي تسير من خلاله في الحقول، والخيول في الإسطبل، والجزازات تحصد الزرع عند أطراف الغابة في الظهيرة، والطيور تغرد بعد ظهور أول شعاع نور في الفجر.

هل سمعتِ البوم وهي تنعق في قلب الليل؟ هنالك في الغابة.... فوق ضيعة بودجورسكا؟

كنت أرى سعادتها في الصباح على مائدة الإفطار، وأدرك أنها سترتاح للبقاء هناك. وبالفعل، انتقلنا في خلال أسبوع من زيارتها الأولى. تلك هي فيرونيكا، بل هذه هي فيرونيكا. بغض النظر عما أصبحت عليه الآن. حين تقرر شيئًا، لن يقف أحد في طريقها. حين قررت أن تعود لليو، كان السبب أنها فتنت بالضيعة وعالمها الساحر، ولأنها كذلك أنهكت من كثرة الترحال ومن مربعات العساكر السكنية ومن شقة أمها، وضجرت من تجمعات وحفلات ليوبليانا التي فقدت بريقها بالنسبة لفيرونيكا منذ زمن طويل. في النهاية، قررت أنها تريد أن تستقر وتعيش حياة منسجمة مع الطبيعة.

المرء في مثل عمري لا يتوقع أن تغدق عليه الحياة مزيدًا من النعم، بل يكون راضيًا، بغض النظر عن شكل الحياة التي يعيشها. وأنا لم أرغب في أكثر من أن أرى فيرونيكا سعيدة تحيا حياة مسالمة، ذلك هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أرغب في الحياة وأهتم بوجودي فيها. هكذا شعرت حين أقمت معها هناك. ربما استمرت الحياة على هذا الشكل حتى الآن لو لم يحدث ما حدث. لدي ألبومات الصور القديمة التي أحتفظ بها، وأحيانًا أفتحها وأنظر إلى القوارب المتراصة في ريكا، وإلى جوارها يقف بيتر مع فيرونيكا الفتاة الصغيرة، ترتدي فستانًا ملونًا وبشعرها الشرائط الحريرية. كنت أشعر بالسعادة حين نسير معًا على المروج، نلتقط بعض الفطر من الغابة، أو نجلس إلى جوار البحيرة. كلما رأيتها من الشرفة في الضيعة وهي تمتطي الفرس وتعدو به في الحقول، أو حين تشمر عن ساعديها وتعاون العمال وتخبرهم بما تريدهم أن يفعلوه، أشعر بالسعادة والرضا. رأيتها هي وليو يستعيدان حبهما مرة أخرى، بالرغم من أنه قضى الكثير من الوقت في ليوبليانا، لكنه حرص جدًّا على إسعادها. كنا نتفهم أن المصنع والمناجم في صربيا تحتاج المزيد من العمل والتركيز فيه. وحين أتى لقضاء عدة أيام مع فيرونيكا في الضيعة، بدت عليه البهجة، حتى إنه دعاها للصيد معه أحيانًا. لكنها لم تكن تحب الصيد لأنه الشيء الوحيد الذي نغص عليها روعة الحياة في الضيعة. حين يعود ليو مع العمال بالظباء والخنازير البرية بعد صيدها، فإنها تختفي تمامًا من محيط المزرعة الخارجي.

توالى الزائرون على الضيعة من ليوبليانا، كشركائه في العمل، وأصدقاء فيرونيكا، والرسامين والشعراء. وجدت في مكتبتنا نسخة من كل كتاب جديد يصدر في ليوبليانا، ومنها كتب ألمانية كذلك، وبعضها كتب الدراسة الخاصة بفيرونيكا، والكثير من الكتب الجديدة، قامت بطلبها عن طريق البريد.

وكان فيتو، عازف البيانو، ضيفًا مرحبًا به بشدة، يعزف أحيانًا حتى حلول الليل، بينما نستمتع بالاستماع إلى عزفه، ونراقب أصابعه وهي تنزلق بخفة على لوحة العزف. وذلك الشاعر من ليوبليانا، ذات يوم أعطى فيرونيكا نسخة من كتاب له بعنوان: قصائد في حب الجميلة. كتب لها

إهداء يقول فيه: «إلى فيرونيكا، ذات الشعر الجميل! ماذا عسانا فاعلين لو أن الشباب يمر كلحظة عابرة؟!» وضحكت هي حين قرأته. كانت تحب أن تضحك، تمامًا كما يضحك كل الشباب الذين لا يفهمون ما معنى أن يولي الشباب وينقضي بسرعة. حتى أنا في شبابي ظننت أن الشباب هو الخلود، وأنه لا ينتهي. كان ذلك في زمننا أنا وبيتر، حين كنا نسافر عبر مقاطعة إستريا. بعد أيام قليلة من إهداء الشاعر كتابه لفيرونيكا، قرأته، وعندئذٍ فهمت لماذا ضحكت فيرونيكا من قلبها لحظتها. أحب هذا الشاعر الفكاهة، وإلقاء النكات، ولم يكن الإهداء سوى واحدة من نكاته. النكتة عن قصة هربها مع الضابط الذي علمها ركوب الخيل. عرفت ذلك لأن الإهداء هو اقتباس من أحد أبيات قصيدة له في نفس المجموعة بعنوان «لنهرب». نسخت هذه القصيدة بخط يدي على ورقة وضعتها في ألبوم الصور القديمة إلى جوار بعض صور فيرونيكا........

«هيا لنهرب بعيدًا،

ونلقي بأنفسنا في نهر السعادة الجارف

لا ماضي نندم عليه اليوم

سنغني أغنياتنا على طريقتنا

ونحن نسير في طريقنا

ماذا عسانا فاعلين

لو أن الشباب يمر كلحظة عابرة؟!».

لم تكن تلك الضحكة تهكمًا على انقضاء الشباب في لحظة عابرة، بل لأن الشاعر عرف سرها، هذا لو أنه سر. ربما اعتبرناه نحن فقط كذلك لأننا لم نعاود الحديث عنه أبدًا.

وعاد للحياة رونقها، وكان ذلك جميلًا. ضحكت فيرونيكا من جديد، وأنا وبيتر كنا سعداء، ثم واجهتني بعض المشاكل الصحية وكنت أقضي أوقاتي غالبًا في غرفتي. كنت أنظر في ألبوم الصور القديمة، وأتذكر الأيام التي قضيتها مع بيتر في ريكا.

إنه شيء جميل أن يلتئم شملنا جميعًا مرة أخرى!

قال بيتر:

ألم أقل لكِ إن المياه ستعود إلى مجاريها؟

لا، ليس هذا ما قلته. لقد قلت إن العالم به ما هو أسوأ بكثير من أن تضطر ابنتنا لتربية الدجاج. وإن آباءنا ربوا الدجاج والخنازير في الشتاء، ليذبحوهم في الشتاء ويصنعون من لحومهم النقانق الدموية التي لم أحبها، وكنت أمتعض لمجرد التفكير في كيفية صناعتها حين يجمعون دماء الحيوانات المذبوحة الساخنة في أوانٍ ليخلطوها مع خليط خاص.

لكن بيتر أحب تلك النقانق، وذكرته بأيام إجازات المناسبات في طفولته. وظل يطلب من أقاربه في قريته إرسالها إلينا في ريبكا كل شتاء. أحاديثي مع بيتر في تلك الليالي بقيت الشيء الوحيد الذي يحملني على النوم. وفي الصباح، كنت أمتع ناظري بلون خضار الحشائش والمروج من شرفتي

وأنا أراقب الفلاحين يحملون القش وينادون بعضهم بعضًا.

لم أعرف من صاحب فكرة حفل الزفاف التي جددوا بها رابطة زواجهما، ولكن الأهم أني شعرت بهما زوجًا وزوجة من جديد. ربما الشاعر المهرج هو صاحب الفكرة. وضعنا سلسلة تقيدهما إلى بعضهما حرفيًّا. من الممكن أيضًا أن تكون الحفلة بتفاصيلها فكرة فيرونيكا. ولكن من المستحيل أن يكون ليو من اقترح ذلك الاحتفال، فهو أكثر جدية من أن يفكر بهذه الطريقة. بدا الأمر أشبه باحتفال زواج وثني ساخر قمنا به بشكل فكاهي مثير للضحك ولكن في الوقت نفسه بنية مخلصة. ربطناهما بسلسلة حديدية في حديقة الضيعة حتى لا ينفصلا أبدًا مرة أخرى. ألقى شاعرنا بعض الأبيات الوقورة بلغة مركبة لم تَلِق أبدًا بجو المرح السائد في الحفل، وإنما تليق باحتفال حقيقي في وجود قس يقرأ لهما النذور؛ «حتى يفرقكما الموت.....»، لكن من رآهما في هذا اليوم ظن أنهما سيخلدان في السعادة، ومهما حدث سيظلان معًا. لكن الموت في النهاية يفرق الجميع، كما فرق أباها عنها وعني، وكما سيفرقني عن كل من أعرف......

« ذات يوم، ستفتح القبور،

هم الآن في انتظارنا،

لنرتمي في أحضانها الرطبة المظلمة

والآلهة حادة الطباع

تزدري آمالنا، و....».

والآن، يقترب مساء جديد ثقيل، أقلب فيه الصور القديمة فأجد في وسطها تلك الورقة التي نسختُ عليها القصيدة، فألقيها على بيتر، وأحكي له أن شاعرنا الذي قام بمراسم الاحتفال الساخر لم يقل لكل من ليو وفيرونيكا «إلى أن يفرقكما الموت» اعتباطًا. ماذا لو أن القبور فتحت بالفعل وفرقهما الموت؟ تخنقني تلك الأفكار الفظيعة، وتستشري في ظلام الليل حتى تصير وحشًا رهيبًا يأكل الوقت ببطء. أحاول التخلص منها، لكن الفراغ يملأ رأسي فجأة، وأسقط في هوة تلك الأفكار المظلمة السحيقة، ومن حولي يتردد صدى الأفكار من كل اتجاه.

لقد فرقنا الموت يا بيتر، موتك، وأتمناه لنفسي الآن أكثر من أي لحظة سابقة.

أتمنى أن يفرق الموت بيني وبين.... من؟! فيرونيكا، أم القلائل الذين نادرًا ما يأتون لزيارتي هنا في ضواحي ليوبليانا؟ أم يفرقني عن هذه الشقة، والجيران الذين يسكنون معي في نفس البناية؟ هؤلاء الذين يقفون في صفهم الصباحي أمام دورة المياه في الممر؟

لم يستطع رجال البريد في بوسيليا توصيل الرسائل الواردة إلى فيرونيكا لأن العنوان على الظرف باللغة السيريلية التي لم يفهموها. وحين يستطيعون توصيلها في النهاية، استلمتها فيرونيكا بيد مرتعشة، ولم تفتحها، فقط تضعها على أحد الرفوف في غرفة المعيشة، إلى أن تأتي يوجي لتنظف المكان. فهمت أنها لا تريد أن تقرأ رسائل ستيفان، لأن مبدأها هو أنها: إذا قررت أن تترك تلك الحياة لفترة، فعليها أن تمتنع عن أي شيء له علاقة بها. ولأن الأمر لم يكن سهلًا عليها، لأنها لم تزل تحبه. ربما خافت من قراءة الرسالة حتى لا تعود إلى مخيلتها كل تفاصيل تلك الحياة التي هجرتها وتخلت عنها، فتجد نفسها واقفة من جديد على رصيف إحدى المحطات في انتظار القطار.

صحوت منذ ساعة، وأضأتُ مصباح الغرفة، فقد قفزت إلى مخيلتي صورة الرجل السمين الذي رأيته ينظر لي من وسط تجمعات المسيرة هذا الصباح. نعم، تذكرته. لقد رأيته من قبل والآن أعرفه بكل تأكيد. قمت من الفراش، وأخرجت ألبوم الصور القديمة من الدولاب، وقلبت فيه صفحات قليلة إلى أن وجدت ما أبحث عنه. صورة يقف فيها عمال الضيعة في الخارج أمام البوابة الرئيسة، مجتمعين مع بعض العمال الآخرين الجدد الذين وظفناهم من بوسليج، كما نفعل عادة في الأوقات التي نحتاج فيها إلى عمالة إضافية مؤقتة. وضعت نظاراتي، ودققت النظر،لأراه وسط الواقفين في الصورة: شاب ممتلئ الجثة. نعم، بالضبط إنه هو نفسه من نظر إليَّ من أسفل، وتعرف عليَّ. في الصورة، يستند بكتفه إلى سور الضيعة، وإلى جواره يوجي، وامرأة أخرى من القرية لا أعرفها. يبتسم ويميل برأسه ناظرًا تجاه ليو وفيرونيكا حيث يقفان في المنتصف. ترتدي فيرونيكا قميصًا رجاليًّا وبنطال الفروسية، مشمرة عن ساعديها، وتبتسم، «ما عسانا فاعلين لو أن الشباب يمر كلحظة عابرة»، تنظر باتجاه المصور، وينظر الجميع محاولًا أن يضبط هيئته في الصورة ليظهر جميلًا. إلا ليو، الوحيد الذي نظر في الأفق البعيد باتجاه شيء ما، ناحية الحقول الهابطة إلى أسفل التلال. نعم، تذكرت اسمه في اللحظة التالية، إيرانيك، نعم، إيرانيك من بوسيليا. اعتاد أن يأتي غالبًا إلى الضيعة ليجز العشب، ويجمع القش، وينظف النوافذ، ويتسلق إلى السطح، وأحيانًا أخرى يعتني بالخيول. فجأة، تداعت كل الأحداث على رأسي، ورأيتها كما لو أنني أعيشها في اللحظة الآنية، بمجرد أن نظرت في تلك الصورة. وسمعت رجع صوت محادثة تدور على مسافة مني، صوت يأتي من أعماق ذاكرتي، ورأيت نفسي أسير بعد الفطور إلى الخارج، وأراه يقف إلى جوار فيرونيكا، ويتحدثان معًا.

ما اسم خطيبتك، يا إيرانيك؟

هز إيرانيك جسده الممتلئ بغرابة، ونظر إلى حذائه دون أن يرفع عينيه، وهو يجيب فيرونيكا:

سميت في الكنيسة يوجيتسا.

هذا اسم مدبرة المنزل التي تعمل لدينا. ونحن ندعوها يوجي. بالتأكيد تعرفها.

أعرفها، إنها تحضر لنا بعض الطعام أثناء عملنا في الحديقة.

إذًا، عليك الآن أن تدعو حبيبتك يوجي أيضًا. هي يوجي، أليس كذلك؟

إن أسرتها تدعوها (بيبتسا).

إيرانيك! لقد سمعت أنكما ستتزوجان قريبًا.

قالت له فيرونيكا بحماسة، فنظر إلى حيث أقف في الممر، وأجاب:

هذا ما يقولونه!

ضحكت فيرونيكا بصوت مرتفع، وكررت ما قاله:

هذا ما يقولونه؟! وأنتَ... ماذا تقول؟

ازداد خجله، وصمت لفترة، فرأيتُ أنه يحاول فقط أن يكون مهذبًا:

إذًا، أحضرها في مرة إلى الضيعة لأقابلها. سأمنحها هدية ترتديها في حفل زفافها.

التفتت فيرونيكا، وسارت باتجاه البوابة الكبيرة وهي تبتسم، لتخرج من الحديقة إلى الحقول. أما العامل، فظل واقفًا في مكانه غير مرتاح، ثم بدأ يتململ كمن لا يعرف إلى أين يذهب، أو ما العمل الذي سيقوم به. هذا هو الرجل، نعم! لن أخطئه، إيرانيك هو من وقف أسفل نافذتي هذا الصباح. واحد من فلاحين بوسيليا، خطط للزواج من فتاة من قريته اسمها يوجيتسا. لست أعلم إذا ما تزوجها بالفعل، ولكني أذكر اليوم الذي توقف فيه عن المجيء إلى الضيعة، والشائعات التي تلت اختفاءه في الغابة ليلتحق بالبارتيزان. اعتاد الناس على التحرك بحرية، ولكن في تلك الأيام صار من المألوف أن يختفوا فجأة. كما حدث لفيرونيكا وليو. بداخلي هاجس أن حضوره يُنبئ بقرب حدوث شيء ما. لكنه تعرف عليّ، وأنا واثقة من ذلك. فلماذا رحل؟

بعد اختفائه، بدأت أمور غريبة تحدث في محيط الضيعة، وازدادت أعداد العمال والزائرين الذين ترددوا على الضيعة. حتى إنني لم أعد أميز الوجوه، وأي منها أتى في سيارات، وأيها أتى سيرًا على الأقدام. بعض الزائرين يجلسون معنا على طاولة الطعام، ويبقون حتى الليل، وبينما يتباطؤون في الرحيل، أحييهم وأتمنى لهم ليلة سعيدة وأصعد إلى غرفتي، لكنني أظل أسمع أصوات بعضهم في الدور الأرضي حتى وقت متأخر من الليل. منذ بدأت الحرب، بدأ أصحاب الزي العسكري يتوافدون على الضيعة. الآن اختفي كل شيء، وكل هذا الزحام اختفى. الليلة أنا وحيدة هنا، لكن هناك وجه واحد أراه، حتى بعد أن أطفأت المصباح وحاولت النوم، لم أزل أراه. وبعد أن استرجعتُ الحوار القصير الذي دار بينه وبين فيرونيكا، ولاحظت كيف أنه راقبها وهي تسير بعيدًا، لم أعد قادرة على إبعاد صورته عن مخيلتي وهو يحدق فيّ بتعابير وجهه الغامضة، والهالات السوداء البارزة تحت عينيه، خاصة أنه تعرف عليّ. فكرت أن أتصل به، وأسأله أين ذهبت فيرونيكا. فربما يعرف. فهو الشخص الوحيد من بودجورسكا الذي رأيته بعد أن رحلت وأقمت هنا. الحقيقة أنني رأيته، ولم أقابله، بل نظرت إليه للحظة. في مخيلتي، أتصور نفسي أجري على السلالم، وأن ساقيّ قادرتان على حملي، كأنني استعدت شبابي من جديد. ثم استطعت الوصول إلى تلك المسيرة، ومررت من أمام الفرقة الموسيقية، ورفعت يدي لآمرهم بالتوقف عن العزف، ففعلوا. وفي وسط الصمت المحير والمفاجئ، أذهب إلى إيرانيك الذي سينظر إلى متحيرًا، ثم أقول له: «لن أسألك ما إذا كنت قد تزوجت من يوجيتسا، ولكن سأسألك: أين فيرونيكا».

ولكن، كيف يتأتى له أن يعرف أين هي؟

سألني بيتر مقاطعًا أفكاري، فأجبته:

لقد كان في بودجورسكا في الوقت الذي أخذوها فيه. لا بدّ أنه يعرف شيئًا عما جرى.

اهدئي! أنت في حالة أرق!

ليس الأرق، ولكن أفكاري تتداعى بعضها في إثر بعض.

ستُحل الألغاز من تلقاء نفسها.

كيف؟ كيف ستحل نفسها بنفسها؟

نظر إليّ من صورته لوقت طويل وهو يفكر في إجابة. ثم قال بكل هدوء:

بطريقة ما، فقط سيحدث هذا. وطالما حدث.

قال لي فيليب: «ستجتازين كل هذا. إلى أين يختفي كل شيء»، ولكني لا أعرف ما الذي سيختفي. بالنسبة لي كل شيء قد اختفى بالفعل. اختفى فجأة.

حلمت هذه الليلة أنني عدت شابة، تملؤني الحياة، وكنت بالكاد في عامي العشرين. كنت متعبة من التنزه طوال اليوم، فدخلنا أنا وبيتر إلى حانة في إستيريا بها بعض العازفين المحليين يعزفون ويغنون. كانت الأغنية عن فتاة بشعر أسود، لكن الجميع دعوها «لا بيوندا» ولم تعرف لماذا يدعونها بذلك. شربنا معًا بعض الخمر، وانتشينا من كل شيء، الإرهاق والخمر والأغنية. كل شيء بدا غاية في الجمال، حتى أنا لأنني كنت شابة.

لم يتبق لي من كل شيء سوى الصور في ألبوماتي، أرى فيها كل ما مر في حياتي. أرى صوري بشعري الأشقر، وفستاني الأحمر على الطريق في ريكا. أرى بيتر زوجي، والفيلا التي عشنا فيها معًا. والمركب الذي اشتراه حين وقفنا فوق ظهره مستندين إلى سوره الخارجي، بينما يحمل بيتر فيرونيكا الصغيرة بين ذراعيه، ويشير لها إلى شيء ما على مسافة بعيدة. أرى صورنا على الشاطئ، وفي المدينة حيث أقمنا. ربما يشير إلى بيتنا الجديد الذي بني لتوه في تلك الأيام، وله حديقة صغيرة مليئة بأحواض الزهور، والممرات المعبدة بالحصى. ها هي صورة أخرى: أنا وبيتر في مركب صيد، أثناء رحلة إستيريا، بعد أن اتفقنا على الزواج. مكتوب على ظهر الصورة: «المركب في الصورة تدعى بتانا». وفي أوستاريا نفسها، حانة صغيرة يسمونها بوتيجا، تناولنا فيها العشاء، وسمعت فيها لأول مرة أغنية ما زلت أذكر كلماتها: «توتتي مي كيامونو بيوندا، ما بيوندا إيو نو سونو».... «الجميع يدعونني شقراء، لكنني لستُ شقراء».

ذهب كل شيء منذ زمن طويل، أولًا بيتر، يموت فجأة دون إنذار، ثم نترك ريكا، ويضيع منا البيت الذي عشنا فيه هناك. لم يكن أمامي سوى أن آتي إلى ليوبليانا مع صغيرتي فيرونكا. ثم تركتني وتزوجت ليو وانتقلت إلى بيته. تركتني مع صور حفل زواجها ورحلت. ثم تركتني مرة أخرى وعاشت لاجئة، كما هي في الصورة التي تجمعها بالضابط ستيفان وهو يلف ذراعه حول كتفها أمام واجهة مقهى خَرِب في فرانيا، مكتوب عليها (كافانا أوروبا). هناك أيضًا صور لها في بودجورسكا، تبتسم مع ضيوفها في غرفة الطعام عند احتفال رأس السنة، في وجود فنانين من ليوبليانا. ومع الأصدقاء حول البحيرة، وفي الساحة ليو وفيرونيكا على ظهري فرسيهما، أو ونحن الثلاثة في السيارة، أو هما معًا بعد لم شملهما، سعداء من جديد، الزوجان الشابان، في غرفة الرسم بجوار البيانو. وهأنذا في فستان أحمر أقف في الحقول ومن حولي الزهور البرية، وفي يدي حزمة منها قطفت لتوها، ذلك حينما كنت قادرة على السير، أما الآن فقد اختفت الزهور، وضاعت صحتي. واختفى الفستان الأحمر، وغيره من الملابس القديمة التي تبرعت بها لدار المساكين في ليوبليانا. وذهب شعري الأشقر. كنت شقراء مثل فيرونيكا.

أخبرتها وهي طفلة كيف لعبنا لعبة (لا بيوندا) أنا وأبوها قبل ولادتها، وصفقت بحماسة وإعجاب وأنا أحكي لها كيف رقصت أنا وبيتر على حلبة الرقص بعد أن طلبنا عزف نفس الأغنية. اسم البوتيجا الذي رقصنا فيه هو (كافيه أوروبا) وأقسم إنه لا يشبه ذلك المقهى في فرانيا، إلا في الاسم إلى حد ما، حيث التقطت فيرونيكا صورة لها مع هذا الملازم، ربما نقيب حينئذ. أحبت القصة وأرادت أن تسمعها مرات ومرات، حتى بعد أن انتقلنا للعيش في ليوبليانا، حتى كبرت وصارت

على وشك أن تكون شابة ناضجة. كنت أحكيها لها، وأغني أيضًا. وفي الضيعة، أثناء احتفال رأس السنة الأخير لنا هناك، بعد أن مر آخر عام عشناه في سلام قبل الحرب، نادت عليّ وطلبت مني أن أحكي حكاية لابيوندا أمام الضيوف جميعًا. شعرت بالإحراج، خاصة حين أصر ليو وأصدقاؤه على ذلك.

هيا، أرجوكِ، احكِ لنا! ما سر بيوندا؟

سألني الشاعر، فأجبته:

سأحكي لكم، لكنني لن أغني. إنها قصة عادية، لا شيء مثير جدًّا. أقام بيتر في رييكا في هذه الأثناء، وراجت أعماله وقتها، واشترى لتوه سفينة شحن، وأرساها على ميناء تريست.

قاطعتني فيرونيكا:

انسي الأعمال، لا أحد يهتم بذلك الجزء.

نعم، ليس هناك ما هو شديد الإثارة، كل ما في الأمر أني جئت إلى رييكا في زيارة، وذات ليلة، كنا جالسَين في كافيه أوروبا ولم نكن قد تزوجنا بعد. في أحد جوانب المقهى، عزفت فرقة موسيقية صغيرة. وفجأة، وقف بيتر واتجه إليهم ليطلب طلب خاص. ثم رفع قائد الفرقة الكمان على كتفه، وأعلن للحضور: الآن سنعزف أغنية للآنسة ذات الشعر الجميل القادمة من ليوبليانا، ثم وجه قوس الكمان باتجاهي. التفت الجميع ناحيتي ونظروا لي، فشعرت بإحراج شديد. وتحت الأضواء الساطعة التي توجهت ناحيتي، رأى الجميع كيف تلون وجهي بحمرة الخجل. عاد بيتر بخطوات وئيدة إلى الطاولة، وطلبني إلى الرقص معه. ورقصنا. هذا كل شيء.

قاطعتني فيرونيكا مرة أخرى:

لا، ليس هذا كل شيء. هذه هي الأغنية التي سمعتِها في تلك الحانة، في البوتيجا، أتذكرينها يا أمي!

ثم تحدثَتْ إلى الحضور:

البوتيجا معناها متجر، ولكن في إستيريا تعني أيضًا الحانة. الأغنية جعلتهما يذوبان معًا في الرقص، وتُغنى هكذا: «توتتي مي كيامونو بيوندا، ما بيوندا إيو نو سونو».... وتعني: «الجميع يدعونني شقراء، لكنني لستُ شقراء». لكن أمي كانت بالفعل شقراء، ولها شعر أشقر خصلاته من الذهب البراق، وظلت ترقص طوال الليل وتطاير شعرها الأشقر في الهواء كلما دارت على حلبة الرقص بين ذراعي حبيبها بيتر، فقال لها....

ونظرت إليَّ بينما ظلت تحدث الحضور:

ماذا قال لكِ يا أمي؟ قال لكِ: «إنها لحظتنا المثالية للزواج»، وقلتِ له: «نعم أكيد هي اللحظة المثالية».

صمتت فيرونيكا للحظات، ولم تكن قد وصلت للنقطة التي يمكن أن تثير الحضور في القصة، ثم تابعت:

اللحظة المثالية! نعم، لأن أمي كانت حاملًا. كنتُ أنا معهما، على بداية الطريق!

ضحكت فيرونيكا، بينما شعرت أنا بالخجل، وبدأ الحضور في التصفيق والضحك، وذكرني ذلك بتصفيق الحضور في كافيه أوروبا حين انتهت الأغنية وانتهينا من رقصتنا. ليلة جميلة! قال الشاعر إنه يعرف الأغنية، وإنها كتبت من أجل فتاة من مدينة بارينزا، تسمى بوريتش، اعتادت أن تقول إن الناس يدعونها شقراء، ولكنها ليست شقراء. وتقول باقي كلمات الأغنية: بورتو إيكابيللي نيري، سنشيري إيلامور، بيركيه نون مامِّي بيو» ومعناها: «شعري أسود، ومخلصة في الحب، فلِم لم تعد تحبني؟». ثم سمعنا صوتًا تتابعيًّا يعزف على لوحة أصابع البيانو، وبالفعل بدأت أغني، ومعي فيرونيكا، والشاعر. كنت أغني، والآخرون يغنون اللازمة التي تعلموها بسرعة، «بيركيه نون مامِّي بيو»- لِم لم تعد تحبني؟ وأنا أغني: «لا ميا موروزا فيتشا، جيا ميسّو سو بوتِّيجا». في البوتيجا –هي حانة وفي الوقت نفسه متجر- يبيعون كل شيء؛ حتى العصائد والأسماك المجففة. كما تقول الأغنية. وفي هذه الليلة فقط عرفت كلمات الأغنية بأبياتها الاثني عشر. تلك الأغنية التي تعزف على لحن فالس، وبنهايتها يتحول اللحن إلى لحنٍ حيوي يشبه ألحان جبال الألب، ورغم أن اللازمة تقول «لِم لم تعد تحبني»، إلا أن بيتر حين اختارها للرقص لم يكن يقصد أن يسألني هذا السؤال، فقد عرف أنني أحبه، وأنني كنت حاملًا في فيرونيكا، طفلته. بل اختارها لأننا سمعناها في رحلتنا بإستيريا، وأحببناها كثيرًا حتى ظللنا نغنيها طوال الطريق ونحن عائدان بالقطار. أحببنا القصة اللطيفة عن البنت ذات الشعر الأسود التي يدعونها شقراء، بائعة العصيدة والسمك الجاف، المخلصة في الحب، وضحكنا كثيرًا ونحن نغنيها.

هذه الصورة، أُخذت للمجموعة التي غنت معي الأغنية في حفل رأس السنة. تلك هي المرة الأخيرة التي امتلأ فيها البيت بالضيوف للاحتفال. اختفى جميع من في الصورة من الغرفة، ومن حياتنا. كل الغرف أصبحت خالية، حتى الزحام والضوضاء أمام بوابات القصر والضيعة انفض واختفى الجميع، ما عدا يوجي، هي الوحيدة التي تبقت من كل العاملين. طالت الحشائش في الحديقة، والأشجار لم تعد تجد من يقلمها، والأرض لم يعد يطأها أحد. فقط بقيت يوجي التي أحبتها فيرونيكا كثيرًا، وقالت مرارًا إنها مديرة الضيعة كلها، والتي تعرف جيدًا كيف تعتني بأمور الطعام والحديقة وحتى الحقول. ثم جلسنا معًا ننظر في الصور، وننتظر، ونغني لابيوندا -فقد حفظت يوجي كلمات الأغنية- أحيانًا في غرفتي. بعد فترة، امتنعت تمامًا عن الذهاب إلى غرفة الطعام، أو الخروج إلى الحديقة أو الحقول، وفي المجمل لم أرغب في الذهاب إلى أي مكان لأن ساقيّ بدأتا تضعفان وتؤلماني. كل أشياء فيرونيكا وليو في كل ركن بالبيت سببت لي حزنًا شديدًا بمجرد النظر إليها، ولذلك تجنبتها، حتى التمساح المحنط المحشو لم أتحمل رؤيته. ذكرني بها. كنت أفضل أن أقضي الوقت في الحديث مع بيتر ويوجي.

لم نكن نعرف في آخر احتفال برأس السنة الجديدة أن هذه السنة ستأتي لنا بالحرب، وأن الحرب يمكن أن تصل إلى بودجورسكا. جلست أنتظر رجوعها منذ رحيلها ذات ليلة شتوية في نفس المكان، وأقول لنفسي إن يومًا ما سيعود بها ليو في سيارته وتلوح لي فيرونيكا حين تراني أجلس في الشرفة في انتظارهما. هي خاطرة لطيفة من شأنها أن تمنح قلبي بعض الراحة، وقد اختلقتها برغم أني أعلم أنهما لن يعودا في سيارة ليو. أذكر أني في يوم نجحت في النزول إلى الدور الأرضي مع يوجي بعد أن ساعدتني، وتوجهت إلى ساحة انتظار السيارات. كانت السيارة في مكانها، لم تتحرك. معطفها الذي ترتديه إذا خرجت من البيت موجود أيضًا في المقعد الخلفي، وإلى جواره مظلة المطر الخاصة بها. منذ تلك اللحظة وأنا أعلم أنهما لن يعودا في السيارة، سيأتي بهما

أحد ما في سيارة ما. ربما أحد من هؤلاء الأشخاص الذين ظهروا مؤخرًا واعتادوا أن يأتوا إلى البيت ليأكلوا ويشربوا الخمر، وأحيانًا يقضون الليلة حتى الصباح. بحلول الربيع، أتوا إلى القصر دون استئذان، وسألت يوجي:

من هؤلاء الزائرين؟ ربما هم أصدقاء ليو؟

هم من ليوبليانا، ويقولون إنهم يرغبون في استئجار الضيعة لفترة.

ما معنى أن يؤجروها؟ كيف؟

فقط سيؤجرونها.

من سيوقع لهم عقد الإيجار بما أن ليو غير موجود؟

هم لا يحتاجون إلى توقيع أي شيء. فقط سيستأجرونه.

لحظتها لم أفهم الأمر، لكنني فهمته الآن. فهم الحكومة الجديدة. قالت لي يوجي هامسة بعد أن تلفتت حولها وتأكدت أن لا أحد يستمع:

هم كذلك سيأخذون من القصر بعض الأشياء.

بعد أيام قلائل، شاهدتهم يحملون اللوحات الضخمة المعلقة في غرفة الطعام على شاحنة، وكذلك بعض الصناديق ورؤوس الغزلان المحنطة المعلقة للزينة. لاحظت أن أحدهم حمل تحت إبطه صناديق مملوءة بأدوات المائدة. فناديت على يوجي، وسألتها:

إلى أين يأخذون تلك الأشياء؟

إنهم يستعيرون أشياء لاستخدامها في مكاتبهم في ليوبليانا.

قلت لنفسي: «لا بأس، ليستعيروا ما يحتاجون لاستعارته، فسوف يستعيد ليو كل هذا حين يعود. ولكن فيم حاجتهم إلى رؤس حيوانات الصيد، الغزلان والخنازير المحنطة؟ على كلٍّ، أنا لم أعد أهتم، فليأخذوا ما يريدون». المهم عندي أن تعود فيرونيكا، سواء مع ليو أو ستيفان، أو حتى وحدها. أن أعانقها وأسألها: أين كنتِ هذه المرة؟ لماذا اختفيتِ دون إخباري عن وجهتك؟ مثل اليوم الذي رحلتِ فيه إلى أوشاك دون أن تخبري أحدًا، وأيضًا حين ذهبتِ إلى صربيا مع ستيفان. كنت أجلس في الشرفة طوال النهار، وفي الليل أبكي. الآن، لم أعد أبكي، فقط أستيقظ كل ليلة وأحدق في سقف الغرفة، وأنتظر أن يأتي الصباح لأعود أتفرس الوجوه في الشوارع. بعد أن أخذوا اللوحات والحيوانات المحنطة بأيام، سمعت محادثة بين يوجي ورجل عسكري في ساحة البيت، قال لها بصوت خشن مرتفع:

إلى متى تنوي السيدة العجوز أن تبقى في القصر؟

هم يبحثون لها عن مكان تعيش فيه.

خبط حذاءه طويل الرقبة في جانب أحد جدران القصر لينفض عنه الطين، وقال لها:

يجب أن يأخذها أحد أقاربها.

السيدة عجوز وصحتها ليست جيدة.

صرخ فيها:

وهذا أدعى لأن يأخذوها من هنا. هل تظنين أنني سأعتني بها؟ تلك عادات هؤلاء الناس، لا يرعون عجائزهم، ومن الممكن أن يرموهم في عرض الشارع.

تعجبتُ مما قال! فأنا لا أعيش في الشارع، بل عشت هنا في بيت زوج ابنتي ستة أعوام. بعدها جاء فيليب في مايو، وقال لي إنه وجد شقة في موست. ساعدتني يوجي في جمع أغراضي في حقيبتين، وأخذني رجل في زي عسكري في سيارته ليوصلني إلى محطة قطار بوسليجي. قابلني فيليب واستقل القطار معي إلى ليوبليانا. ودعتني يوجي في المحطة، ولوحت لي من بعيد بعد أن أعلن سائق القطار عن البدء في تحريكه، ورأيتها تبكي. وأردت أن أطلب منها ألا تبكي، وأؤكد لها أنني سأعود قريبًا، ربما مع فيرونيكا وليو.

لا أعرف أين يوجي الآن، ولا أعرف أين فيرونيكا كذلك. يأتي فيليب فقط لزيارتي من وقت لآخر، وبالأمس أكد لي أنه سيرسل رسالة إلى ميونيخ، وأنه يجب علينا أن نتحلى بالصبر إلى أن يجد جديد. أوشك الظلام أن ينقشع الآن، وضوء النهار يبزغ من قلب السماء، وينتشر ببطء خارج نافذتي. أسمع صوت السكان المبكرين يتوافدون إلى الممر المؤدي لدورة المياه. شخص ما يصب الماء في دلو. سأبقى في الفراش أتحدث إلى بيتر لبعض الوقت عن رقصتنا في ريكا. هو دائمًا شخص رصين ومتزن، لكنه في تلك الليلة صار جريئًا جدًّا. بعد أن أنتهي من الحديث معه سآخذ مقعدي وأتوجه إلى النافذة، لأراقب السائرين في الشارع، فربما يظهر إيرانيك من بوسيليا مرة أخرى، فأنادي عليه وأسأله ما إذا عرف شيئًا عن مكان فيرونيكا. وإذا لم يعرف، ربما يكون فيليب قد جاء بخبر من هورست الطبيب الألماني. سأنتظر مجيء فيليب، ويلوح لي من على مسافة على الطريق بالرسالة التي وصلته من ألمانيا. ربما تصله هذا الصباح.

(٣)

اليوم حين عدتُ إلى البيت بعد أن انتهيت من جولة سيري الصباحية في حديقة إيتبولد بارك، هذا إذا ما سميتُ المشي متريثًا ومتحسسًا طريقي بعصا –تجاوزًا- سيرًا. حين وصلت إلى صندوق البريد، وجدت رسالة غريبة أعادت إليّ ذكريات الزمن الذي قضيت فيه فترة خدمتي العسكرية في ريف سلوفينيا الجبلي. الرسالة من شخص لم أعرفه إطلاقًا يدعى فرانتس جوريسيك، يسألني لو صادف أن كان لدي أي معلومات عن زوجين فقدا أثناء الحرب، واسمهما فيرونيكا وليو جارنيك. في البداية، ضايقني السؤال بشدة، فأي معلومات تلك التي يمكن أن تكون لدي لأقدمها؟ لقد مر عامان منذ أن رأيتهما للمرة الأخيرة. كيف أخبر إذًا شخصًا ما عن أسباب اختفائهما وإلي أين كانت وجهتهما؟

حين عدت إلى البيت، وجدت زوجتي قد ذهبت إلى عملها، أما ابني، فالله وحده يعلم إلى أين ذهب، أما أنا -الرجل الأشيب الذي يقضى النهار وحده في شقته دون عمل مفيد، سوى شراء الخبز والحليب في الصباح الباكر، ويذهب للسير في الحديقة ويعود مارًّا بشارع برونر، ويراقب المواطنين وهم يعيدون بناء بيوتهم المتهدمة- فلا عمل لدي غير إعداد العشاء بنهاية النهار.

بالطبع، صباح هذا اليوم اختلف عن غيره بوصول تلك الرسالة الغريبة التي ما إن أمسكتها، اضطرب قلبي واختلطت مشاعري. حاولت أن أتخطى تلك الأحاسيس، فقد علمتنا الحرب القاسية التي عشناها أن نتجنب إثارة الذكريات، حتى الجميلة منها لأن هناك دائمًا سلسلة من الأحداث المريعة أتت في أعقاب كل الأحداث الجميلة. لذا، من الأفضل ألا نفكر في أي شيء مضى، رائع أو مريع، مثير للسعادة أو للحزن. عن نفسي، أكتفي بجولة سير قصيرة، وقراءة الجرائد الصباحية، وإعداد العشاء، هذا يكفي وأكثر. أحب مراقبة السلاسل البشرية الطويلة من الشباب –وأغلبهم نساء- التي تتراص من بيت لبيت، يحملون قوالب الطوب ويسلمونها من يد إلى يد للبنائين الذين يقفون في وسط الخراب، ليعيدوا بناء البيوت وفي الوقت نفسه يستعيدون الحياة لتستمر. فما حدث حدث، وما دفنته القنابل والقذائف دُفن وانتهى الأمر. فقد توقفت القنابل عن السقوط من سماء المدينة قبل أشهر قليلة، ورغم ذلك فقد صرنا نعتبر ما حدث قبل تلك الأشهر القليلة مجرد ماض، بما فيه نحن البؤساء الذين قدر لهم أن يشاركوا في تلك الحرب البائسة. أنا أعتبر نفسي ماضيًا من الآن. فقد امتنعت نائيًا عن تذكر أي شيء، ووضعت بيني وبين ذكرياتي حجابًا كثيفًا من النسيان. غطى الشيب شعري بأكمله الآن، بعد أن خلا تمامًا من شعرة بيضاء واحدة قبل خمس سنوات. حين أنظر إلى المرآة، أعرف أن الكفة الأخرى من ميزان الحياة قد بدأت تثقل وترجح، تلك الكفة التي تحمل جثث رفقائي الموتى، ومنهم من سقطوا في مستنقعات أوكرانيا، أو في ممرات الغابات الموحلة في سلوفينيا، بعد أن انفجر فيهم كمين ملغم نصبه الموالون لتمزق المتفجرات والرصاصات دروعهم ووجوههم وتحول أجسادهم إلى أشلاء متناثرة، أو في سهول لومباردي بعد أن تقهقر جيشنا باتجاه الألب في عام 1945. وقتئذٍ، ضرب الموت ضرباته المفاجئة القاسية فجأة، ليلتهم ضحاياه، وما إن ينتهي من وجبته، يذهب للبحث عن غيرها في مكان آخر. لكنني لم أكن أشعر بالموت وقتها مثلما أشعر به الآن. لقد صرت أشعر به قريبًا جدًّا، لدرجة أنني أحس به داخلي. داخل هذه الجسد الأعرج، الذي يسير غير متزن في أنحاء شقته، ويخرج للسير في الصباح ليسمع الطيور تغني في الحديقة، ثم يتجه في طريقه إلى البيت ليجد هوام أغسطس قد عادت للحوم

والأرّ، ويمر بأصحاب الأيادي المنهكة التعبة من حمل قوالب الطوب والأعمدة الخرسانية، وإعادة الأبواب والنوافذ إلى أماكنها، ويسمعهم يضحكون ويصيحون صيحات التشجيع. ورغم أن الحياة تتنفس من جديد في كل صوب شهد الموت، إلا أن الموت احتلني تمامًا ولا أستطيع طرده من داخلي. فقد رأيت الكثير من الموتى، لدرجة تجعلني غير قادر حتى على استقبال الصيف بصدر رحب وسعادة كما تعودت. سيطر الموت على تفكيري، ومضغ خلايا عقلي كقارض نهم، ولن يفيدني تجنب إثارة ذكريات الحرب، أو سنوات خدمتي الأخيرة في قوات الفيرماخت3، أو أي شيء على الإطلاق. كلما صحوت في الليل، وتثاقلت أنفاسي، وزحفت بقدمي في طريقي إلى دورة المياه، ثم عدت إلى فراشي، عرفت أن ما أحياه الآن هو بداية نهاية الرحلة. لم أتعرف الموت في أقرب لحظاته مني في غمار المعارك، لكنني أصبحت أراه في كل ركن، وكل تفصيلة. أراه في أوراق الأشجار الجافة الساقطة، وفي عيون كلب عجوز يسير في إثر سيده.

لكن فيرونيكا -تلك التي سُئِلتُ عنها في الرسالة- رأته جيدًا. رأته في عيني ضفدع يقفز هاربًا منها ذات صباح بالقرب من بحيرة ضيعة بودجورسكا، فقالت:

انظر إلى تلك العيون الصغيرة!

صمتت قليلًا، ثم قالت لي:

أنت تعيش دائمًا بين الحياة والموت.

ثم سمعنا صوت صهيل فرسها في الإسطبل، حين رمى الفجر خيوط الضوء النحيلة على الأفق، بينما الشمس في طريقها لصعود السماء. وبعد أن انتهت لتوها حفلة رائعة وممتعة وطويلة في حديقة القلعة، قالت فيرونيكا لي هذه الكلمات بأسلوبها العفوي الذي يشبه أسلوب طفل اكتشف أن الحياة قصيرة، وأن الشباب لا يدوم؟ تصرفت دائمًا مثل طفل يدهشه أي شيء، وكل شيء حوله؛ الجنود، الزي العسكري، القتل، الضفدع المضغوط. طوال عامين، كنت أحاول أن أنسى كل الماضي، بما فيه هي، إلا أن صورتها في ذلك الصباح ظلت تراودني، بحضورها الطاغي، وصوتها، ومشيتها الرشيقة، وهدوئها، وحزنها، وانعكاس أشعة الشمس الأولى على عينيها اللتين تجمد فيهما النظر.

وصلتني الرسالة في أحد صباحات أغسطس، يطلب مني صاحبها إجابة عن مضمون السؤال الذي ورد بها، وانتابتني مشاعر مضطربة، لدرجة أني لم أرغب في الإجابة. دفعني الموقف لاسترجاع مشهد الطبيعة في الضيعة؛ المساحات الخضراء الممتدة أمامي، والشمس تسطع فوق التلال، وعلى المدى، أرى الحقول الشاسعة، بمنظرها المبهج، ومن ورائها الطريق المغطى بالثلوج. تذكرت بالتحديد هذا الأحد في أول سبتمبر، أو ربما في أواخر أغسطس، من عام 1942 – نفس اليوم الذي لاحقت فيه فيرونيكا ذلك الضفدع- والوقت عصرًا، مائلًا إلى الغروب، حين اتجهنا –ثلاثتنا- إلى الضيعة بعد أن اصطحباني في سيارتهما من كراني حين وصلت إليها قادمًا من لايباخ4.
أثارت إطارات السيارة زوبعة من التراب خلفنا بينما صعدنا بها في طريق الضيعة، جلست فيرونيكا في المقعد الأمامي إلى جوار ليو الذي قاد السيارة، وكنت أنا جالسًا في المقعد الخلفي.
صادف أنه لم يكن معي هذا الأحد سيارة، لذا اتصلت بـ ليو لأخبره أنني لن ألحق بهم على العشاء لأنني لم أحضر معي سيارة، وأجابتني فيرونيكا على الهاتف:

لا مشكلة، سنأتي لاصطحابك ونعود إلى الضيعة معًا. لقد دعونا عازف البيانو، وسيعزف لنا مقطوعات بيتهوفن.

كنت أخشى عليهم من الأقاويل التي سيتسبب فيها موقف كهذا؛ أن يقال عنهما إنهما اصطحبا ضابطًا ألمانيًّا في سيارتهما، وترددت في الموافقة على اقتراحها حتى لا يراهما الناس معي. فقد تغيرت الأمور عما كانت عليه قبل عام من هذا اليوم. وقتها كان وجود الألمان مرحبًا به، أما في تلك الفترة صار الفلاحون مرتابين بنا. لم تكن الإدارة العسكرية المحلية لقواتنا وقتها قادرة على اتخاذ القرارات السليمة، كما أن الحرب اتخذت مسارات غير متوقعة، وغير أكيدة. أما الأخبار التي وصلتنا من روسيا وإفريقيا فلم تكن دائمًا أخبارًا جيدة. ليو فهم ذلك، أما هي فقد عاشت في برجها العاجي على القمر. فهي لا تعرف شيئًا عن السياسة، ولم تكن مهتمة بها، وبالنسبة لها فإن الحرب لم تزل في روسيا وبعيدة بما يكفي. أما نحن فقد أقمنا في بلادها بشكل مؤقت، بفضل ما يطلق عليها «ترتيب الصلاحيات في حالة الحرب». وعليه، فبمجرد أن تنتهي الحرب، سنغادر أراضيهم ونكتفي بأن نرسل بعضنا لبعض –كل من بلده- بطاقات معايدة مرة أو اثنين.

إذا أتيتُ معكم، لن أستطيع الرجوع إلى المدينة في نفس الليلة، ويجب عليّ أن أعود لأتواجد في الصباح الباكر غدًا بالمستشفى لمتابعة المرضى.

لا مشكلة، يمكنك أن تنام عندنا، وفي الصباح سنوصلك إلى المستشفى لتتابع حالات مرضاك.

أحيانًا، لا يكون هناك مجال للاعتراض معها. لا أعرف لماذا تذكرت بالتحديد تلك الرحلة في سيارتهما، ولم يحدث هذا اليوم فقط، بل تذكرتها أيضًا في إيطاليا، عام 1944، حين سمعت خبر اختفائهما من ضيعة بودجورسكا. هل من الممكن أن سوء الحظ قد أصابهما منذ صدموا هذا الضفدع بالسيارة؟ أتذكر الآن تفاصيل هذه الجولة بالسيارة معهما وكأنني أعيشها مرة أخرى، أسمع صوت المحرك الرتيب، وأرى ظلال الأشجار تنعكس على هيكل السيارة الخارجي. وبينما ساد الصمت والهدوء، قالت فيرونيكا فجأة لزوجها:

احذر، هناك ضفدع!...... أوه! لقد صدمناه.

أصرت أن يوقف ليو السيارة، فأخذ جانب الطريق وتوقف. خرجت من السيارة ونظر ليو من خلف كتفه إليّ، وقال لي:

تلك هي فيرونيكا! أحيانًا تكون غريبة الأطوار.

عادت إلى الوراء، وقرفصت متمعنة في الطريق بحثًا عن الضفدع. الصغير. انتظرناها للحظات، ثم قررنا أن نخرج نحن أيضًا من السيارة. أشعل كل منا سيجارة، وسرنا ببطء إلى حيث تقف. حين وصلنا إلى فيرونيكا، أوشكت أن تنفجر بالبكاء.

الصغير المسكين دهسته عجلات السيارة!

ورغم أنها ارتعدت من الخوف، شرحت لنا تفاصيل ما حدث لجثة الضفدع كأنها طبيب شرعي على وشك تشريح الضفدع:

انظر، ليو! انفجرت معدته، وخرجت أحشاؤه ومثانته من بطنه. ولكن عند فخذيه، لم تزل المفاصل

والعضلات التي يستخدمها للقفز في مكانها.

هز ليو كتفه غير مهتما، وقامت فيرونيكا واقفة من جلستها مرة أخرى، وقالت له:

انزل إلى هنا! ألا ترى؟

استجاب ليو لطلبها متحليًا بالصبر وقرفص لينظر عن قرب. قالت له هامسة:

انظر، كيف ينظر بعينيه الصغيرتين، لم تزل فيهما حياة.

ثم توجهت نحوي وقالت لي:

إذًا، يا دكتور، ليس هناك ما يمكن أن نفعله هنا.

لم أفهم ما إذا كانت تلك الجملة خبرية أم استفهامية، وأجبتها ممازحًا أنني لست طبيبًا بيطريًّا، لكنها نظرت إليّ بحدة، وعادت إلى السيارة. للحظة شعرت بالحيرة والإحراج، لم أرد أن أخبرها أن ما أراه فعليًّا كطبيب بشري في الجيش هو أمعاء الجنود تتدلى من بطونهم بعد أن تصيبهم قذيفة نارية، وعيون تغادرها الحياة في لحظة، وأنني لا أتوقع أن يهتم شخص بعمل عرض سيرك تراجيدي سخيف بطله ضفدع دهسته سيارة، ثم يستاء من شخص آخر لمجرد أنه لا يتعاطف مع هذا العرض.

في هذا اليوم بالتحديد، كنت قد قضيت عامًا تقريبًا في شمال كارنيولا، بمنطقة الألب التي كانت تعرف بيوغوسلافيا قبل أن تسقط بعد الهزيمة. وكنت منذ بدأت الخدمة هناك أشعر براحة كبيرة في الريف لأنه ذكرني بالوطن، وذكرتني الجبال هناك بإكليل الجبال التي تحيط ببحيراتنا. ثم انتهت إقامتي هناك بعد أن انفجرت شظايا قنبلة روسية فيّ، ومزقت أربطة قصبة إحدى ساقيّ. وظل زملائي ينقلونني من مستشفى ميداني إلى آخر لأتلقى العلاج، وبعد رحلات طويلة من قطار إلى آخر، انتهى بي الأمر في مصحة بالقرب من موطني في بافاريا. مر نحو شهر على علاجي في المصحة إلى أن استطعت السير مع عرج بسيط، والحرب عندئذٍ قاربت على الانتهاء. وظننتُ أنهم سيقومون بإعادتي إلى الديار، لكن نتيجة للنقص الشديد في الأطباء طلبوا مني أن يستفيدوا من وجودي لبعض الوقت، على أن يرسلوني إلى الخدمة بمنطقة هادئة بعيدة عن الخطوط الأمامية.

لن تتمكن من المشاركة في أي مسيرات.

قال لي أحد ضباط المأمورية:

ولكنك صرتَ قادرًا على السير بشكل جيد.

ثم أرسلوني إلي كارنيولا، وبدا الوضع هناك –بالمقارنة بما اختبرته من قبل في مستنقعات بريبيات في روسيا- هادئًا نسبيًّا. وعملت في مستشفى في كراني، وأقمت مع مجموعة من الأطباء الآخرين في منزل بعض الناس الذين أعادت قواتنا توطينهم في أجزاء من البلقان، وفي كل يوم كنا نحدث بعضنا بعضًا عن أننا كنا محظوظين جدًّا حتى الآن. وخاصة أنا، وأنا أرى المستنقعات الأوكرانية الآن من ورائي، وأشاهد المستنقعات التي تجري فيها مسيرات التدريب، وتنصب فيها الكمائن، ويسمع من جهتها عواء قذائف الهاون المتتالية. كان موقعنا هادئًا نسبيًّا، نعم، بالرغم من الأخبار التي سمعناها عن المقاومة الشعبية التي تتكون، والمعاملة المهينة من حلفائنا الإيطاليين في

غياهب الغابات التي تقع في الجزء الجنوبي من البلاد. حتى في الشمال حيث تقع المحطة التي أخدم فيها، وشهدنا محاولات هجوم من وقت لآخر على محطات الجندرمة أو الدوريات العسكرية من قبل قوات الجيش اليوغوسلافي البائس بعد الهزيمة في محاولاتهم اليائسة لإعادة تنظيم صفوفهم، وتكوين جبهة مقاومة في وقت لم يعرف الكثيرون فيه شيئًا عن الجماعات البلشفية. من فترة لأخرى، يأتي أحد ضباطنا مصابًا ومحمولًا من قبل المسعفين، ولكن لم يكن في استطاعتنا سوى معالجة حالات شروخ العظام، أو القرح، أو مشاكل الأمعاء، بالإضافة إلى استقبال بعض المحاربين الذين يحتاجون للراحة والهدوء والبقاء في الفراش لفترة بعد القيام بالعديد من التدريبات في القواعد العسكرية، أو بالتجول في الدوريات بأنحاء وديان الألب والممرات التي تقع بين التلال في الغابات. والصدق أنني شعرت طوال هذا العام الذي خدمت فيه بهذا الموقع أن الحياة لا تختلف كثيرًا عنها في ألمانيا، حيث لم يكن العدو قد بدأ غاراته الجوية عليها ليدمرها بالقنابل والقذائف. في تلك الفترة أيضًا قمت بالمزيد من العلاج الطبيعي لركبتي بتدريبها على السير لمسافات طويلة في الأرياف المجاورة، والصباح ضبابي، حين ذكرتني القمم الجبلية بموطن رأسي في بافاريا. حين تتوسط الشمس كبد السماء وتسطع بقوة وينتشر ضوؤها في أنحاء الحقول، أسمع أزيز النحل وأراه يحوم فوق الزهور، بينما يحصد الفلاحون محصول البطاطس، ويرون الحرب بعيدة جدًّا عنهم.

قابلت فيرونيكا بعد وصولي بوقت قصير، حين جاءت إليّ في ظهيرة أحد مع امرأة مريضة بالحمى، تئن من الألم، وتكاد تسقط من الإعياء. شخصت حالتها بالتهاب الزائدة الدودية، وحددت موعدًا لعملية جراحية لاستئصالها. عرفت أن معهما رجلًا شابًّا اسمه إيرانيك، أو هكذا يدعونه. أذكر الاسم جيدًا لأن وقعه على سمعي كان مستغربًا، ولأنني قابلت الرجل مرة أخرى حين زرت ليو وفيرونيكا في بودجورسكا ورأيته يقوم ببعض الأعمال في الضيعة. أذكره أيضًا لأن السيدة العطوف التي أحضرت المرأة المريضة، وظلت تمسك بيديها المحمومتين طوال الوقت، نطقت اسمه بمزيد من إطالة المدّ بالياء. لكنها قالت لي بألمانية سليمة:

بالتأكيد يمكنك أن تساعدها، دكتور، لقد ظللت أخبرها طوال الوقت أنه لا داعي لأن تخاف. إيرانيك هنا أيضًا، هو خطيبها، إنها تخشى أن يرحل ويتركها. هما على وشك أن يتزوجا قريبًا.

حين خرجت من العيادة، أشارت لي في الخارج باتجاه رجل ممتلئ الجسم عريض الكتفين يرتدي قبعة خضراء، يدور حول عقبيه في انتظارهما، وقالت:

هذا هو إيرانيك! هو ولد طيب.

هل هو سائقك الخاص؟

لا، أنا التي قدت بهما سيارتي إلى هنا، وهو أراد أن يأتي معنا. إنه قلق عليها، ويحبها.

هل تجيدين القيادة؟!

سألتها في استغراب، فأجابتني بابتسامة:

ليس السيارات فقط، وإنما الطائرات أيضًا، إذا اضطررت لذلك.

أخبرتني أنها حاصلة على رخصة طيار لقيادة الطائرات الترفيهية، وأن إيرانيك يقوم بأعمال لديها من وقت لآخر. وبغض النظر عن إيرانيك، أثارت تلك السيدة الأنيقة غير الاعتيادية التي تجيد

الطيران اهتمامي، فقد كنت أشك في الأساس أنها قادرة على قيادة تلك السيارة الضخمة التي تنتظرها في الساحة حتى أخبرتني أنها تستطيع أن تقود طائرة أيضًا. ضف على كل هذا أنها تحدثت الألمانية بلكنة برلينية، وأنها تعيش في قصر على التلال، وأنها أحيانًا تقيم في شقتهما في لايباخ. أخبرتني أنها الآن صارت تقضي معظم وقتها في قصر يدعى بودجورسكا. لم تعد تفضل البقاء في لايباخ بعد أن صارت المدينة محتلة من الإيطاليين، وتكره القيادة عبر نقاط التفتيش المزعجة، حيث يدور الجنود حول سيارتك ويعاملونك على أنك مهرب مخدرات. سألتني متى يمكنها الحضور لأخذ المريضة، فقلت لها بعد أسبوع من اليوم، وتمنيت أن يمر كل شيء على خير.

هكذا تعرفت على سيدة الضيعة الشابة، ومن ثم عرفتني إلى زوجها الذي دعاني إلى بودجورسكا جراستشينا، كما يطلقون على قصر الضيعة. بالنسبة لي كان اسمًا عجيبًا بالكاد استطعت نطقه، وفضلت عليه كلمة «قلعة» فقط. قابلت أيضًا سيدة متقدمة في السن، تدعى يوسيبينا، وهي والدة فيرونيكا، ومدبرة القلعة المضيافة يوجي، التي اعتبرتها فيرونيكا فردًا من العائلة أكثر منها أحد الخدم. قابلتُ مزارع الحديقة، وكلبهم، وخيولهم، وفي خلال شهر من أول لقاء لنا، صرت ضيفًا زائرًا بانتظام. كنت زائرًا من بين العديدين من رجال الأعمال والمحافظين المحليين، وزوجاتهم ونساء شابات صديقات لفيرونيكا. بالإضافة إلى بعض الضباط الألمان أصحاب العلاقات الوطيدة بليو، وقدموا له العديد من الخدمات البسيطة، مثل تخليص أوراق السفر، تصاريح العمل، وغيرها. ساعدته تلك الخدمات على تسيير أعماله بالمصنع، حتى لا ينقطع الإنتاج. باختصار، شمل الجمع العديد من الشخصيات المختلفة والمتنوعة التي بحثت عن دِعة للراحة والاسترخاء بعيدًا عن الصخب، وفي قلب الغابة عند سفوح التلال، وشعورًا بالتحضر والمدنية والحياة الطبيعية في وقت الحرب. كانت فيرونيكا ممتنة لي بعد نجاح عملية حبيبة الفلاح الشاب الذي يعمل لديها، وقدمتني للجميع بلقب «السيد الطبيب الذي عالج خطيبة إيرانيك»، ربما ذكرت مرة أو مرتين اسم الفتاة المريضة لكنني نسيته.

ذات يوم، عدوت باتجاه إيرانيك -في أواخر عام 1942، ربما في نوفمبر- حين بدأ الجليد يتكون على الطرقات ويتراكم حول إطارات النوافذ. اتصل بي ليو في محطة الخدمة وطلب مني مساعدة. قال إن الشرطة ألقت القبض على أحد العاملين لديه، ووضعته في الحجز على إثر الاشتباه في التعاون مع البارتيزان. ولكنه أكد أنه يمكن أن يضمنه:

هو مسالم تمامًا، ومخلص، ولا يعرف أي شيء عن السياسة. فقد قبضوا عليه ضمن ثلاثمئة شخص آخر، وقد أفرجوا عن البعض منهم بعد أن تأكدوا من براءتهم، وربما يكون إيرانيك أحدهم.

أخبرته أنه يصعب عليّ التدخل في الأمر، خاصة لو وقع في أيدي الجيستابو، لأننا اتفقنا على ألا نتدخل في أعمال الجيستابو على الإطلاق. ثم وضع فيرونيكا على السماعة:

إنه نفس الولد الذي أخبرتك عنه حين جئت بخطيبته إلى عيادة المحطة، لقد أتيت بهما إليك العام الماضي لو تذكر. الفتاة التي أجريت لها عملية الزائدة الدودية.

بالطبع أذكر كل شيء، فهو لقاؤنا الأول، وبدت المريضة في حالة يائسة حين قالت لي فيرونيكا:

سنكون ممتنين كثيرًا لك -أنا وأبواها والجميع- إذا أنقذتها.

في البداية ترددت، ثم وعدتهما بأن أفعل ما في وسعي. لو لم تكن فيرونيكا هي التي ألحت عليّ بنبرتها المتوسلة، لم أكن لأحاول إطلاقًا.

أجريت اتصالًا بـ فالنر، وهو رجل غليظ القلب، بالكاد أتحمل أن أتبادل معه كلمة أو كلمتين، فقال لي إنني يجب أن أحضر بنفسي. قدت السيارة من المستشفى الميداني مرتديًا معطفي الأبيض، وتوجهت إلى المقر الرئيس للجيستابو. قابلني فالنر في الساحة الخارجية، فخرجت من السيارة وقلت له مباشرة إن أحد المقبوض عليهم ضمن عملية القبض على الفلاحين المحليين أعرفه معرفة شخصية. بالتأكيد اضطررت لاستخدام القليل من الكذب في ذلك، فمعرفتي به والتي لا تتعدى يومًا رأيته في العيادة من على بعد، ثم صادف أن شاهدته في الضيعة يقوم ببعض الأعمال كل ذلك لا يعني أن معرفتي به شخصية وجيدة. نظر إليّ فالنر بجمود وبرود وطلب مني ألا أتدخل في ما يتعلق بأمن الدولة. ولما أوشكت على أن أستسلم، عاودني التفكير في فيرونيكا، وخفت من اللحظة التي سأنظر فيها إلى عينيها الحزينتين بعد أن أخيب ظنها فيّ. وقررت أن أدفع بكامل قوتي، وألح في الطلب، رغم أن ذلك مخاطرة كبيرة، فأخبرت فالنر أنني بصفتي جنديًّا ألمانيًّا وأحد أفراد الرايخ وبشرفي كضابط، يمكنني أن أضمنه.

لا بأس، إذًا، إذا كنتَ ستضمنه بشرفك كضابط!

أجابني فالنر ساخرًا:

سنرى ما يمكننا فعله.

أعطيته الاسم والوصف، وبعد أيام تبين أنه قبض عليه عن طريق الخطأ وتم الإفراج عنه. وأصبح إيرانيك حرًّا. ما فعلته لم يكن سهلًا عليّ. فالنر رجل قاسٍ وخطير. حين وقفنا في الساحة الخارجية للمقر الرئيس، وأثناء تبادلنا الحوار، سمعت من خلف إحدى النوافذ صراخًا رهيبًا، انطلق محدثًا صدى قويًّا في أرجاء المكان، يتبعه صيحات حانقة متتالية. فتوقفنا عن الحديث، ورمقني فالنر بنظرة خاوية من عينيه الزرقاوين، ولم يقل شيئًا، فبقيت صامتًا. وبعد أن انتهى الصراخ، عاودت الحديث كأني لم أسمع شيئًا. لأنني كنت أعرف تمامًا ما الذي يحدث خلف هذه النوافذ، حين يستجوبون شخصًا ما. فمن يصرخ هو بالتأكيد واحد من الثلاثمئة الذين قبض عليهم، وأنا أعلم جيدًا أن الاستجوابات تستخدم فيها أدوات مثل الهراوات، وغيرها. أحيانًا يرسلون لنا أحد الذين تم استجوابهم لنقوم بتخبيطه، ومعالجته، ونضع له الضمادات والأربطة. هؤلاء الذين يبقون على قيد الحياة لأنهم وافقوا أن يتعاونوا. أما الذين لا يوافقون، فلا يأتون إلى المستشفى الميداني، بل يحشرون في المحارق. كنت أعرف أن في حال اكتشف فالنر أنني أكذب عليه، فقد تنتهي بي الحال إلى واحدة من غرف الاستجواب تلك، وربما أكون أكثر دقة إذا قلت عنها غرف التعذيب.

شعرت بسعادة بالغة حين تم نقل فالنر إلى تريست بعد أن قام بادوجليو بالانقلاب على التحالف القائم بيننا. وبذلك فهو لن يعرف شيئًا عما سيفعله إيرانيك بعد أشهر قليلة من الإفراج عنه، حين يختفي فجأة من الضيعة ومن قريته كذلك، بالأرجح من أجل أن ينضم للموالين. ولحسن حظي وحظ شرف الضابط الخاص بي، اختفى فالنر من المشهد في الوقت المناسب. وربما لحسن حظ ليو أيضًا، لأنه تطوع بضمان إيرانيك بكل ما يمكنه. ولكن الحقيقة أنني حين تطوعت بنفسي لضمانته لم يكن لدي أي فكرة أنه بالفعل متورط بشكل ما، وأقر ذلك بشرفي كضابط ألماني.

في الليلة التي طاردنا فيها ضفدعًا بالقرب من بحيرة الضيعة، وقبل أن يبدأ الاحتفال، شهدتُ بيانو جديدًا يتم توصيله إلى القلعة، وقد وصل إلى بدجورسكا في شاحنة، وقام عازف البيانو بإصدار ضوضاء لفترة طويلة وهو يضبط نوتاته الموسيقية في غرفة الطعام. في الوقت نفسه، بدأت السيارات في الوصول إلى مدخل الضيعة، وتردد صدى صوت صفق الأبواب كلما نزل سائق من سيارة ليفتح الباب لضابط متأنق بحذاء لامع. سألت فيرونيكا:

كل هذا العدد من الضيوف سيكون متواجدًا في وقت العشاء؟!

فضحكت وقالت إن بعض الضيوف لم يكن مدعوًّا، وإنما دعا نفسه بنفسه.

إن الناس في هذا البلد يشعرون بالملل.

هناك أيضًا بعض رجال الأعمال من لايباخ، وبعض المواطنين من البلد من بينهم محافظون من مدن قريبة، وشخصيات سياسية مهمة مع زوجاتهم. لا تسعفني الذاكرة لأعرف ما المناسبة التي جعلت كل هذا العدد الكبير من الزائرين يفدون إلى الضيعة، فربما المناسبة هي عيد ميلاد أحدهم، أو أن ليو فقط أراد أن يدعوهم دون مناسبة لإنعاش أعماله التجارية بعد الركود الذي تسببت فيه الحرب من خلال معارفه وأصدقائه.

لكنني أذكر أن عازف البيانو اسمه فيتو، وقد عزف في هذه الليلة بعض مقطوعات بيتهوفن بعد العشاء، منها «سوناتا ضوء القمر»/ سوناتا كوازي أونا فانتازيّا. جلسنا نراقب الشفق في الغروب، ومن حولنا أحواض الزهور البرية، بألوانه المبهجة البراقة التي أضفت على المكان حيوية وجمالًا. كانت نوافذ الغرفة جميعها مشرعة، يسري عبرها النسيم البارد اللطيف الذي يهب من جهة غابات الصنوبر برائحة الحقول الخضراء. لم تتوقف أصابع العازف السحرية عن حركتها الانسيابية على لوحة المفاتيح، واستمر تدفق اللحن في أنحاء الغرفة كأنه موجات تعلو وتهبط، تصخب أحيانًا وتهدأ أحيانًا. روعة العزف أذهلتني وجعلتني أتجمد في مكاني إلى أن انتهى. واللحن نفسه كان عاطفيًّا يلمس الروح وأحزانها، لدرجة أنني ظننت للحظة لو لم تكن حولنا كل تلك الملابس الرسمية العسكرية –بما فيها زيي العسكري- لكُنا نسينا تمامًا أن الحرب قائمة في أي بقعة في العالم. عن نفسي، لكنت شعرت وأنا أستمع إلى الموسيقى أنني في معرض الفنون في المدينة الحبيبة ميونخ، أو أجلس في جزيرة عجائب بعيدة وفي متناول يدي كل النعم كأنني في الجنة. نظرت إلى فيرونيكا، فوجدتها تتنفس بعمق، كأن أنفاسها تحمل النغمات إلى روحها، أو أن الموسيقي تجدد في داخلها ذكريات قديمة منسية. أيًّا كان ما تشعر به، فقد لاحظت أنه شيء قوي يدفعها للبكاء بينما تقاومه. حتى رأيتها في النهاية تبتسم، فظننت أني مخطئ. بعد أن لعب العازف الخاتمة الدراماتيكية حيث راحت أصوات النغمات تتضاءل وتخفت حتى توقفت، بقيت فيرونيكا صامتة للحظة، تحدق في اللاشيء أمامها، ثم فجأة كسرت الصمت بابتسامة طفل مرح، ووقفت ثم سارت إلى عازف البيانو، واحتضنته.

كانت أمسية لا تنسى، بل ليلة رائعة! وبعد انتهاء الحفل الموسيقي، ودع أغلبية الحضور بعضهم بعضًا. وسمعت عبر النوافذ المشرعة زملائي الضباط يقفون في الساحة سعداء ومنتشين بعد تناول بعض الكونياك معًا، ويمزحون ثم يقفزون بخفة إلى داخل سياراتهم. قام سائق ليو بتوصيل الضيوف السلوفيين القادمين من مدن وقرى محيطة مختلفة إلى بيوتهم. ودع ليو الجميع وتمنى لهم

ليلة سعيدة، ثم صعد إلى غرفته، فليس من عاداته أن يبقى لوقت متأخر يحتسي الخمر. قال إنه في حاجة للذهاب إلى لايباخ في الصباح، فغدًا سيكون الإثنين وهو يوم مزدحم بالعمل. قال إنه سيسعد بتوصيلي للعودة إلى كراني كما اتفقنا.

لا أعرف لم يتذكر الإنسان فجأة وبعد سنوات طويلة موقفًا غير ذي أهمية –مثل موقف الضفدع الذي سحقناه على الطريق- وضد إرادته، كأنه يفرض نفسه عليك، ويصر على البقاء معك. كل شيء ملموس حدث أثناء الحرب لم أتذكره اليوم حين فتحت تلك الرسالة التي عادت بي إلى الوراء، وبدلًا منه وجدتني أتذكر مشهد ضفدع دهسته عجلات سيارة، وبرزت عيناه في محجريهما، ولم تزل في نظرتها شيء من الحياة، رغم موته. أُرسِل الخطاب من جراز من نحو أسبوع. هذا ما عرفته من ختم البريد والعنوان على الظرف. وأكد لي ذلك أن خدمة البريد تعمل بصورة جيدة رغم الظروف التي تمر بها البلاد، فقد ظل مستوى الخدمة المعهودة بمصلحة البريد قبل الحرب ممتازًا. ولكن هذا الخطاب كما هو واضح كتب قبل تاريخ إرساله. فقد كتب بتاريخ 20 مايو 1945. وهذا يعني أنه قد كتب في سلوفينيا، واستغرق الأمر وقتًا حتى تم إرساله عبر الحدود إلى جراز. على كل، فقد وصلتني الرسالة الآن، وعرفت أن هناك شخصًا ما باسم فرانتس جوريسيك يسألني بالنيابة عن عائلة ليو جارنيك حول ما إذا كان لدي معلومات عن الزوجين المفقودين، وإذا ما صادف أن سمعت أثناء فترة خدمتي في كارينثيا –التابعة آنذاك إلى شمال كارنيولا- أي أخبار عن اختفائهما، أو عن الأحداث التي تبعت ذلك. كتبت الرسالة بالألمانية الفصحى، واسم الراسل غالبًا خيالي. وأتوقع أن الراسل أحد أقارب المختفين لكنه لا يستطيع الكشف عن شخصيته في الوقت الحالي. وذلك لأنه يحاول التواصل مع ضابط ألماني سابق؛ ضابط من جيش الاحتلال، (نازي) كما يطلقون على جميع الضباط الألمان الآن. وقد خولته العائلة التي لا نعرف عن أخبارهما أي شيء للتقصي حول ما إذا ظل الزوجان على قيد الحياة.

ولكن، كيف لي أن أعرف ما حدث لليو وفيرونيكا؟

في فبراير من عام 1944، علمت أن البارتيزان اختطفوهما. كنت حينئذٍ أخدم في لومباردي، وكنا نعمل مع قوات جمهورية سالو للقيام بهجوم مضاد على المتحالفين القادمين. حين تم توزيعي من قبل القيادة، لم يهتموا هذه المرة بمشكلة الإصابة في ركبتي، حيث إن الأحداث الجسام التي استمرت في الوقوع بتلك الفترة من الحرب جعلت تلك الإصابة –حتى بعد أن ساءت حالتي من كثرة الانتقال من محطة إلى أخرى، والمشاركة في المسيرات- غير ملحوظة بالمرة. نقل لي الخبر ضابط صف يحبني ويقدرني، وقد تم نقله من كارنيولا إلى هناك. لكنه أخبرني بعد مرور أشهر على ذلك. هذا الراسل المتخفي –فرانتس جوريسيك- وجه رسالته إليّ بتوصية من عائلة المختفين لأنهم يعرفون علاقتي الوثيقة بالزوجين، وأنني كنت أزورهما كثيرًا في قصر الضيعة الذي يملكه ليو جارنيك. سأحاول أن أسأل بعض رجال الشرطة الذين خدموا بالمقاطعة، ثم تم تسريحهم إلى بافاريا. فربما يتذكر أحدهم أنه سمع من أي من البارتيزان المقبوض عليهم أثناء استجوابهم أي معلومات عن الزوجين المخطوفين. وإن لم يكن، فكل ما أعرف أنه ذات ليلة في يناير من عام 1944 خرج الزوجان من بيتهما برفقة أفراد وحدة ما من البارتيزان، ومن يومها لم يعودا أبدًا إلى بودجورسكا. بنهاية الرسالة المليئة بالديباجة والتقدير والاحترام، يقول الراسل إنهم –العائلة- قلقون للغاية، وإن «السيدة العجوز» –بالطبع والدة فيرونيكا– أصابها حزن شديد، لدرجة جعلتها غير قادرة على الكلام؛ «فقد مرت بفترة عصيبة أثناء انتظارها لابنتها في الضيعة حتى انتهت الحرب،

وهي الآن –السيدة يوسيبينا، أرملة السيد الراحل بيتر- تقيم وحدها في لايباخ، المعروفة الآن بـ ليوبليانا، وتجلس كل يوم إلى جوار نافذتها في انتظار عودة ابنتها. ولو تفضلتَ بمساعدتها فستكون ممتنة لك امتنانًا كبيرًا إذا عرفَتْ حقيقة ما حدث، بطريقة أو بأخرى».

وأضاف الراسل في الختام: «إن صديقيك المقربين زوجان طيبان كما تعرف، ولم يتعاونا أبدًا مع القوات المحتلة»! إذًا، لو أنهم لم يتعاونوا مع القوات المحتلة، فلم تسأل أنت فردًا من أفراد قوات الاحتلال، حتى لو أن هذا الفرد مجرد طبيب عسكري؟! لِم –يا سيد جوريسيك- لَم تسأل حكومة بلادك الجديدة، بما أن هؤلاء الذين اختطفوهما هم بالأساس تابعون لتلك الحكومة، وأنهم في ذلك الوقت تصرفوا من منطلق السلطة الممنوحة لهم من قبل تلك الحكومة؟ بالطبع، أعرف جيدًا أن ذلك ليس ممكنًا، ولكن ما ضايقني ودفعني للتساؤل هو هذه الجملة الحمقاء الغريبة في ختام الرسالة. أفهم أن زيارات الطبيب الألماني في الزي العسكري المتكررة إلى الضيعة شككت البارتيزان في عائلة جارنيك، وأثارت شكوكهم في تعاونهم مع المحتلين، وأفهم أنني كنت السبب الذي جعلهم يخطفون الزوجين –بالتأكيد غير متعمد- وربما يقررون قتلهما. لذا سيكون من دواعي امتنانهم أن أرسل الرد على صندوق البريد بجراز، كما العنوان المفصل على الظرف.

ولكن ماذا أكتب في الرد؟

هل أعترف لهم بأنني المُلام الوحيد على قتلهما لمجرد أننا استمعنا إلى مقطوعة لبيتهوفن معًا؟ أو لأنني ركبت معهما في سيارتهما؟ أو لأنني قرأت على الحضور في تلك الليلة مقالًا من جريدة مورجين بوست عن معركة قامت على نهر تيتيريف؟ تلك الحاشية في ذيل الرسالة سببت لي التوتر وعدم الاتزان. هكذا يرى الناس الأمور بعد أن يمر عليها بعض الوقت، ولو قصيرًا –فلم يمر على تلك الليلة سوى عامين- بشكل مختلف ومغاير للحقيقة. هكذا يرون أن أي ضابط قصد أي مكان بزيِّه العسكري، سواء بإرادته أو ضدها، يكون الآن هو الملام في مقتل الذين زارهم وتعامل معهاهم مرتديًا هذا الزي. هل يجوز أن أحمل ذنب كل هذا القتل؟ بالذات، قتل هذين الصديقين العزيزين؟!

لم أتحمل الألم الذي جلبته عليّ تلك الرسالة وقمت بتمزيقها، وإلقائها بعيدًا، ولم أعد مضطرًّا للتفكير في محتواها السخيف. ولكن بعد فترة قصيرة، بدأ يهاجمني ألم شديد في صدري، مع إحساس بعدم الراحة والقلق، وكأنها أعراض ذبحة صدرية. وعادت تساورني الأفكار الخبيثة، وسألت نفسي: ماذا لو أن زياراتي لهما هي السبب فعلًا في اختفائهما، والدافع وراء استدراج المتمردين لهما وإيذائهما بشكل ما؟ في تلك الحالة، سأكون أنا المتسبب في موتهما. وأستطيع أن أجزم بأنهما ماتا فعلًا، فأنا لست امرأة عجوزًا لا حول لها ولا قوة، تصبر نفسها بافتراض أن ابنتها وزوج ابنتها حيان يرزقان، وأنهما عائدان ذات يوم، وكل ما في الأمر أنهما مختفيان بمكان ما، وأن الدعاء لهما بالعودة سالمين قد يستجاب له، فيتمكنان من الهرب والعودة إلى الوطن، أو الهرب إلى خارج البلاد.

إن هؤلاء البارتيزان إذا استدرجوا أحدًا إلى الغابة، فمن المعروف أنه لا يعود حيًّا. فهم لا وقت لديهم، أو حتى إمكانية، لاصطحاب أسراهم معهم في تنقلاتهم، أو الإبقاء عليهم في مكان ما. هذا ما أعرفه. إنهم يجولون في أنحاء الغابة وممرات الثلوج كالذئاب. هكذا اختطفوا الزوجين جارنيك في شتاء عام 1944 من محل إقامتهما بضيعة بودجورسكا. على أي حال، بالتأكيد سيسألون ضباطًا

آخرين غيري عن معلومات تخص الزوجين. فهناك الكثير من الضباط الآخرين -الأعلى مني رتبة ومكانة، والذين شغلوا مناصب أخرى أهم- من بين المترددين على الضيعة. نعم، أذكر ذلك! بعضهم أتوا من تلقاء أنفسهم دون دعوة. فالزوجان يتقنان الألمانية، ولم يكن لهما أي نشاط سياسي. لكن ندرة فرص التواصل الاجتماعي في محيطهما، خاصة لهؤلاء المقيمين بالمستوطنات المحتلة، جعلت منهما ومن الضيعة كنز من السماء سقط على هؤلاء المحتلين المنبوذين الذين عاشوا حياة غير طبيعية في ظروف مخيفة، فأقبلوا على بودجورسكا دون دعوة كأنها جنة وسط جهنم، أو جزيرة في وسط محيط هائج. في تلك الأيام، نظر الجميع إلى الألمان بارتياب، وبالطبع يتحدثون بلغة لا يفهمها الألمان، ومن الشائع أن يتم تفجير سيارة بها ألماني فجأة، أو أن يُطلق عليها وابل من الرصاص في طريق معزول، أو توضع قنبلة يدوية في قاعة طعام ضباط ألمان في وسط المدينة تنفجر فيهم وتحولهم إلى فُتات. بالنسبة للألمان، فإن الالتقاء بأناس لا يحملون لهم كراهية، أو يخبئون لهم خلف الظهر سكينًا ليطعنوهم غدرًا على حين غرة، من أجل أن يستمعوا معًا لمقطوعات بيتهوفن، ويتبادلوا أطراف الحديث، كان حلمًا تحقق في الضيعة، وجعل الحياة وسط الحرب الطاحنة ممكنة. أما الذين يزحفون كالوحوش الضارية في وديان الغابة، ويراقبون ما يجري من فوق قمم الجبال المرتفعة، فلا شك سيرون الأمور من منظور مختلف. فمن يتواصل معنا بأي شكل بالنسبة لهم متهم بالخيانة حتى تثبت إدانته. أو خائن أثبت خيانته بمجرد أن قدم واجب الضيافة لضباط ألمان ودعاهم على العشاء في حفل موسيقي، بينما لم يهتم بهوام الغابة الذين يجولون جائعين، متجمدين من البرد، وهاربين بلا مأوى، يسحبون جثث الغنائم والفرائس بعد صيدها من خلفهم. ومن المؤكد أنهم زرعوا جواسيسهم في القلعة، وكان لهم مصدر معلومات ينقل لهم كل ما يجري هناك بالتفصيل.

في عام 1943، حين بدأت الأوضاع تسوء والحرب تستوحش، بدأت أرى الكثير من جنودنا المصابين يفدون إلى المستشفى الميداني بإصابات تلقوها في مواجهات مع عصابات البارتيزان، وفي خضم تلك المعمعة لاحظت أشياء تمنيت لو أنني لم ألحظها ولم أرها قط في حياتي. فقد تكشفت لي أمور منذ انضممت إلى فريق الاستجابة، وصرت أستقل سيارة الإسعاف مع باقي المسعفين –بعد تجاهل القيادة ركبتي المصابة- ثم نوقفها للانتظار في إحدى القرى أو عند سفح أحد التلال حيث يربض أفراد إحدى وحداتنا للقيام بعملية ما، ثم يبدأ المسعفون في الترجل وجمع المصابين ونقلهم إلى سيارة الإسعاف، ثم تضميد جراحهم إلى أن يتلقوا العلاج على أيدي الأطباء بالمستشفى.

في مساء خريفي، وبعد مرور أيام من استسلام القوات الإيطالية، كنت عائدًا من موقع عملية هجوم ناجحة قامت بها وحدة تابعة لنا على منصة صخرية جبلية فوق بحيرة بوخيني التي تقع في قلب الريف. في تلك الفترة بالذات كنت أحلم بأن أهنأ ببعض الراحة والهدوء، وعلى الأخص في صحبة فيرونيكا -يجب أن أعترف بهذا- فطلبت من السائق أن يقود بي باتجاه بودجورسكا. حين وصلت، حل الليل، ولم يكن هناك ضوء في الساحة سوى ما ألقت به مصابيح الدور العلوي للقصر إلى خارجه. طلبت من السائق أن ينتظرني في السيارة حتى أذهب وأرى لو أن أحدهم لم يزل مستيقظًا، وذلك حتى لا يصدر محرك السيارة صوتًا مزعجًا للمقيمين في تلك الساعة المتأخرة. وجدت بوابة المدخل الرئيس مفتوحة ورأيت في الضوء القاتم الآتي من النوافذ الأرضية ظلالًا لرجال يحملون صناديق من داخل القلعة إلى الخارج متجهين بها نحو الغابة. انتظرت في مكاني

لفترة حتى تأكدت من أنهم رحلوا، ثم توجهت إلى الساحة، رأيت ليو يقف بصحبة بعض الرجال غير المألوفين، ويتحدث إليهم. حين قلت: مرحبًا، توقفوا جميعًا عن الحديث، ثم تجمد الأشخاص الذين بصحبته من أثر الصدمة حين رأوا الزي العسكري الألماني. واندهشت من أن ليو نفسه تجمد في محله للحظة، ثم سار باتجاهي بخطوات سريعة وقال إنه لم يعرف أنني قادم للزيارة في هذا الوقت المتأخر، ولكنني بالطبع مرحب بي في أي وقت. الحقيقة أن تلك لم تكن طبيعته، فالرجل قلما يتكلم، وهو ليس شخصًا مرحبًا لهذه الدرجة، لكنه بدا على غير العادة متحدثًا في تلك الليلة. أسرع باصطحابي إلى غرفة الطعام، في حين تفرق الجمع من خلفنا بشكل سريع ومفاجئ، حتى قبل أن نبلغ الغرفة وندلف إليها. تبينت لحظتها أن ليو قد عقد صفقة ما مع وحوش الغابة، بالضبط كما عقد معنا صفقة كذلك. وتذكرت طلبه هو وفيرونيكا مني مساعدة إيرانيك العامل في قصرهما، والذي صدقت حينها أن القبض عليه حدث عن طريق الخطأ، وأنني لا بدَّ أن أتدخل لتصحيحه بهدوء. علمت عندئذٍ أن القبض عليه لم يكن عن طريق الخطأ، وأن تدخلي في تلك المسألة برمتها هو الخطأ الحقيقي الذي ارتكبته. لم أسأله أي أسئلة، والتزمت الصمت التام. عرفتُ أن فالنر وزملاءه سيتعاملون مع الأمر إن لزم، أما أنا فلم أرغب في معرفة أي شيء، لا عن موظفهما إيرانيك، ولا عن محتوى الصناديق التي حُملت إلى الغابة، ولا عن هوية الذين حملوها واختفوا بها. لم أرغب في معرفة أي شيء، وتمنيتُ من قلبي لحظتها لو أني لم آتِ إلى الضيعة ولم أر شيئًا من الأساس.

توالت الأفكار على رأسي حتى دارت. لقد اكتشفت أن ليو له مصالح مع الأشخاص الذين يدعوننا (قطاع طرق) في حين ندعوهم (موالين). الأشخاص الذين اعتبرناهم (عصابات مجرمة)، بينما سموا أنفسهم (الجيش الحر). تأكدت من أنه سمح بتواجد الجواسيس في بيته ليراقبوا كل ما يحدث في القلعة، وليتحققوا من صداقة فيرونيكا لي، ومن أنها ليست بغرض الخيانة والوشاية بهم للمحتلين.

إذًا! أي خطأ من الممكن أن أكون قد اقترفته؟

أظن أن الأمر قد انتهى. الآن وقد مزقت الرسالة ورميت الموضوع برمته خلف ظهري، فقد قررت ألا أرسل ردًّا عليها وأن أعتبر نفسي لم أتلقَّها من الأساس. انتهت الحرب، والنساء الثكالى في كل مكان يبحثن عن أحبائهن المفقودين في وطني الحبيب الخَرِب، أو يجلسن بالقرب من نوافذهن في انتظار عودة أبنائهن، أو أزواجهن. ليس ذنبي إن وقع مكروه ما لشخصين يعيشان على مقربة من هنا، في كارنيولا التي عادت مرة أخرى ليوغوسلافيا الشيوعية. لكن تلك الملحوظة السخيفة في حاشية الرسالة تطاردني بإلقاء اللوم عليّ لأنها تشير ضمنيًّا إلى أن زياراتي لهما هي السبب في خطفهما واختفاء أي أثر لهما. إن الكلمات ترن في أذني وتوجع قلبي، وتسلبني الراحة. هذا الألم هو ما يؤجج المشاعر الكئيبة في الصدر، ويوهن الجسد ويثقل على الذهن، وينثر في الرأس الشيب.

جمعت قصاصات الرسالة من سلة المهملات، وأعدت تشكيلها قطعة بقطعة بحسب ترتيب محتواها، وبدأت أرتب أفكاري وأسترجع أي معلومات عن معارفي في الشرطة ممن خدموا بالمقاطعة، وبالأخص من انخرطوا في تحقيقات مع بعض عصابات البارتيزان. أذكر أن فالنر خدم في كراني لفترة، وأقام في نفس الشارع الذي أقمت فيه. لقد ساعدني في إنقاذ الفلاح العامل في

الضيعة من السجن، أو من الإبعاد إلى معسكر حشد. لكن فالنر رجل قاسي القلب وكتوم، ومن غير المحتمل أن يتبرع بإعطائي أي معلومات. كما أنني عرفت بالحادثة التي وقعت له. فقد انفجرت فيه قذيفة مدفعية على أطراف الغابة في كارست، وهي منطقة ليست بعيدة عن تريست. لا أظن أنني أعرف أحدًا غيره. وحتى إذا عرفت غيره، فبالكاد مر على انتهاء الحرب أشهر قليلة، ولا أحد يريد أن يتحدث الآن عن ذكرياتها. من سيرحب الآن بأن يعطيني شهادته عن استجوابه للموالين في زنازين الجيستابو؟ من سيثق أصلًا بي أو بأي طبيب عسكري الآن؟ ثم ما الذي أعرفه أنا عن حقيقة شخصية فرانتس جوريسيك هذا؟ كيف أتأكد أنه فعلًا مخول بالبحث عن الزوجين من قبل أسرتهما، ومن منطلق تعاطفه مع امرأة عجوز؟

كل ما أثق فيه الآن هو أن الزوجين لم يوطدا أواصر أي صداقة حقيقية مع جميع الزوار الذين ترددوا على القلعة بنفس القدر الذي وطدوا به علاقتهما بي. ولا أنكر أن فيرونيكا كان لديها ولاء لألمانيا التي قضت فيها فترة الدراسة. وذات يوم سألتني: «كيف تظن ما صارت عليه برلين الآن؟ وكيف يبدو المشهد هناك على ضفاف السبري؟» أذكر هذا اليوم، في وقت الغسق، حين وقفنا جنبًا إلى جنب أمام البحيرة، ومن خلفنا القلعة، كأننا بالفعل نقف على خط فاصلٍ بين الموت والحياة. لم تزل صورتها في مخيلتي كما هي: فيرونيكا الفاتنة التي ترتدي فستان السهرة المبهر تسير بين الناس بجلال وبهاء وعظمة، بمشيتها الرشيقة المليئة بالحيوية، تنتقل من ضيف لضيف، وترحب بهذا وذاك. أو فيرونيكا الفارسة التي شمرت أكمام قميصها الرجالي، وامتطت حصانها وسارت به إلى خارج الإسطبل، وهي تلوح لي. أو فيرونيكا التي تميل لأسفل على الطريق لتتفحص الضفدع الميت وتطلب منا أن ننظر إلى عينيه التي لم تلمع بآخر لحظة حياة. أتذكرها تقول: «حسنًا، دكتور، يبدو أنه لا يمكننا فعل شيء هنا!».

لا، ليس بوسعنا فعل أي شيء!

تلك الصورة التي ظلت تراودني كلما هدأت الأمور في لومباردي، وتراجع صخب القصف والانفجارات، أو تلاشت أصداء صفارات الإنذار التي تحذر من اقتراب المفخخين أو الطائرات الحربية القاصفة. وصوتها تردد في مسامعي في لحظات الصمت والهدوء، فاستطعت أن أنصت إلى تفاصيله، وأتبين نبرته حتى في همسه. هل كنت مغرمًا بها؟ ربما! فقد عانيت الوحدة عندئذٍ، وهي كانت معجزة أنزلت من السماء في زمن الدمار والتحارب. حين رأيتها لأول مرة، شعرت بأن السلام حط على نافذتي، فراحت الطيور تغني على أغصانها، وسمعت أزيز النحل يحوم فوق براعم الزهور. أذكر كل الذين أحاطوا بنا؛ فيتو عازف مقطوعات بيتهوفن، والرسام الذي غط في نوم عميق أثناء العزف، وزوجها –الذي أكن له كل الاحترام- الرجل الجاد الأنيق. لقد أعجبت بشخصيته، ولا أنكر. لكن ما سعيت إليه حقًّا كان أن أحظى بصحبتها هي، أكثر من أي شيء آخر. تلك الذكرى الوحيدة البراقة الحية التي لا أمل من استرجاعها. وكل ما عداها من ذكريات لا تنفصل عن أحداث الحرب والمركبات العسكرية والانتقال من قارة إلى أخرى، ومن قاعدة إلى قاعدة، والمستشفى الميداني بكل مآسيه، وصوت الألم والتوجع، ورائحة الموت. خاصة في العام الأخير في إيطاليا، أذكر هؤلاء الرهائن العائدين بعد إصابتهم بطلقات نارية عندما ظللت أتفقد الشرايين والأوردة في رقابهم وأرساغهم بحثًا عن نبض للحياة. كيف إذًا يمكنني أن أتحمل اتهام كاتب الرسالة لي بأنني المتسبب في قتلها؟ أو قتله؟ لقد ساعده الضباط الألمان من أجل أن يستمر في تسيير أعماله وقت الحرب، وكانوا أصدقاء له، ولم يكن له من يلجأ إليه سواهم كلما أراد أن

يساعد أحد الفلاحين من القرى المجاورة لضيعته، لينقذهم من السجن أو الإبعاد إلى خارج بلادهم في معسكرات الحشد، أو الإعدام بالرصاص. لا شك أنه ساعدهم لكونه متورطًا في شيء ما له علاقة بالسياسة. فذلك ما رأيته في عيون الفلاحين الذين اجتمع بهم في جنح الليل وتحت ستاره. أو ربما تطوع من تلقاء نفسه لمد يد العون ليس أكثر، واستقبلهم وهم مدججون بالأسلحة، ليحملوا من بيته صناديق في مسيرة طويلة من قلعته إلى قلب الغابة! إذًا، لو أن بينه وبينهم عقدًا ما، وربما أخل هو ببنوده، فلِم أقدموا على اختطافها معه؟

لماذا أخذوا فيرونيكا؟

طوال كل تلك السنوات الفائتة، لم يصادف أن قابلت شخصًا لا يتأثر بواقع الحرب المفجع مثلها. انفصل عالمها بأكمله عن الواقع؛ الخيل، القرية، حفلات الزفاف الريفية، الرسامين والشعراء من لايباخ، حكايات الخدم والطهاة. كل تفصيلة من تفاصيل هذا العالم بدت بالنسبة لها أهم من الأخبار المرعبة القادمة من روسيا وإفريقيا، ومن التقارير الصحافية عن المتمردين المحليين الذين يهاجمون الدوريات في المناطق الجبلية المعزولة، أو يشعلون النيران في مقراتنا التي تعج بالجنود في أوقات الذروة. لم تستهوها الحوارات المتعلقة بالحرب، وقد تغادر طاولة تجلس عليها إذا ما تطرق الجالسون إلى أحاديث السياسة والأسلحة والحرب. ما زلت لا أعلم هل كرِهَت تلك الأحاديث فعلًا، أم اعتبرت أن تجنبها الخوض فيها أو الاستماع إليها هو الطريقة المثلى للنجاة من تلك الحرب الدائرة. أعلم تمام العلم أنها كرهت العنف، أي نوع منه. حين يعود الصيادون محملين بغنائمهم، تنعزل في غرفتها ولا تخرج أبدًا حتى يفرغوا من تخزينها في أماكن لا تراها. قد تقف في شرفتها، تنظر من بعيد لحيوان ميت، وترتعد من الخوف والحزن. لم تحتمل أبدًا أن تستخدم السوط مع فرسها كلما امتطته. لكن القدر أوقعها في حب الذين اعتادوا على العنف وتعاملوا به. أحيانًا بإرادتها، وأحيانًا أخرى رغمًا عنها. في مرة أدهشتني حين علمت أنها تعرف أمورًا عن سلاح من أسلحة الجيش ودوره في الحرب القائمة؛ وهو سلاح الفروسية.

في تلك الحفلة المشهودة في قلعتهم، طلبت مجموعة من الحاضرين من عازف البيانو بعض الأغنيات، واحدة تلو الأخرى، ولم يكن لأي منها علاقة ببيتهوفن طبعًا لأن إعادة عزف «سوناتا ضوء القمر» للمرة الثانية لم يكن ممكنًا. عزف فيتو ألحانًا ألمانية بحسب طلبهم، منها ليلي مارلين، المقطوعة الحزينة، وبعض الأغنيات السلوفينية التي دندنت فيرونيكا ألحانها بهمس أثناء عزفها. كان هناك زوج من أقربائها بين الحضور، أو من أقرباء ليو، لا أعرف بالتحديد، ورسام من لايباخ جرع من الخمر كميات هائلة وسقط نائمًا على مقعده، وصديقة من صديقاتها لا أذكر اسمها أو ملامح وجهها. صب لنا أحد الخدم مزيدًا من الخمر، وبدأ يخيم الهدوء على المكان شيئًا ما، في حين بدا على العازف الإرهاق، ثم قالت فيرونيكا:

آه! يا للحرب!

نظر الجميع إليها في تعجب، فنظرت تجاهي وقالت لي:

هورست! أخبرنا عن الحرب، كيف هي؟ الحرب الحقيقية تلك التي تدور على الحدود.

كانت تعلم أنني أخدم على خط الجبهة الروسي، وأني لا أحب الحديث عن تفاصيل الحرب، فاستطردت حين التزمت بالصمت:

لقد سمعت أن البولنديين واجهوا مدرعاتكم على ظهور خيولهم.

نعم، الأولان! جنود شجعان. ولكنهم لم يصمدوا أمام آلياتنا الجبارة. لم يكن هناك مجال لأن يهزم سلاح الفروسية الخفيف آلياتنا الحربية الثقيلة. كانت المعارك غير عادلة، والنهايات مريعة. خيل وفرسان أمام دبابات، مدافع، وبنادق آلية. مشهد غرائبي سخيف! وكأن الفرسان أتوا من زمن آخر غير الزمن الذي نعيش فيه.

صمتت لفترة طويلة، ثم كررت:

أتوا من زمن آخر!

ثم سألت:

وما السخف في ذلك؟

لكنني لم أجب. فأردفت بنبرتها الهادئة:

إذًا! فأنتم قتلتم هؤلاء الأولان. قتلتوهم وقتلتم خيولهم.

لم أكن في المعركة، ولكن ما أعرفه جيدًا عن أحداثها أن قواتنا أردتهم جميعًا صرعى بالبنادق في الحقول. والحقيقة أن الأمر لم يكن سخيفًا، بل رهيب وكريه. لكن الحقيقة التي لم يعترف بها الفرسان أنهم لم يعد لهم دور تكتيكي في الهجوم بالمعارك الحربية، ولا تأثير لهم عليها. يستطيع أضعف جندي مشاة أن يسقط فارس من على حصانه بطلقة واحدة تصيب الحصان من بندقية، وبالتصويب من على بعد.

وماذا عن الخيل، هل أرديتم الخيول قتلى أيضًا؟

أدركت أنه بما أنها فتحت الموضوع، وصار الحديث عن الخيل، فهي لن تتوقف إلا إذا حصلت على إجابة ترضيها، فهي تعشق الخيل، لكنني للأسف لم أجد لدي إجابة لسؤالها. فاستطردت بنبرة شابها الغضب:

نعم، أنت لم تكن هناك.

بالضبط! لم أكن هناك. فلماذا تلومني على قتل الخيل في الحرب ولا تلوم جنرالات الجيش الذين لم يجدوا غضاضة في إرسال الخيل لحتفها في مواجهة مركبات آلية؟

لم تكن موجودًا! هل كنتَ موجودًا أصلًا في أي معركة أخرى؟!

شعرت بإهانة كبيرة في هذه اللحظة. وتحسست جيبي حيث وضعت نسخة من جريدة مورجن بوست صدرت عام 1941، أرسلها لي زميل ضابط من ميونخ معفي من الخدمة لظروف صحية. استلمت الجريدة بالبريد قبل الحفل بأيام قليلة، ومن وقتها وأنا محتفظ بها، وغالبًا ما أتنقل بها من مكان لآخر. في هذه النسخة مقال يصف معركة في المستنقعات الأوكرانية، وفوقه مانشيت بالخط العريض يقول: ألم يكن ذلك حيث كنتَ؟ حين نشر المقال لم أعرف أن الصحف الألمانية كتبت عن فرقتي والتجربة التي عشناها في المستنقعات أثناء تلك المعركة التي كنا نقتل فيها كالذباب. كان للمقال شعبية كبيرة في وطننا، وقرأه الناس، وتهافتوا على شراء الجريدة صباح صدورها،

وكرروا قراءتها لأنفسهم وعائلاتهم على موائد الإفطار حيث توفر حينها كل شيء أراده الناس من مواد غذائية، وقبل أن تصل الحرب إلى ألمانيا. كانوا يسمون تلك المعركة المرعبة الطاحنة على ضفاف نهر تيتريف باسم (جعبة الساحرة). قلت لها إنني فضلت ألا أظهر لها الجريدة من قبل، أو أن أحدثها عما ورد بها. لكنني الآن سأريها الدليل على أنني شاركت في معارك أخرى. وقلت للجميع إن كل من لديه فضول للقراءة مرحب به. فقالت:

اقرأها علينا بصوت مرتفع!

فبدأ الجميع يردد ما قالته، ويلح في الطلب. شعرت بالإحراج، ولكني لم أقو على التراجع، ولزم عليّ أن أنهي ما بدأت. طلبت المزيد من الخمر في كأسي، واعتدلت في جلستي وفتحت الجريدة تحت ضوء المصباح على الطاولة. سمعت صوت شخير الرسام وبعض الكلمات اليلوفينية التي تمتم بها بصوت غير مسموع، فضحكنا جميعًا. سألتها عما قال، فلوحت متجاهلة إياه وطلبت مني أن أقرأ. فبدأت القراءة، ولم أتوقف طوال المقال عن إضافة التفاصيل التي عشتها بنفسي على نص المقال لتوضيحه.

بدأ مراسل الحرب الصحافي أوزوالد زونكنير مقاله بوصف نهر تيتريف الذي يصل بين الجنوب الشرقي لمدينة كيف، ونهري بيريبيات ودنايبر بطول يزيد على مئة وأربعين مترًا، ويبلغ اتساع حزام دلتاه ميلًا تقع عليه أنهار فرعية ضحلة وغابات قصب كثيفة، وحفر عميقة مملوءة بالوحل والمياه الراكدة، والرمال المتحركة يخفيها العشب النامي فوقها. لذا سمى الجنود ذلك الموقع باسم (جعبة الساحرة) لأنه مليء بالمفاجآت. كان ممرًّا ضيقًا يكفي بالكاد أن تتخلله سرية. ويقول المراسل إن «قصة جعبة الساحرة الصغيرة كتبت بدماء جنود جيشنا». لما نظرت إلى كلمات المقال في تلك اللحظة، شعرت أني أقرأها للمرة الأولى. عندما قرأت عليهم أنها قصة كتبت بدماء الجنود، تذكرت أن دمي مُزج بتلك الدماء. سرت قشعريرة في جسدي واهتزت الجريدة من ارتعاشة يدي. ذكرني نهر تيتريف بإصابتي على ضفافه بعد تلك المعركة بأيام. لكن ربما سأحكي تفاصيل تلك المعركة التي أصبت فيها في مناسبة أخرى، وليس الآن. قلت لهم:

كما ترون، مراسل الحرب مثل طائر يحلق فوق غمار المعركة، ويصف ما يستطيع أن يرى. أما نحن الجنود، تلتصق أقدامنا بطين الأرض، ونواجه الأهوال، لا شيء يفصل بيننا. هو يقول إن مستنقعات وروافد تيتريف يستحيل سير المركبات الحربية المسلحة أو الآليات الثقيلة عليها، ولا حتى الفرسان يستطيعون اختراقها. أما نحن، فلا شيء في المعركة يصعب علينا. نُقاد إلى الأراضي الخطرة التي قد تبتلع أيًّا منا في لحظة، حيث نواجه الموت في الوحل، ونقف على خط نار السلاح الروسي المباشر، لنتلقى التفجيرات بلا رحمة، ودون توقف. تقع فوقنا جذوع الأشجار التي اقتلعتها القذائف وتنثر الأوحال والشظايا من حولنا.

بدأ صوتي يخرج مرتعشًا في تلك اللحظة، وتابعت موضحًا ما لم يذكره المقال:

نقف في وسط المستنقعات حيث يصل الطين للركب، أحاول أن أحرك المياه العكرة لأسير فيها حاملًا حقيبة الإسعافات على كتفي، وحيث أقف أطهر الجروح وأضمدها، وأسحب الجرحى إلى خارج برك الوحل. ويحوم المراسل الجوي فوقنا وينظر نحونا من السماء؛ يصف المشهد ويقول إن القائد أعطى أوامره للفرقة أن تسيطر على القرية –ولتكن القرية (أ) مثلًا- المحمية بالمستنقعات

من ناحية، وبالغابات من ناحية ثانية، وبنهر تيتريف من تاحية ثالثة. ثم يقول إن الهجوم من جهة جبهة القتال كان انتحارًا، لكن قواتنا لم تتوانَ عن الإقبال على هذا الانتحار الجماعي. برغم كل ذلك، لم يزل الطائر المحلق غير قادر بنظره المحدود على رؤية ما يجري على أرض المعركة بالتفصيل. لم ير الجنود الذين غرقوا بالفعل في برك الوحل، واختفوا بلحظة في قاعها المنتن. لم يرَني وأنا أحاول إنقاذ أحد الجنود وأحشر في ثقب ما بكتفه رابطة من الضمادات لأسد نافورة الدم المنبثقة منها، بينما يرغي الدم في فمه. المراسل لم يرَ كل ذلك. كل ما رآه هو أن الوحدة استطاعت في خلال ست ساعات من القتال أن تتقدم على مسافة كيلومترين، وهي ليست بالمسافة الطويلة إذا حسبناها مقارنة بالزمن، ولكن إذا اعتبرنا الظروف المحيطة والعوائق التي اجتزناها، فإن ذلك التقدم يعد نجاحًا باهرًا استطعنا تحقيقه. تدرب الجنود على التزام الصمت لفترات طويلة، دون أدنى حركة، في انتظار أوامر القائد المتقدم بموقع يمكنهم من رؤية إشاراته. وقائد تلك المعركة كان جنديًّا كبير السن، شعره أشيب، يحمل وسام الشجاعة البافاري، ويقف مستعدًّا للهجمة القادمة. ذلك الجندي هو نفس القائد المجنون الذي اشتبك مع روميل بالقرب من الأسلاك الشائكة لجبهة أيسونزو بمنطقة كابريتو. وهو الآن يقود الفرقة عبر تلك المياه العفنة التي تبتلع الصرخات والجثث الملقاة في قرارها.

تابع المراسل في المقال:

«اضطر الجنود أن يبقوا رؤوسهم منخفضة بقدر الإمكان لأن الروس اختبؤوا في كل ركن بالغابات العشبية، وراء النباتات السامقة النامية في برك الوحل. وفجأة بدأ وابل من رصاص البنادق ينهال عليهم، لينطلقوا في مواجهة الرصاص بأجسادهم كسرب من الدبابير اندفع فجأة إلى خارج الخلية ليهاجم عدوه ويدافع عنها. حدق الخطر بهم، وتعدت قوة العدو قوة جنودنا بخمسة أضعاف. ثم في لحظة بدأت المدفعية الألمانية في القصف، وبتصويب شديد الدقة، أردوا البلشيفيين صرعى بطلقات نارية في منتصف رؤوسهم. وبالغت القوات الروسية بدورها في القصف ردًّا على المدفعية الألمانية. ووضعت الحرب أوزارها، ليبدأ التلاحم بين القوتين على خط النار».

لاحظت أن كلمات المراسل أثارت اهتمام المستمعين إلى المقال وسلبت تركيزهم أكثر حتى من تعليقاتي المتداخلة مع وصفه للمعركة، فقد خيم هدوء غير عادي عليهم كلما قرأت، ولم أسمع كأسًا يتحرك من مكانه، أو مقعدًا أزيح عن موقعه. حتى الخادم وقف في مكانه كتمثال من الرخام. لذا توقفت عن التدخل بتعليقاتي على نص المقال وواصلت القراءة فقط:

«ثم وقعت مفاجأة غير سارة في خضم المعمعة: خرجت نحو اثنتي عشرة مركبة حربية محملة بالأسلحة من وسط الغابة، وقال القائد: قُضي علينا! ورأى أحد الضباط الصغار في الوحدة أن القائد على حق. وبرغم ذلك، لم يقترح واحد من الجنود الاستسلام للبلشيفيين، ولا التراجع عن شبر واحد من الأرض التي كسبوها. لم تتردد المدفعية الألمانية في مباغتة آليات العدو التي ظهرت فجأة من وراء الأشجار، وراحت تمطرها بوابل من الرصاص وبمنتهى دقة التصويب، فقال أحد الجنود: يا إلهي! إنهم يحققون المعجزة! ثم تلقى رصاصة من حيث لا يدري أردته قتيلًا، وامتزجت دماؤه بدهشته في لحظة. هاجم الألمان بإشارة من القائد (ج.) محملين ببنادقهم الآلية. سقط كثير من الرجال، فقال ملازم: يا رجال! إن ذلك هو الجحيم بعينه! من يدري، فربما نحن موتى بالفعل. لكن سخريته لم تتناسب مع الأهوال المحيطة، ولم تنجِهم منها. وبدت المهمة مستحيلة وهم يقفون في

وسط الأوحال، يطلق عليهم الرصاص من كل حدب جهة الغابة. تراكمت أكوام الجثث المتساقطة من الجهتين وغطت الأرض الموحلة. تراجع جنودنا بعيدًا عن الغابة باتجاه ضفاف النهر، وتقدم أفضل السباحين لإنقاذ المصابين والجرحى العالقين في الماء الآسن، وازداد الروس شراسة في هجومهم، لكنهم فشلوا في هزيمة السرية الثانية المتقدمة. ورغم وطأة المعركة، وفشل الوحدة في تنفيذ خطتها لإقامة جسر جديد على جناح الهجوم الخاص بالعدو، إلا أن في الحرب لا شيء يمكن توقعه».

أعترف أن المراسل كاتب ماهر، يجيد أدواته. وأنه أبدع في خاتمة المقال. والحقيقة أنني تراجعت عن التعليق على الخاتمة بعد أن اقتنعت أن عين الطائر –التي لم ترَ الأحداث بعين الضفدع المفزوع الذي لا يجيد الكتابة بل يجيد السباحة في الأوحال- يستحيل أن ترى ما رأيت. ومن جهته حطم أحد الحاضرين جليد الصمت بتعليقه: نعم، في الحرب لا شيء يسير بحسب التوقعات، ثم بدأ الجميع يتجاذب أطراف الحديث من جديد، وعاد العازف إلى البيانو ليحرك أصابعه على لوحته من جديد بغرض الإحماء. ظلت فيرونيكا صامتة، إلى أن أفاقت من شرودها بعد فترة وسألتني:

إذًا! هكذا تبدو الحرب.

نعم، تقريبًا!

وفي تلك الموقعة أصبت في ساقك؟

نعم، قطعت الشظايا الأربطة في قصبة ساقي، فوضعوا لي صليبًا حديديًّا وأرسلوني إلى الخطوط الخلفية للتعافي. وبفضل جعبة الساحرة على ضفاف تيتريف، تم نقلي إلى هنا لأقابلك وأتعرف عليكِ. كان حظي جيدًا.

كان حظك جيدًا لأنك بقيت حيًّا. فحسن الحظ هو ما يبقينا أحياء.

من دقائق كانت تتحدث معي بعدائية على ذكر الفرسان البولنديين، وامتزجت هذه النبرة العدائية بالسخرية والقسوة. أما الآن فهي تحدثني عن الحظ الجيد الذي أبقاني حيًّا! فجأة شعرت أنها قريبة مني، ورأيت في نظرتها لي ألمًا ودفئًا، حتى أحسست أنها تخترقني وتمر عبر صدري. شعرت بقربها مني كامرأة تقترب من رجلها. في تلك الليلة أصابني أرق شديد، ولم يطاوعني اليوم. وفي الصباح، انتظرت ليو على مائدة الإفطار، ثم أقلني في سيارته، وكان سائقه هو من يقودها. وارتحت لذلك كثيرًا، حيث جلس ليو إلى جوار سائقه، وبقيت أنا متمددًا في المقعد الخلفي بعد ليلة صعبة لم أر فيها النوم، ولذلك لم أكن مستعدًّا لإقامة أي حوار مع أي شخص. استمعت وأنا نصف نائم إلى حوارهما في مقدمة السيارة باللغة السلوفينية، وكان وقعها على سمعي لطيفًا كأنه لحن هادئ لا معنى له، بينما أفكر في فيرونيكا وأنصت لصوت زوجها الهادئ الرتيب.

رأيت وجهها ساطعًا وسط الملتفين حولها كأنه بدر أحاطت به النجوم الآفلة، وتخيلت تفاصيل قوامها الرشيق في فستانها الأسود الطويل بأربطته الحمراء الحريرية. لم أستطع أن أمحو صورتها من مخيلتي، ولا تفاصيل تلك الليلة التي لا تنسى. تذكرت الخادم وهو يصطحب عازف البيانو إلى إحدى غرف النوم. وتوجه أقارب فيرونيكا وأصدقائها إلى غرف النوم من بعده بمجرد أن بزغت أول خيوط ضوء الفجر وعبرت من النوافذ المشرعة إلى داخل غرفة الطعام. بقيت أنا وهي وحدنا. قالت إنها تريد أن تستنشق بعضًا من نسيم الفجر، ورحبت بي إذا أردت أن أرافقها. خرجنا

إلى الساحة، ونحن نسير ببطء، وشعرنا بالهواء الطازج للصباح الباكر يلمس بشرتنا بلطف. وأثناء سيرنا في الحديقة باتجاه البحيرة، صادفتنا في الطريق جماعة من النساء يهرولن صاعدات إلى أعلى التل نحو القلعة، وتوقعت أنهن من العمال الذين يأتون للمساعدة في تنظيف القلعة من فترة لأخرى بعد احتفال كبير. تبادلن النظرات حين رأين سيدة القلعة تسير إلى جوار رجل غير زوجها، يرتدي زيًّا عسكريًّا ألمانيًّا، وهي ترتدي فستان سهرة.

استرجعت فيرونيكا ذكرياتها ونحن سائران باتجاه البحيرة، حول الأوقات التي اعتادت فيها أن تسير على شاطئ السبري. قالت إنها غالبًا ما تتذكر أيام دراستها في برلين حين تظل متيقظة حتى الصباح الباكر. التفتت لي وسألتني:

كيف تتصور برلين الآن من وجهة نظرك؟

لا أعرف! فأنا لا عهد لي ببرلين وكيف بدت من قبل لأعرف كيف تبدو الآن. فلم أزرها غير مرة واحدة.

التوقيت هناك الآن صباح باكر مثل التوقيت هنا. رأيت البط الصغير يسبح على ضفاف نهر السبري في صفوف، ويعبر من أسفل الجسور المشيدة عليه.

تحدثت عن برلين في الصباح، ومن ورائها تمددت القلعة سامقة فوق التلال والشمس تتحسس طريقها إلى جدرانها، وفي الوقت نفسه يتأرجح قوس القمر فوق الحقول من الجهة الأخرى. وقفنا عند أطراف البحيرة، في لحظة طغى فيها الهدوء والسلام على المكان، والإرهاق والألم الجميل على أجسادنا وأذهاننا. تلك لحظة في زمن دارت فيه رحى الحرب الطاحنة في العالم بلا توقف. حين تناهى إلى مسامعنا صوت صهيل فرس، قالت لي:

هذا هو! أستطيع أن أميز صوته.

لم تذكر اسم الحصان الذي قصدته، ولم تقل غير (هو) كأنها تقصد شخصًا ما.

هناك على ضفاف التيتريف، شعرتَ أنك تقف بين الحياة والموت، أليس كذلك؟

نعم، وما زلت أعرج بينهما.

أجبتها ممازحًا، لكنها لم تكن في مزاج يتقبل المزاح.

الليلة فقط كانت المرة الأولى التي ذكرت فيها كيف أصبت في ساقك.

لم أجبها، فأردفت:

جعلتني أشعر أن الحرب وصلت إلى باب بيتنا كذلك للمرة الأولى.

أمسكت بيدها دون قول كلمة، ونظرت في عينيها. أردت أن أخبرها أن من الرائع أن نحيا، وأن نجد الفرصة للحظات سعيدة –مثلًا- كأن نقف أنا وهي هنا على شاطئ البحيرة، نراقب شروق الشمس. لكننا سمعنا فجأة صوت شخص يصدر صفيرًا، ثم صوت ارتطام برف من رفوف القش، فسحبت يدها من بين أصابعي بسرعة. رأينا شخصًا واقفًا يراقبنا بالقرب من رفوف القش الموجودة خارج الإسطبل بالقرب من البحيرة، فقالت:

هذا إيفان الذي يعمل لدينا!

كان الصبي نسخة طبق الأصل من إيرانيك، وبعد أن عرف أننا اكتشفنا وجوده، تسلق سلمًا خشبيًّا واختفى بعد أن عبر من باب في العليّة دون أن ينظر خلفه.

هل هذا الصبي يتجسس علينا؟

أجابتني بابتسامة:

لا، لا! هو شخص بسيط، لكنه يبدو عنيدًا أحيانًا. أظن أن كل ما في الأمر أنه يحب أن يتبعني.

واصلنا السير حول البحيرة، وأضافت بعد صمتها لفترة قصيرة:

طالما أنك تعيش في ذلك الزي، ستظل تشعر أنك بين الحياة والموت. ستحب الحياة لأنك ترى الموت.

نظرتُ ناحية قرص الشمس من جهة، ثم إلى الهلال الذي لم يزل ظاهرًا في السماء من جهة أخرى، وبدت الحقول من تحته ممتدة عند سفوح التلال. قلت لنفسي إننا جميعًا نعيش بين الحياة والموت، بين الشروق والأفول، كما نقف الآن بين الليل والنهار. لكنني لم أقل شيئًا، ولم أحاول أن ألمسها مرة أخرى، على الرغم من رغبتي الشديدة في ذلك. كانت غير قابلة للمس. فاتنة ولكنها غير قابلة للمس.

هكذا ستبقى في ذاكرتي، وتخلد فيها، على تلك الهيئة. أراها الليلة، وأشعر بوجودها حولي. لم أحاول أبدًا أن ألمسها مرة أخرى، لكنني ما زلت أذكر شعوري حين أمسكت بيدها في تلك الليلة. عقلي يأبى التفكير في ما يمكن أن يكون قد حل بها، أو في ما يحتمل أن يكون قد لحق بها في أيدي هؤلاء. لا أحتمل! لذا، لن أرسل ردًّا على تلك الرسالة.

جمعت القصاصات وحرقتها في منفضة السجائر، وجلست أرقب النار تأكلها، بينما أدخن سيجارة. ثم استلقيت على ظهري أتمعن في السقف. قلت لنفسي: بعد ساعات يحل الصباح، ومن بعده المساء، ثم يأتي الليل حين يقرض الألم قلبي، وأفكاري، ثم يطفو كل شيء على السطح فجأة، ويهتاج الموت، وينقلب بنا المركب على الجانب الآخر حيث نلقى حتفنا. أسمع الآن صوت أول سيارة تمر في الطريق. قارب الصباح على البزوغ، وسوف تسطع الشمس في نصف العالم، بينما تغرب في النصف الآخر. وسيتأرجح معها الهلال في السماء حيث ستشرق.

«موندشاين زوناتا» سوناتا ضوء القمر!

نعيش في زمن لا يحترم فيه –حيًّا أو ميتًا- سوى المؤهلين للقتال، والمستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل الأيديولوجيات والمُثُل المشتركة. هكذا يرى المنتصر والمهزوم ما نعيشه. أما البشر الذين لا يريدون شيئًا سوى أن يعيشوا في سلام، فلا أحد يحترمهم. هؤلاء الذين أحبوا الناس والطبيعة والحيوانات، وتصالحوا مع العالم وقنعوا به، لا أمل لهم في أن يحترموا. العنف هو ما يحتاجه زمن الحرب. ليس إلا. أما السلام النفسي فلا يتناسب مع أوضاع هذا الزمان. أنا واحد من هؤلاء الذين أرادوا أن يعيشوا فقط في سلام، ولكنني أجبرت على المشاركة في الحرب. وبرغم الهزيمة، فقد وضعتني الحرب في طريق امرأة فضولية، مرحة، بروحها مسحة من الحزن، لكنها منفتحة

على العالم بصدر رحب. امرأة هي الأخرى أرادت فقط أن تعيش في سلام، وبطريقتها، وحاولت أن تفهم نفسها، وكذلك الناس من حولها. ولأنها غير قادرة على القتال، فقد قتلت. بالطبع لا دليل عندي على ما أفترضه، بالضبط كأمها التي تجلس في انتظارها بلا دليل على أنها حية. لكنني أحلل الموقف ولا أجد نتيجة غير ذلك. وبالتالي فإن كل ما يريد جوريسيك أن يعرف، وأمها كذلك، هو بالتحديد السبب وراء قتلها؛ فعندما تقع حوادث مثل تلك، فإن ما يرغب الناس في معرفته هو السبب الذي أدى إلى وقوعها. سيرغبون في معرفة السبب بمجرد أن يتأكدوا من موتها. من الجائز التفكير بتلك الطريقة في ظروف عادية، إنما في زمن الحرب، فليس من الضروري تبرير القتل. لا أقبل فكرة أن صداقتها مع ضابط ألماني كانت السبب في قتلها. هل من الممكن أن تكون من داخلها متعاطفة مع الجيش الألماني؟ ذات يوم، أخبرتني أنها عادت إلى برلين أثناء الحرب، وأقامت هناك لمدة شهرين. دعاها صديق من أيام الجامعة، فذهبت إلى هناك، ووجدت أن برلين وقتها لم تزل آمنة، ولم تبدأ الهجمات عليها آنذاك إلا بعد مرور عدة أشهر. أتخيلها وهي تسير هناك على ضفاف السبري، وتزور المتاحف الموجودة في جادة (أونتر دين ليندين) –تحت ظلال الزيزفون- فقد حكت لي أن هذا ما فعلته هناك، وأنها أيضًا تطوعت لقيادة سيارة إسعاف. فقد كان هناك نقص في أعداد السائقين الذين يقودون سيارات إسعاف الطوارئ لتوصيل المرضى إلى المستشفيات. فاقترح عليها أحدهم أن تساعد، ولم تمانع. في تلك الفترة لم يكن هناك بعد في برلين قناعات سياسية معينة. عن نفسي، لم أتعاطف مع حكومتنا التي اتخذت قرار الحرب المختل حين كن أداوي الجرحى في أوكرانيا، كارنيولا وإيطاليا، فلم تتعاطف هي معنا؟ في وطنها، رأيت الذين ظنوا فيها ذلك، واستاؤوا منها على ذلك التعاطف غير المبرر. لكن هل يصل الاستياء إلى حد القتل؟! ربما! في تلك الأوقات الغريبة، لا قيود على القتل ولا داعي لتبريره.

لقد مررت في حياتي بالكثير، وخضت تجارب عصيبة، وقد جعلني كل ذلك أفكر بطريقة مختلفة. فأنا شاهدٌ على الكثير من القتل العشوائي والاعتباطي، حين تطلق قذيفة مدفعية، أو تتطاير شظايا قنبلة يدوية، أو تنطلق رصاصات من فرقة رماية، وتصيب رصاصة شاردة أحدهم في مقتل. القتل عندئذٍ كان سهلًا، وبنفس سهولة دهس ضفدع على الطريق. هذا ما حدث لفيرونيكا، دون أي ذنب اقترفته، ودون أن تتمنى السوء لأي مخلوق. كل ما هنالك أنها كانت في المكان والزمان غير المناسبين. وأنها تواجدت وسط أناس مستعدين للقتل في أي لحظة، دون تفرقة بين مجرم وبريء.

بالكاد مر عام على تراجعنا إلى الحدود النمساوية بالقرب من السهول الفريوليانية، وحل الربيع علينا ونحن متمركزون ومنعزلون في مقرنا وسط الجبال وأجرافها المنحدرة، ومن حولنا قمم الألب المغطاة بالثلوج. هناك شعرنا بنهاية كل شيء تقترب. وتوقعنا حين ننجح في عبور تلك الجبال والخروج منها والعودة إلى قواعدنا، سنجد الحرب قد انتهت. وبينما كنا نسير في منعطف على الطريق الوعر، وفي موقع تداخلت فيه أغصان الأشجار الضخمة الهائلة الكثيفة بشكل نادر الحدوث في ذلك القطاع، تلقينا حفنات من الرصاص أطلقت صوبنا بغزارة، وعرفنا أن مجموعة من المقاومة الشعبية خرجت لمجابهتنا بإمكانيات متواضعة، ممن ظهرت لديهم الشجاعة فجأة للمقاومة عندما استشعروا قرب نهاية الحرب، لينضموا بأقل مجهود إلى المنتصرين الذين شاركوا في خضم الحرب واستطاعوا أن يحققوا النصر بأنفسهم. لذا، نصب هؤلاء كمينًا لفرقة المركبات المتقهقرة التابعة لقوات العدو، ولكن المواجهة لم تكن صعبة، فقد توقف إطلاق النار بمجرد أن ترجلنا ببنادقنا عن الآليات، واستطعنا رؤية الظلال الهاربة لأفراد المقاومة تختفي وسط الغابة،

حتى لم يعد لأيها أثر. ومن وجهة النظر العسكرية، يعد هذا الحدث أتفه من أن يذكر، خاصة أنه لم ينتج عنه أي خسائر. فقط للدقة أصيب جندي واحد في مؤخرته برصاصة طائشة بينما كان يحاول إخراج حذائه العالق في الطين من الأرض الموحلة. أسقط بنطاله لأطهر له الجرح، وأضمده، ولحسن الحظ لم تخترق الرصاصة مؤخرته، لذا لم يكن هناك داع لاستخراج أي شيء منها. حين عدنا من المهمة الفاشلة، أذكر أن الرفقاء تندروا حول تلك الواقعة، وألقوا النكات عن المؤخرة البيضاء التي تعرضت للقنص غير الاحترافي.

بعد أن انتهيت من تضميد جرح الجندي، وحين أوشكنا على التحرك مرة أخرى ومواصلة السير للخروج من الموقع الذي حوصرنا فيه، سمعنا فجأة ملازمًا شابًّا يأتي عدوًا باتجاهنا ويلوح بمسدسه في غضب شديد وهو يصيح:

الجبناء، القناصة، سيدفعون ثمن ذلك!

أكملنا سيرنا على الطريق حتى وصلنا إلى قرية صغيرة تبعد عن موقعنا نحو اثنين إلى ثلاثة كيلومترات. وأعطى الملازم الذي توعد بالانتقام أمرًا بإلقاء القبض على كل الرجال المقيمين بالقرية. والحقيقة أنها لم تكن قرية بالمعنى الدقيق للكلمة، حيث كان مجرد تجمع سكني به عدد من البيوت يعد على أصابع اليد ليس بينها على الأقل دير واحد للعبادة، ولا مأوى لعابري السبيل. انتشر الجنود في مجموعات من ثلاثة إلى أربعة، واقتحموا البيوت ثم عادوا بعد نحو عشرين دقيقة، برفقة الفلاحين الذين قبض عليهم. كان العدد قليلًا جدًّا، ليس فقط لأن سكان القرية قلائل، بل لأن الشباب من عائلاتهم قد تم تجنيدهم في الجيوش التي مرت من قبل بنفس المكان. أحضر الجنود العجائز المرتعدين ليقفوا أمام الملازم الذي لم يستطع حتى اللحظة أن يسيطر على غضبه. طلب مترجمًا وأخبره أن يعلن الحكم بالإعدام على هؤلاء العجائز الشياطين المساكين، وأنهم سيقتلون الآن رميًا بالرصاص عقابًا لهم على مهاجمة جنود من القوات المسلحة الألمانية. ارتعد العجائز ولاحظتُ أحدَهم وقد ابتل سرواله بعد أن بال فيه. نادى الملازم على فرقة الرماية، واختار الرماة من بين أفرادها ببطء، فاصطفوا على خط إطلاق النار ونظراتهم تفيض بالحقد والشماتة. بالتأكيد عرفوا أن ما يفعلونه لا مبرر له إطلاقًا. جلست أراقب ما يحدث من سيارة الإسعاف وأشعر برغبة في التقيوء من هذا البرود المحض تجاه القتل. هذا الشعور بداخلي لم يكن وليد التعاطف والرحمة إطلاقًا، فقد سقطا كلاهما مني دون أن ألحظ -الرحمة والتعاطف- في مكان ما في السِباخ الأوكرانية عام 1941. بل كان هذا الشعور من منطلق هذا البرود واللامبالاة والصلف الذين انتشروا فجأة في ذلك الوقت بين البشر كالوباء، وجعل من العادي جدًّا قتل رجال عجائز بدم بارد ودون مبرر ذات يوم ربيعي لطيف وتحت ضوء الشمس الساطع فوق قمم الثلج الجبلية. بمجرد أن انطلق صوت هدير السالفو، سقط منهم أربعة على الأرض صرعى، ولم يبق غير الخامس واقفًا على قدميه. الخامس هو من بال في سرواله. أعطي الأمر بقنصه، فلوح بيديه مرتعبًا وانحنى ثم سال الدم من وجهه لكنه ظل واقفًا على قدميه. لم تصبه الرصاصة بل خدشت رأسه فقط، واستدعاني الملازم لأتحقق من موت الذين سقطوا على الأرض، فقفزت إلى خارج السيارة، ومعي حقيبة الإسعافات الخاصة بي، لأنني –ولا أعرف لماذا- افترضت أننا سنضمد جرح العجوز الذي لم يزل حيًّا. لكن الملازم سألني:

ماذا ستفعل بهذا؟!

وأشار إلى الرجل المرتعد الذي راح ينظر إلى الجثث الملقاة عند قدميه في فزع، ثم تحسس وجهه ونظر إلى الدماء التي لطخت كفه برعب. لكن لا أحد أجاب سؤال الملازم، فطلب من المترجم أن يطلب من العجوز الثبات في مكانه حتى يتمكنوا من التصويب على رأسه. ولا أدرى ما إذا كانت الترجمة حرفية لكن الرجل فهم الأمر وتوقف عن التعثر والحركة. ثم أمره الملازم بالركوع، وبعد الترجمة ركع العجوز بصعوبة، حيث كان واضحًا أنه يعاني من ركبتيه. سار الملازم نحوه، ودار من حوله ليغرس فوهة مسدسه في رأسه من الخلف، وأطلق رصاصة اخترقت رأسه النازف.
تناثرت أشلاء جمجمته المخضبة بقطرات الدم الساخن على يدي الملازم، وتقدمت بخطى حثيثة نحو الجثث الخمس لأؤكد موتهم، لكن الجنود لم ينتظروني وبدؤوا في القفز إلى داخل المركبات، فتوجهت إلى سيارة الإسعاف، ثم بدأنا في التحرك.

اكتشفت أن كل ذرة في جسدي ترتعش، وأن السبب ليس ما شهدته يحدث للتو، وإنما لأنني وقفت صامتًا إزاء كل ما حدث. أردت أن أصرخ فيهم جميعًا وأقول لهم إنهم صاروا معدومي الإحساس والشعور. لقد كانت رتبتي أعلى من رتبة ذلك الملازم، وربما كان ليطيعني إذا ما أمرته ألا يفعل ما فعل. ربما؟! على الرغم من أنه قائد الوحدة، في حين أني لست سوى طبيبها المسعف، ونطاق صلاحياتي لا يتعدى إعطاء الأوامر لفريقي الطبي الذي يتكون فقط من مسعفين اثنين أكبر مني سنًّا. لو كنت تجرأت وصحتُ بهذا الملازم أمام جنوده، فربما صوب هذا المجنون مسدسه إلى رأسي دون تردد. لماذا لم أفكر في أن أنتحي به جانبًا وأتحدث إليه حديثًا عقلانيًّا؟ لكنني فضلت ألا أحرك ساكنًا، وألا أتدخل في أي شيء. سيطر الخوف عليّ تمامًا، فالتزمت الصمت.

في تلك الأثناء، تأكدنا أن الحرب تسدل الستار على الجرائم التي ارتكبت باسمها، ولذلك لم أشأ أن أوذي نفسي في ساعاتها الأخيرة وأكون من آخر ضحاياها لو جادلت هذا الجندي المعتوه الخارج عن السيطرة. كان يعرف هو أيضًا أن كل شيء انتهى، ومن المحتمل أن ذلك هو ما أثار غضبه الشديد من ذلك الكمين المنصوب في توقيت من المفترض أن أي هجوم فيه لم يعد ذا مغزى.
شعوره بالهزيمة والفشل والمهانة في تلك اللحظات التي قاد فيها وحدته للهروب من محيط خطوط العدو جعله لا يحتمل التضحية بأي فرد آخر من أفرادها. حتى لو أن الكمين لم يسقط بينهم قتلى، ولم يصب غير جندي واحد في مؤخرته إصابة سطحية، لكن احتمالية أن تكون إصابة هذا الجندي قاتلة ممكنة لو أن المهاجمين محترفون، وليسوا مجرد مقاومين لا يجيدون التصويب.

محركات المركبات طوال الوقت الذي قضيناه في القرية لم تتوقف للحظة، لذا لم يستغرق الأمر أي وقت لننطلق من القرية ونواصل الخروج من الممرات الجبلية. لم يستلزم الأمر أن نوقف محركات المركبات أثناء مهمة سريعة وبسيطة كتلك المهمة؛ المرور بقرية صغيرة والقبض على عجائزها، وقتلهم بدم بارد ثم المضي في طريقنا. لو كان بيدي أن أفعل شيئًا لأوقف هذا في سبيل أن أوذي نفسي، لما فعلت. أحيانًا أستيقظ من نومي في الليل وفي رأسي تفاصيل تلك الواقعة. ليست أفعالك دائمًا هي التي تطاردك بذنوبها، وإنما قد تطاردك أيضًا ذنوب خنوعك وصمتك وانعدام أفعالك، حين يكون بمقدروك أن تمنع شرًّا لكنك تلزم الصمت وتفضل الانسحاب.

نظرت من نافذة سيارة الإسعاف نحو الملازم الشاب، فوجدت أحد الجنود يصب على يديه البنزين ليغسل عنهما الأشلاء والدماء. قناعتي دلتني إلى استحالة أن يفكر هذا الجندي في ما فعل ولو للحظة حتى لا يفتح على نفسه باب تأنيب الضمير والشعور بالذنب. أي ضمير؟! لقد حرق ضميره

وهو يقتل خمسة عجائز على الطريق عند السفوح الفريوليانية. ربما يفكر اليوم في هذا الماضي المشين، وفي أفعاله التي اقترفها، تمامًا كما أفكر أنا الآن في الأفعال التي لم أقدم عليها. تقدمنا في صف المركبات تجاه الممرات الجبلية التي غطتها الثلوج، ورأيت من الواجهة الزجاجية الخلفية لسيارة الإسعاف نساء وأطفال القرية الذين خلفناهم وراءنا يهرعون من داخل بيوتهم نحو الجثث التي قتلت بلا ذنب.

هذا هو القتل في الحرب! أسهل من دهس ضفدع على الطريق! تُرى بأي طريقةٍ دُهست فيرونيكا في الغابة التي تمتد حتى بوابات قلعتها، أو في أي مكان آخر، وبأي يوم من أيام يناير القاسي من عام 1944؟ وهل كان هناك أي شخص إلى جوارها قال للآخرين بعد قتلها: «انظروا إلى تلك العينين اللتين تبدوان كأنهما ما زالتا تنبضان بالحياة». تلك العيون الفائضة بالحيوية والمرح والسعادة والدهشة ستبدو خاوية وهي تنظر إلى السماء التي تظلل غابات الصنوبر بعد أيام قليلة من الاحتفال بالسنة الجديدة. ربما كان آخر ما رأته عيناها قبل أن ينطفئ ضوءهما هو أشجار الصنوبر. نفس أشجار الصنوبر الوارفة بجذوعها السامقة تقف تحت أشعة الشمس التي اعتادت فيرونيكا أن تفتح عينيها على رؤيتها كل صباح من شرفة القلعة، كلما وقفت لتراقب صعود الشمس المتلألئة في قوسها القزحي الملون من جهة، وأفول الهلال المتأرجح في زرقة سمائه البراقة من الجهة المعاكسة.

3- قوات تابعة لحزب الرايخ الشمولي.

4- لايباخ هو اسم ليوبليانا باللغة الألمانية. (المترجم)

(٤)

انقضوا علينا في منتصف ليلة شتاء كالذئاب الضارية.

عشرة رجال مسلحون، ربما أكثر، انتشروا في أنحاء الضيعة، وطوقوها من كل جانب. تسللوا إلى داخل القصر، واقتحموا الغرف. فتشوا الدواليب والأدراج، وحملوا مقتنيات مختلفة إلى الساحة الخارجية. لم يسألوا أي أسئلة، ولا برروا أسباب وجودهم، أو حددوا ما الذي يبحثون عنه. لم يهددوا أحدًا منا، بل قاموا بمهتهم في صمت لم يقطعه سوى توجيه الأوامر المقتضبة بعضهم إلى بعض لتنظيم العمل في ما بينهم. وضعوا الحرس على البوابات الخارجية، ورأيتُ أحدهم يقف عند مدخل القصر حاملًا بندقيته الآلية، وبدا ظله في الظلام مألوفًا، لكنني لم أتبين ملامحه حتى في ضوء القمر الساطع على أنحاء الساحة. لم أتعرف كذلك على أي من الأشخاص الذين اقتحموا المنزل من الداخل، فتأكدتُ أنهم ليسوا ممن يعيشون في المناطق المجاورة.

صعد الدخلاء المسلحون إلى الطابق العلوي، وسمعنا من أسفل أصوات صفقهم لأبواب الغرف والكبائن، ودفع الأثاث وتحريكه من أماكنه. حبسوا ليو وفيرونيكا في غرفة الطعام، وبقينا نحن جميعًا في المطبخ بعد أن حذرونا من الحركة. لما لاحظ الحارس الواقف على باب المطبخ كيف أننا تجمدنا في أماكننا من الرعب والخوف، وأنه من الصعب أن يجرؤ أحدنا على الحركة أو محاولة الهرب، أخبرنا أن كل شيء سيكون على ما يرام طالما سنلزم الهدوء والصمت. أكان في وسعنا ألا نلزم غير الصمت والهدوء في تلك اللحظات الرهيبة، وقلوبنا على وشك أن يتوقف نبضها من هول الموقف؟! بعد لحظات، تأكد الحارس أننا لن نقدم على أي حركة غبية، وأن كل ما استطعنا فعله هو الحملقة في الفراغ من حولنا وتجنب النظر بعضنا إلى بعض، فتوجه إلى السلم المؤدي إلى القبو ونزل إلى الأسفل. توقعنا أنه يرغب في الحصول على زجاجة خمر. لحظتها انطلقت إلى الساحة الخارجية، وانزلقت على الثلج وأنا أعدو بكل قوتي. لا أعرف لم فعلت ذلك؟ كل ما في الأمر أنني فكرت في الذهاب إلى القرية وإخبار مايتسن راعي حديقة القصر بما يحدث. هو يعرف كيف يتصرف في تلك المواقف، وله كلمة مسموعة عند فلاحين قريتنا، فربما تمكن من الذهاب إليهم وإقناعهم بأن السيد ليو رجل طيب، وأنه طالما ساعد البارتيزان. ظننت أن ذلك قد يحل الموقف لأن جميع من رأيتهم الليلة يقتحمون القصر ليسوا من الأنحاء المجاورة لنا، ووجوههم جميعًا غير مألوفة. تلك الوجوه التي بدت عازمة على إتمام مهمتها. لو أن رجالًا مسلحين اقتحموا بيتك فجأة، وفي جنح الليل، فإنك لن ترى في سيماهم سوى الوحشية والخطر الكامن. لا يجوز أن يظهروا لك غير ذلك. لكنني في لحظة فقدت اتزاني وقدرتي على التفكير، ونسيت أن هناك حارسًا يقف على البوابة الرئيسة لساحة القصر. إن لم يستطع المرء ترتيب أفكاره في مثل تلك المواقف، فلا شك أنه سيقترف أخطاء قاتلة. لم أشعر بنفسي إلا وقد ارتطمت بالحارس الواقف على البوابة الرئيسة، ثم كاد قلبي أن يتوقف حين اكتشفت وجوده. نظرت إلى وجهه فعرفت أنه إيرانيك. تنفست الصعداء، وقلت له:

آه! حمدا لله أنه أنت يا إيفان!

عودي إلى الداخل الآن، لا أحد مسموح له بمغادرة المكان.

حاولت أن أستجمع قواي وألتقط أنفاسي بسرعة لأشرح له ما يدور داخل القصر، وأن رفقاءه

يفتشون الأدراج والكبائن، ويسرقون أشياء، ويحطمون الأثاث وممتلكات أصحاب الضيعة الذين لم يقترفوا جرمًا. وأنهم حبسوا السيد والسيدة في غرفة الطعام، وباقي الخدم في المطبخ. ثم أطلب منه أن يذهب إلى رفقائه ويخبرهم أنهم يرتكبون خطأ فادحًا، وأن هؤلاء الناس هم أناس طيبون لم يسبق أن أذوا شخصًا قط في حياتهم. وأخبره بأننا كنا دائمًا نقدم الطعام للموالين، وحتى بعض الملابس.

أغلقي فمك واخرسي! هناك عملية يتم تنفيذها.

أي عملية؟!

حاولت أن أتحدث بنبرة أكثر هدوءًا وبصوت منخفض، فلم أشأ أن أثير غضبه.

هل نسيت كم كانت السيدة عطوفًا معك؟!

للحظة رأيت في ملامحه بعض الخجل، وطأطأ رأسه وهو ينظر في الأرض ويُقلب التراب بطرف حذائه، وأعرف جيدًا أن هذا هو ما يفعله غالبًا حين يتردد في قول شيء هام. أومأ مشيرًا ناحية الباب ليأمرني بالرجوع إلى الداخل دون أن يقول كلمة. فقلت بهدوء أكثر:

إيفان! هذا أنا التي تحدثك! يوجي! ألا تذكرني؟ سأحضر لك بعض شرائح اللحم المقدد والجبن.

كأن ما قلت أثار أعصابه، فالتقط البندقية من فوق كتفه ودفعني بها في ذراعي لأتحرك إلى الداخل، فتعثرت وسقطت على الجليد. مال ناحيتي وزأر في وجهي:

عودي إلى الداخل!

فعل ذلك لأنه أدرك عدم قدرتي على استيعاب ما يقول. رفعت ذراعيَّ إلى السماء كأنني على وشك أن أتلو صلاتي، وتوسلت إليه كما أتوسل إلى الله في دعائي. والغريب أن ذلك جعله أكثر حنقًا وغضبًا، وصرخ فيّ:

.... وإلا سأطلق عليك الرصاص هنا في الخارج كما لو كنتِ مجرد فأر مزعج!

وقفت على ساقيّ في أقل من ثانية، وانطلقت أعدو إلى الداخل. سمعته من خلفي يصرخ قائلًا شيئًا ما، والتفت لأرى ماذا حدث، فوجدته يلعن ويركل حفنة من الجليد في الهواء. «ما خطبكَ؟!» صرخت في الهواء لأُسمِعه وأنا أسير عبر ساحة القصر متجهة إلى الباب، وتعجبت من أمره لأنني لم أصدق أنه سيقبل الوقوف حارسًا لزملائه الذين اقتحموا بيت من أحسنوا إليه، وتناوبوا على نهبه وإساءة معاملة أصحابه. «أنت تعرف أنهم لم يفعلوا شيئ!».

لكن رده على ما قلت كان صادمًا، فقد تجرأ على ذكر السيدة فيرونيكا بلفظ فاحش لا يقوى لساني على تكراره، ولا حتى لنفسي أو في نفسي. مستحيل أن أكرر تلك القذارة والادعاءات الكاذبة. أعرف جيدًا أن ما قال ليس إلا بدافع الغضب لأنه حمل في قلبه لها ضغينة منذ أن ظن أن أمره لا يهمها. فهو لا يعرف أنها هي من ساعدته على الإفلات من أيدي الألمان. أما أنا، فأعرف. أعرف كل شيء. أعرف أنه حين أُخذ رهينة مع الصبية الفلاحين الآخرين الذين قتل البعض منهم رميًا بالرصاص، تدخلت هي للإفراج عنه. سمعتها ذات مساء تخبر السيد ليو إن: «سيطلقون سراح عاملنا إيفان!»، وأجابها السيد: «حمدًا لله!». سمعت ذلك بأذنيّ اللتين سيلتهمهما الدود. لكنني لم

أخبره أبدًا بما سمعت. لن أنكر أنني حرصت على ألا أخبره. فالناس في الجوار يرتابون في أمر أصحاب الضيعة بسبب تردد الألمان على بودجورسكا. حتى نحن الخدم، ارتابوا في أمرنا. لو أن خبر تدخل فيرونيكا لدى الألمان من أجل إيفان انتشر، وعرفوا أن لها تلك العلاقات القوية بين صفوف القيادة العليا في الجيش الألماني، لساءت الأمور وازدادت الشكوك. تذكرت ساعتها موقفًا حدث من قبل حين رأيت إيفان حانقًا على السيدة، فقلت له دون تفكير:

عليك أن تكون ممتنًّا لها، فقد ساعدتك بقدر لا يمكنك تخيله.

وقتها، أشاح برأسه كبغل عنيد، عقلِه عصي على الفهم، يرفض أن يستجيب للأوامر، وأجابني ساخرًا:

نعم، بالتأكيد! ساعدتني.

لن تتخيل إلى أي مدى ساعدتك.

وجب عليّ أن أفسر له الأمر في تلك الليلة ردًّا على ما ردده عن السيدة نتيجة حنقه. لكنني لم أفعل! لقد أخطأت لأنني لم أخبره بالسر الذي عرفته بالصدفة وأخفيته عنه. ولكن منذ تلك الأيام وحتى هذه اللحظة، تسارعت الأحداث بالضيعة، وفي خضمها إلى الآن لم أكن قادرة على تمييز يميني عن يساري.

ساد الهدوء المطبخ، ولم يكن هناك أي شيء يحدث حين عدت، عدا ترتيب فراني لبعض الأواني التي أحضرتها من غرفة الطعام قبل قليل لتغسلها. ارتعشت يدها وأسقطت بعض أدوات المائدة الفضية أكثر من مرة، في حين ظل باقي الخدم محدقين في الفراغ أمامهم وصامتين تمامًا، ينتظرون ما سيحدث لاحقًا. توقف صوت الفوضى الصاخبة في الطابق العلوي، وبعض الأصوات سُمعت آتية من جهة غرفة الصيد حيث جلس الدخلاء على الطاولة يأكلون. هم يعرفون المكان جيدًا لأن تلك الزيارة لم تكن زيارتهم الأولى. فقد استقبلهم السيد جارنيك عدة مرات من قبل، وضايفهم وأطعمهم، ودائمًا ما رحلوا محملين بكل ما يحتاجون من مؤن. أعرف ذلك لأنني كنت المسؤولة عن إعداد الطعام: تقديم السجق مع الجبن. ولم أظن أبدًا أن مقابل ما نقدمه لهم قد يكون إنكار الجميل في يوم من الأيام. مايتسن، راعي الحديقة من قرية جورينيا، أخبرني أن السيد جارنيك منحهم يومًا آلات طبع، ففهمت أنه يساعدهم بأكثر من الطعام والمؤونة. في أوقات كثيرة، آواهم في كوخ الصيد الخاص به فوق الجبل، ليناموا فيه.

هو رجل فَطِن!

قال لي مايتسن عن السيد ليو.

لا يريد أن يخلق عداوة مع أي طرف. لا مع الألمان، ولا مع أهلنا.

طبعًا أعرف أنه فطن، ولذا وثقت دائمًا أننا في أمان، وأن الأمور ستسير دائمًا على ما يرام بالنسبة لنا. لكن كان علينا أن نشم تلك الرائحة الخبيثة في الجو من حولنا. لقد خُدعنا. هم لم يظهروا ذلك السلوك العدائي من قبل، ولم يحاولوا اقتحام القصر بهذه الشراسة قبل تلك الليلة. أصلًا هم لم يتحركوا أبدًا بحرية داخل القصر، ولم يدخلوا إلى أي مكان سوى المطبخ. والآن أتوا ليحبسونا في المطبخ ويحبسوا السيد والسيدة في غرفة الطعام، ليعيثوا في القصر فسادًا. صادف أن مايتسن في

إجازة حين اقتحموا علينا المكان، ولم يكن هناك سوى خادمتين، وفاني، وبعض العمال، أحدهم يدعى فرانتس، وهو مساعد لمايتسن في الحديقة. بالطبع كانت السيدة العجوز والدة فيرونيكا تجلس في غرفتها بالطابق العلوي. خفت من أجلها كثيرًا لأن صحتها ضعيفة جدًّا، ولو دخل عليها رجل مسلح، قد تسقط ميتة من الرعب. لكن شخصًا وحيدًا تواجد في القصر تلك الليلة لم أكن أعرفه. جلس على طاولة صغيرة في ركن المطبخ يحتسي زجاجة براندي، ويحدق فينا دون أن يوجه لأي منا كلمة. تردد حديث عن أنه مربي خيول من مكان قريب لقرية إيغ شمال ليوبليانا. ولم أعرف لماذا أتى ذلك اليوم، وماذا كان يفعل، ولِم بقي في مكانه حتى المساء –في هذا الشتاء القارس- حين بدأ كل شيء يحدث فجأة. فكرت أنه قد أتى ليبيع حصانًا ما للسيد جارنيك، مثلًا. لا أعرف! كثير من الأشياء التي لم أفهمها حدثت مؤخرًا في القصر، والدليل على ذلك ظني الساذج بأن الأمور تسير على ما يرام. حتى في تلك اللحظة، تصورت أنهم سيجمعون بعض الأشياء التي لا تخصهم –فقد اعتبر الموالون ذلك كما أسمونه (حق استيلاء)- ويحملونها على سيارات، ثم يرحلون.

انفتح الباب، وعبرت منه شابة من الفلاحات إلى الداخل. ارتدت أسفل معطفها الشتوي قميصًا أبيض بياقة، من فوقه حزام لحمل السلاح، تدلى منه بالقرب من خصرها مسدس. وسألتنا:

من تكون يوجي؟

وقفت، فواصلت وهي تضحك بسخرية:

أنتِ إذًا! سمو راعية القصر الطيبة! هل لي بكلمة معك على انفراد؟

سرنا إلى خارج المطبخ، مرورًا بغرفة الصيد، حيث جلس العديد منهم يأكلون ويتحدثون بأصوات مرتفعة، ويتفحصون البنادق الآلية ليفهموا كيفية استخدامها، ويعبثون بروؤس الحيوانات المحنطة المعلقة على الحائط. تجاوزنا غرفة الصيد واتجهنا نحو غرفة الطعام، متتبعين على الأرض آثار أحذية المطر المطاطية المبللة التي يرتديها الدخلاء. في طريقنا إلى غرفة الطعام، مررنا بالكثير من الصبية الشباب الذين سحبوا خلفهم على الأرض أكوامًا من الملابس والأحذية أتوا بها من الغرف، وحملوها إلى الخارج.

جلس السيد والسيدة جارنيك في غرفة الطعام، على نفس مائدة عشائهم الذي تناولوه قبل وقت قصير. شحب وجه السيد جارنيك حتى بدا في بياض ملاءة سرير. بالقرب من نافذة الغرفة، جلس شخص يطلق عليه الصبية لقب «المُفوَّض». كان يرتدي حذاء برقبة، وجاكيتًا عسكريًّا. أما معطفه الطويل، فقد كان معلقًا -إلى جوار بندقيته الآلية المتدلية من حزامها– على ظهر مقعده الذي استند إليه بيد واحدة. حين دخلت إلى الغرفة، لم أر غير ظهره، حيث جلس مواجهًا النافذة بجسده. نظر إلى الخارج كمن يراقب شيئًا ما في عتمة الليل وصرير الشتاء، أو يستغرق في التفكير بأمر ناقشوه لتوهم. رأيت فيرونيكا تبتسم لرؤيتي، فحاولت أن أستفهم منها بإشارات من رأسي وكتفي عما يجري، لكنها لم تقل غير جملتين:

يوجي! أرجوك اصعدي إلى أمي في غرفتها وطمئنيها. قولي لها إن كل شيء سيكون على ما يرام واطلبي منها ألا تقلق عليّ.

لاحظت أنها والسيد ليو قد ارتديا ملابس الخروج استعدادًا لمغادرة القصر ارتدت فيرونيكا بنطال ركوب الخيل وبلوفر، بينما ارتدى السيد جاكيت الصيد الشتوي، وأسند إلى ركبتيه معطفه الطويل

الذي غالبًا ما يأخذه في رحلات الصيد الشتوية. كلاهما ارتديا أحذية المطر المطاطية. لم أستطع أن أمنع نفسي عن السؤال:

إلى أين أنتم ذاهبون؟

تحرك المفوض من مكانه، في حين صمت كلاهما ولم يجيباني، فأجاب هو أخيرًا وهو يلف جسده ليواجهني:

إلى برلين! ستذهب السيدة جارنيك إلى برلين، بما أنها تحب هذه المدينة كثيرًا. أما السيد جارنيك، لا نعرف بعد.

ثم قال ممازحًا وعلى وجهه ابتسامة غير مريحة:

هل تحبين أن ترافقينهما، يوجي؟

لم أتلق المزحة بروح مرحة، وسألت نفسي دون أن أجيبه بكلمة: «كيف يعرف كل هؤلاء الغرباء اسمي؟ ومن أخبرهم أن السيدة جارنيك سبق وأن عاشت في برلين؟» لحظتها لم أفكر سوى في إيرانيك، مع احتمال وضع مايتسن راعي الحديقة كذلك في الاعتبار. يبدو أن كل هؤلاء يعرفون كل شيء عنا منذ وقت طويل. يعرفون كل شيء عن زيارات القصر، وجولات السيد جارنيك حول البحيرة مع الدكتور هورست، وعن عازف البيانو والرسام، والضباط الألمان، وغيرهم من الزائرين. فهمت أنهم سيأخذونهما معهم، وبدأت أتلفت حولي في يأس، وكأنني أبحث عن حل لتلك المصيبة. وبينما كنت أتفحص المكان، لاحظت أن سلك الهاتف منزوع عن المقبس، فارتعبت أكثر. هؤلاء يعاملوننا على أننا سجناء هنا في الضيعة، خاضعون للحراسة الشديدة، ومنعزلون عن العالم الخارجي تمامًا. نحن حرفيًّا تحت رحمتهم. فقط في تلك اللحظة عرفت أن النهاية لن تكون على ما يرام. تدفقت الدموع في عيني دون أن أشعر، فقد أحببت هذين الزوجين كثيرًا، وبدأ رأسي يزدحم بذكريات الحياة في القصر، خاصة حين رأيت أسلاك الهاتف المنزوعة واسترجعت اللحظات التي جلس فيها السيد جارنيك إلى جوار الهاتف، يتأكد من أنه موصول بالتيار، في انتظار مكالمة من فيرونيكا كل مساء حين سافرت إلى برلين. لقد كان قلقًا عليها، ولم يهدأ له بال طوال فترة غيابها. أحبها كثيرًا! نعم، فلو لم يكن عاشقًا لها، فلم تزوجها للمرة الثانية، حتى لو في احتفال ساخر؟ حين قال المفوض إن السيدة جارنيك ستذهب إلى برلين، سيطر عليّ الشعور بأن ما قال هو نذير شؤم، بالذات حين رأيت أسلاك الهاتف مقطوعة وملقاة على الأرضية. لم أتمالك نفسي وبكيت وأنا أقول لفيرونيكا:

بالتأكيد لن تغادرا القصر ليلًا في هذا الصقيع؟

بل سيغادران، سيغادران بالتأكيد.

أجابني المفوض نيابة عنهما، وأضاف:

الآن، افعلي ما أمرتك به السيدة!

مشيت تجاه الباب، مرورًا بالفتاة ذات المسدس التي أحضرتني إليهم وظلت واقفة إلى جواري. قبل أن أخرج من الباب، نظرت للوراء مرة أخرى، ورأيت فيرونيكا وعينيها الحزينتين، وشعرت أنهما

يقولان لي: «اعتني بأمي!». لطالما قالت لي هذا في كل مرة أوشكت فيها على الذهاب في رحلة، ومنها تلك الرحلة؛ «اعتني بأمي جيدا، أنتِ تعرفين أن صحتها ليست جيدة».

آخر مرة رأيتهما عن قرب كانت من وراء الدموع التي فاضت في عيني؛ هو بوجه شاحب كوجوه الموتى، ويدين مرتعشتين تقبض على معطفه الشتوي، وهي ببنطال الفروسية، ونظرة شاردة خالية من أي تعبير سوى الحزن، وابتسامة مقتضبة -ارتسمت على وجهها فقط وهي تطلب مني الاعتناء بأمها- سرعان ما اختفت. مسحت الدموع عن عيني جيدًا لكي لا يبدو منها شيء وأنا أتحدث إلى السيدة يوسيبينا حتى لا أثير قلقها ومخاوفها. انطلقت بسرعة إلى غرفتها، فوجدتها ترتدي ملابس الخروج أيضًا، وتجلس على طرف سريرها. حين رأتني نادتني:

يوجي!

فتظاهرت بالهدوء –أجبرت نفسي على أن أبدو هادئة- رغم أن كل ذرة فيّ كانت ترتعد من الخوف والحزن.

سألتني هي الأخرى بهدوء:

من هم هؤلاء الناس الذين يجولون في أنحاء البيت؟

فأخبرتها أن السيد والسيدة جارنيك استقبلا ضيوفًا من ليوبليانا.

هل ما تقولينه صحيح؟ إذًا، لماذا يفتحون الكبائن ويصفقون الأبواب؟

قضت السيدة يوسيبينا العام الذي سبق تلك الليلة بأكمله تقريبًا في غرفتها. تنظر في الصور وتقرأ الرسائل القديمة. فما وراءها من الحياة أطول بكثير مما قد صار أمامها. لديها ذكريات عمر طويل، كان أهم ما فيه أنها أنجبت فيرونيكا في سنٍ متأخرة، حين ظنت أنها من المستحيل أن تنجب أو يكون لها عائلة. مؤخرًا، فضلت الانشغال بذكرياتها عن التدخل في ما يجري من حولها. صعب عليها السير كسابق عهدها، ولأنها أحبت التجول في محيط القصر، كنا نساعدها على الهبوط أحيانًا إلى الدور الأرضي، ونأخذها إلى الخارج لتجلس على المروج أو أمام البحيرة تستمتع بالمنظر لبعض الوقت. بعد أن تجلس قليلًا وتشرد، تطلب منا أن نعيدها إلى القصر. استغربت من سعادتها في صحبة الصور التي أعرفها جميعها لأنني كثيرًا ما جلست معها وهي تقلب فيها. معظمها تجمع بينها وبين زوجها المرحوم؛ على شرفة الفيلا التي أقاموا بها في مدينة على الميناء، في نزهة بإحدى الحدائق في ليوبليانا، في رحلة عبر إيطاليا، ولقطة لهما في فينيسيا وحولهما الحمام يطير. وجوه ومدن ومساحات خضراء في مئات الصور على مدى حياتها. تلك الأماكن والأوقات التي قضت فيها أسعد لحظاتها. ظنت أنها قادرة على إحياء الماضي حين انعزلت مع ذكرياتها، حتى من قبل أن تأتي للإقامة في بودجورسكا. ربما من بداية الفترة التي رحلت فيها فيرونيكا إلى منطقة ما في الجنوب من صربيا، أو ربما في مكان آخر، وتركتها وحدها في ليوبليانا. امرأة تعيش في شقة كبيرة خالية، حرمت حتى من زيارة ابنتها الوحيدة المقربة لقلبها. ماذا ستفعل في وحدتها سوى اللجوء إلى الماضي بذكرياته في ألبومات الصور لترى نفسها وزوجها في أزيائهم الأنيقة وقبعاتهم البيضاء؟ حين عادت السيدة فيرونيكا إلى السيد ليو، أحضرت معها أمها التي كانت عندئذ قد طعنت في السن، وقل تركيزها في الأشياء التي تحدث من حولها. سمعتها أحيانًا تغني أغنية ما بالإيطالية وحين سألتها، قالت:

هذا لحن من إستيريا، تعلمته في ريكا. أونا مولا دي بارينزو...

حفظتُ الكلمات عن ظهر قلب، وعرفت أنها تحكي قصة فتاة من بارينزو تدعى بوريتش، شعرها أسود وليس أشقر، وتبيع السمك.

لماذا تحبين هذه الأغنية إلى هذا الحد؟

سألتها ذات يوم، فراحت تحكي لي قصة حياتها في تلك المدينة التي تطل على الميناء، وعن رقصة ما في مقهى. لمعت عيناها وهي تحكي، فشعرت بأن قلبها يحيا في زمن مضى، لم يعد له وجود، وأن سلواها الوحيدة هي أن تمتع نظرها برؤية نفسها في صحبة أناس أحبتهم لم يعودوا قريبين منها، لأنهم رحلوا أو فارقوا الحياة، وكأنها تعيد إحياء تلك اللحظات في الحاضر.

كيف كنت سأشرح لها هذه المصيبة في ذلك المساء، أقصد: في تلك الليلة؟!

من الأنسب أن أصفها بالليلة لأنها طالت كثيرًا، وكان الليل قد حل بالفعل في الوقت الذي توجهت فيه إلى غرفة السيدة العجوز لأتحدث معها. حين سألتني عنهم، لم أستطع أن أفسر لها هوية هؤلاء الذين اقتحموا البيت ليفتحوا الكبائن ويصفقوا الأبواب. كيف أفعل؟ كيف أخبرها أن إيفان –واحد منا- يقف على البوابة الرئيسة حاملًا بندقية آلية؟ كيف ستفهم تلك العجوز المسكينة السبب الذي يجعل ابنتها محتجزة في غرفة الطعام، ومرتدية ملابسها تأهبًا لمغادرة بيتها، أو مجبرة على مغادرته إلى مكان ما غير معلوم، بصحبة غرباء مسلحين؟ كيف أفسر لها أن السيد جارنيك الذي تحبه من قلبها وتعتبره ولدًا ثانيًا لها، والذي تراه أفضل رجل في العالم، يجلس في نفس الغرفة مع ابنتها مرتديًا ملابس الصيد ومستعدًّا للمغادرة أيضًا؟ هي لم تحبه بهذا القدر فقط لأنه رحب بعودة ابنتها فيرونيكا بعد أن هجرته لفترة طويلة، بل لأنه تقبل وجودها معهما في القصر أيضًا، ولأنه ظل يزورها أثناء غياب ابنتها التي تركتها لتعيش في بلد غريبٍ ناءٍ في الجنوب. ربما ليس لكل هذه الأسباب أحبته، وأن مبررها هو ما اعتادت أن تقوله عنه:

ليو رجل طيب، ناجح في أعماله، ويعرف كيف يجني المال، وقلبه عطوف! أنت تعرفين، من الصعب أن يكون الرجل ناجحًا في أعماله وفي الوقت نفسه طيب وعطوف. كلا الأمرين غالبًا لا يتفقان، ولكن في حالة ليو، فالموضوع مختلف. لقد استطاع أن يجمع بين هذا وذاك.

إنما هؤلاء الغرباء المقتحمون لم يروه هكذا، وغيرهم كثيرون. لو رأوه كما تراه السيدة العجوز، والدة فيرونيكا، لما حبسوه في غرفة الطعام وسببوا له كل هذا الرعب. كيف أخبرها أنه ارتدى ملابس الصيد في انتظار أن يغادر القصر، ولكن ليس في رحلة صيد كعادته؟ في النهاية، قررت ألا أخبرها الحقيقة. اكتفيت بأن أدعي أنهم مدعوون إلى حفلة ما أقامها السيد ليو، وبعد انتهائها لم يرغبوا في التوجه مباشرة إلى غرف النوم. نعم، على الأقل ستفهم ذلك. سيقنعها لأنه شيء اعتادت على حدوثه. لقد حضرت حفلات سابقة في القصر دعي إليها ضيوف لم يكن من السهل إخراجهم من غرفة الطعام بعد انتهاء الحفل. كان الأمر يستغرق وقتًا لحملهم على التوجه إلى الباب للمغادرة، أو إلى إحدى غرف الضيوف للنوم. ظننت أنني أقنعتها بما قلت، وجلست إلى جوارها على الطاولة، حيث بدأت تقلب صفحات ألبوم الصور للحظات. لكنها ما لبثت أن فقدت أعصابها بعد أن ساورها القلق مرة أخرى؛ وسألتني فجأة:

لماذا تروحين وتجيئين على النافذة؟

كانت محقة، فأنا لم أهدأ في مكاني. ظللت أنهض كل عدة دقائق، وأنظر من خلف ستائر النافذة على الساحة الخارجية للقصر. بعض الضوء من غرفة الطعام انعكس على جزء من الحديقة، ورأيت ظلًّا لشخص يسير قريبًا من باب القصر بلا توقف، ويركل الجليد تحت قدميه من وقت لآخر، فعرفت أنه إيرانيك. فتعجبت في نفسي؛ «آه يا إيفان! يا إيرانيك! يوم ما أسمعك تغني بصوت جميل في جوقة الكنيسة، ويوم آخر تقف في ساحة منزل السيدة التي أكرمتك، وتركل الجليد بقدمك، وتنتظر أن تأخذها من بيتها غصبًا. تأخذها من بيت الرجل الذي طالما أثنى على عملك وجهدك، ودفع لك مقابله بسخاء. وتقول عنهما كلامًا خبيثًا قذرًا يؤذي سمعي كما فعلت منذ دقائق في الخارج. حين أخبرتك أن تدخل وتتحدث إلى رفاقك، الناس الذين تنتمي إليهم، عشيرتك. أن توضح لهم أن هناك سوء فهم، وأن هذين الزوجين لم يقترفا خطأ ولا سبب لاحتجازهما أو خطفهما». وبينما شردت وأنا أراقب إيرانيك، في معطفه العسكري والبندقية المتدلية فوق كتفه من حزامها، وحركته المضطربة، مر بخاطري شيء كنت قد نسيته تمامًا. وفي لحظة، تكشف لي حل اللغز الغامض الذي لم أفهمه، حين سمعت هذا الصبي المجتهد الغبي ينطق بتلك الكلمات النابية. فقبل تلك الليلة بعام أو يزيد، وذات صباح باكر جدًّا ومشمس، رأيت إيرانيك وأنا على وشك أن أغادر القصر قبل الإفطار. هذا الصبي الدؤوب أبكر ليجز عشب المزرعة كعادته. وحين مر بي في الساحة الخارجية أتى نحوي وقال لي:

يظهر أن سيدتك تحب الألمان كثيرًا.

ضحكت رغمًا عني، وأجبته مستغربة:

ماذا تقول يا إيفان؟ هؤلاء ضيوف وعلى أصحاب البيت مقابلتهم والترحيب بهم.

إنهم يأتون في الزي العسكري.

لم يكن هناك جليد كما هي الحال الآن يغطي ساحة القصر، ليركله إيرانيك وهو يراقب الباب روحة وجيئة. بل كان الجو صيفًا مشمسًا. حرك قدميه في التراب وهو ينظر إليه بتركيز كأنه يرسم شيئًا ما، ربما لأنه شعر بالإحراج مما يقول. بالتأكيد من يقول شيئًا كهذا يجب أن يكون خجلًا. قلت له:

طبعا سيأتون في زيهم العسكري، فهم لم يحضروا معهم إلى البلاد أي ملابس مدنية.

وضحكتُ مرة أخرى لأنني ظننته يقول ذلك من باب المزاح، ليس إلا. وأردفت:

الزائرون أحيانًا ما بين أصدقاء من ليوبليانا، ورجال أعمال، وأدباء، ورسامين، وأحيانًا ألمان من كراني. لو أنك صاحب البيت، لن تطرد الزائرين.

ظل يحدق في الأرض، ويحفر في التراب بقدمه، حتى صنع حفرة صغيرة، وقال دون أن يتوقف عن الحفر:

هناك واحد بعينه تحب هي أن تراه.

من هذا الذي تقصده؟

تسلل الغضب إلى نبرة صوتي وأنا أسأله، حتى إنني أشعر بالغضب الآن حين تذكرت الموقف،

فأجابني:

الضابط الطبيب.

هل ترى ذلك في أحلامك؟

لقد رأيتهما اليوم في الصباح معًا حين أتيت لجز العشب. كانا يقفان على البحيرة عند شروق الشمس.

أيها الأبله! لقد أقمنا حفلًا موسيقيًّا الليلة الماضية، حيث عزف السيد فيتو على البيانو، وكان هناك عشاء كبير.

واستمر حتى الصباح؟

وما شأنك؟

ازداد غضبي، وأكملت:

لا تتدخل في ما لا يعنيك!

ألا أن ذلك لم يثنه عن فضوله، ذلك البغل العنيد!

وأين كان صاحب القصر؟

كان قد ذهب إلى فراشه. أنت تعرف أنه لا يشرب في وقت متأخر، وهو ليس مُسهِب في الحديث مع الناس كعادته. وهي أرادت أن تسير إلى البحيرة مع الضابط الألماني. هذا الذي تعنيه، إن كان هو. الدكتور هورست. هو يكن لها الاحترام الشديد.

قهقه إيفان حتى مال بجسده إلى الأمام من الضحك، ولم يزل يعبث بالرمل تحت قدميه، وقال ساخرًا:

بالتأكيد هو يكن لها الاحترام.

هذا صحيح! هو يحترمها.

وأكملت بنبرة حادة:

الجميع يحترمونها، وأنت من بينهم. أو كنتَ، من قبل. لطالما كانت كريمة معك وعطوفًا عليك! وأنت الآن تقول عنها ذلك الكلام القذر الذي لا أساس له. لقد جعلتني أخجل منك. ماذا ستقول خطيبتك بيبتسا عنك؟ من كان ليأخذها إلى المستشفى ويعالجها إن لم تكن السيدة جارنيك قد فعلت؟ اسمع! إن لم تتوقف عن أقاويلك في الحال، فسوف أخبر بيبتسا. ولن ترضى عما تقوله لأنها تحترم السيدة جارنيك.

أتظنين أنها لا تعلم؟ الجميع يعلم. الجميع يعرف أنها تفضل صحبة الألمان على أي أحد آخر.

لقد اكتفيت منك الآن. خذ هذه المجرفة وقم بتسوية الأرض تحت قدميك بعد أن ظللت تحفرها كخنزير شارد في الغابة. ولا أريد أن أسمع منك شيئًا مشابهًا لما قلت الآن مرة أخرى.

توقف عن حفر الأرض بقدميه، ورفع رأسه لأعلى، ونظر في عيني، وقال:

أنت تعرفين يا يوجي، أهلنا لا يعجبهم ذلك، وأخشى ألا ينتهي الأمر على خير.

أهلنا؟!

في أثناء هذا الحديث لم أكن على علم بأن له علاقة بالحطابين –هكذا كنا نسمي البارتيزان– فلا شيء يثير الشبهات صدر من هذا الصبي الذي كان يعمل بإخلاص وهدوء في جز العشب، وتجميع القش، ونقل العوارض لتغطية سقف الإسطبل، ويسلي نفسه أثناء عمله في الغابة بالصفير والدندنة، ويدور بدراجته في أنحاء المزرعة سعيدًا، ويغني في جوقة الكنيسة. إيفان هذا الذي عرفته وقتها يستحيل أن أتصور وجود أي صلة بينه وبين من أسماهم «أهلنا». بعد هذا الحديث، قضى بعض الأيام في سجن ما بكراني حين قبض عليه الألمان مع مجموعة من أهل القرى الواقعة عند سفوح التلال على مشارف جبل ستيب. ومن أنقذه من الهلاك في سجنه؟! فيرونيكا هي من أنقذته. وكيف؟ برجاء إلى الدكتور هبماير ليساعده. الرجل الذي تحدث عنه بغضب وهو يحفر الأرض تحت قدميه كأي غيور أبله. حين ذكر أمامها أن إيرانيك قبض عليه عن طريق الخطأ، استجاب الطبيب لطلبها وضمنه حتى يتم الإفراج عنه. فكرت كثيرًا أن أخبره بالحقيقة، وخشيت من عقله المريض. ماذا كان ليفكر وقتها؟ ربما تأكدت له شكوكه فيها، وبرر لنفسه ظنونه بها. لقد عرف أن السيد جارنيك يساعد الحطابين، ونحن جميعًا عرفنا ذلك. وهذا في حد ذاته كان كافيًا ليرضوا عن عائلته. أو من المفترض أنه كان كافيًا.

من المفترض أن تشعر بالامتنان نحوها! ألم تأخذ خطيبتك بنفسها إلى المستشفى؟

لقد أحبته بطريقتها، ودائما أشارت إليه بـ «إيفان، رَجُلنا»، «يجيد رعاية الخيل أفضل من أي أحد آخر». بالطبع أحبته بطريقتها، وعاملته بالضبط كصديق، وليس كعامل. لقد حكت لي كيف كانت حياتها في صربيا، وذكرت لي أنها وشريك حياتها القديم –ذلك الشريك المؤقت الذي أقامت معه لفترة- عاشا حياة صعبة هناك. لدرجة أنها اضطرت لأن تربي الدجاج في تلك المدينة الصربية الصغيرة، ورغم أن ما قالته لا يصدق، لكنني صدقتها. لم تتعامل مع أحد أقل منها بتعالٍ ولا كبرياء قط، رغم كونها سيدة الضيعة، لذا أحببناها من قلوبنا! ذات مرة، أهدتني ملابس داخلية حريرية، وقالت لي: «أنتِ طيبة جدًّا معي!»، والحق أنها هي التي كانت طيبة معنا جميعًا دون استثناء، بما فينا هو –إيفان-.

لا تخلطي الأمور، هذا شيء وذلك شيء آخر. كونها ساعدت بيبتسا لا يعني أن من حقها أن تسير إلى البحيرة مع ضابط ألماني.

تمنيت لو استطعت أن أفحص عقله لأفهم ما يدور به، وكيف يفصل بين عادات فيرونيكا في التمشية وكرم أخلاقها مع بيبتسا، أو يرى من وجهة نظره أن الأولى قد تمحو فضل الثانية؟ لم أجد ما أقوله بعد أن زاد يأسي من تفكيره غير أن أرجح أنها طلبت منه أن يرافقها في سيرها. فلم يزد ذلك الأمر إلا تعقيدًا حين أجابني بتحدٍّ:

أكيد! هذا الضابط سيطيعها في أي شيء تطلبه. وربما أنها في المقابل تطيعه أيضًا، وفي أي شيء. الآن، وكل وقت.

أصدرت فحيحًا كالأفعى، وقلت له بنبرة حادة:

لقد زاد الأمر عن حده، فاغرب عن وجهي الآن!

رغبتُ في أن أفقأ عينيه قبل أن يتحرك متكاسلًا ويسير بعيدًا. تبعته إلى أن وصل عند بوابة الضيعة، ونظر عبر كتفه تجاهي. فرفعت سبابتي لأحذره، ذلك الأحدب المترهل!

لم أستغرب أنه يحب مراقبة السيدة جارنيك، وتتبع خطواتها. جميع الرجال –حتى الذين يصغرونها سنًّا- يحبون النظر إليها وتتبعها بأنظارهم، وأحيانًا فسروا عطفها عليهم وجمال روحها في التعامل معهم بشكل آخر. يبدو أنه يخفي إعجابه بها، وفقد رشده حين رآها عند البحيرة في ساعة مبكرة مع الدكتور الطيب السيد هورست. يوم حدث هذا الموقف بيني وبينه، لم أقف عنده كثيرًا، فقد كان لدي أشياء أكثر أهمية لأقلق بشأنها. إضافة إلى أنني لم أشك أبدًا أن شيئًا بينهما سوى الإعجاب، وفي حدود الصداقة. لقد كانت وفية لزوجها، وكان الحدث الأسعد في بودجورسكا هو حفل زواجهما الثاني. مع أنه كان حفلًا رمزيًّا، فلا طلاق وقع بينهما بالأساس. ما حدث باختصار هو أنها رحلت عنه ثم عادت. وكان جميلًا منه أن سامحها على هذا. مثل تلك الدرجة من التسامح لا يبلغها إلا أفضل وأرقى الرجال. جميعنا دُعينا إلى الحفل الساخر بعد وقت قصير من إقامتها في بودجورسكا. حملنا الطاولات من غرفة الطعام إلى الساحة الخارجية، وألقى رجل من ليوبليانا –يلقبونه بالشاعر- خطبة ممتعة، وفي نهاية الحفل، ربط الرجل يدي كل منهما بالآخر بسلسلة، وقال: ليكن الرباط بينكما أبديًّا. ثم أضاف –كقس يقوم بطقوس الزواج في الكنيسة- «إلى أن يفرقكما الموت». حضرتُ في حياتي الكثير من حفلات الزفاف، ودائمًا كانت تلك الجملة التي يقولها القس في نهاية الطقوس تثير مشاعري، فتختنفق الزفرات في صدري وتسقط العبرات من عيوني. وطبعًا لم أتمكن من حبس دموعي آنذاك أيضًا، مع أني عرفت أن الحفل كله بهدف المزاح، ورغم أن الحضور ضحكوا حين قال ذلك، وأضحكهم كانت العروس. وتناول السيد جارنيك –الذي بالعادة لا يشرب سوى الماء- كأسًا من الخمر في تلك الليلة، بناء على طلب الشاعر الذي قال إن النذور لن تسري بالسلاسل وحدها، وإنما بالخمر أيضًا. هكذا تمت مراسم الزفاف الغريبة لعزيزتي السيدة فيرونيكا.

أما أنا، فحدسي أخبرني أنها تحب ليو، وأن النذور ستسري وتتحقق، بالرغم من أنها لم تنس حبها الكبير الذي فارقته لتعود إلى زوجها. ذلك الحب الذي جعلها تهجره لفترة. ظلت الرسائل التي كُتبت عناوينها باللغة السيريلية تتوالى على الضيعة بعد أن عرف رجال البريد اسم المرسل إليه بصعوبة. لم تفتح السيدة فيرونيكا واحدًا منها، وأخبرتني أن ألقي بها بعيدًا. خمنت أنها قلقة من أن تثير الرسائل مشاعرها وتحرك قلبها، وتملؤه بالحزن. كامرأة، أعلم تمامًا أن ذكريات حب مضى يمكن لتأثيرها أن يكون أقوى من القيود التي نقيد بها أنفسنا، ولو كانت مجرد سلاسل نضعها بهدف المزاح والسخرية. في مرة قرأت أنا وفاني الطاهية واحدة من تلك الرسائل قبل أن أتخلص منها. وقد جعلتنا نبكي. كلمات ستيفان هذا -الرجل الذي هربت معه إلى صربيا- مؤثرة وأسلوبه رقيق. بدا أن غيابها سبب له جرحًا عميقًا. لو أنها كانت تقرأ تلك الرسائل، لبكت مثلنا. لصالح علاقتها ولصالح هذه العائلة، اتخذتِ القرار السليم بألا تقرأ رسائله. تخيلتُ أن كل رسالة منها ستنتهي بنفس الخاتمة في الرسالة التي قرأتها مع فاني: «عودي يا حبيبتي!». كتبها مرة باللغة الصربية، ثم أعادها بالسلوفينية.

يوجي!

نادتني السيدة العجوز:

لماذا تقفين أمام النافذة؟!

شعرت بالارتباك من سؤالها، لأنني أحسست أنها كلما رأت أفعالي تستنكر أقوالي. واستمررتُ في الكذب:

أراقب بعضهم وهم يرحلون الآن. أنتظر أن يرحلوا جميعًا.

بالطبع أكذب، وهل يمكن أن أقول الصدق؟ واصلت التفنيد:

ما زال بعضهم يجلس في غرفة الضيوف، والآخر يرحل الآن. سأبدأ التنظيف بعد أن يرحلوا جميعًا، وسأكمل ما تبقى غدًا.

شعرت أن السيدة يوسيبينا تعرف أن هناك شيئًا غريبًا يحدث في البيت. وبرغم أني ارتعدت من الداخل، وأن نبض قلبي لم يبطئ تسارعه، استجمعت قواي وجلست إلى جوارها على الطاولة ثم فتحت الألبوم وقلبت في الصور محاولة أن أتصرف بطبيعية، ثم قلت لها وأنا أنظر في إحدى الصور:

ارتديتِ قبعة جميلة جدًّا!

تجاهلتني، واستمرت في التحديق تجاه النافذة بقلق، فواصلتُ الثرثرة للفت انتباهها:

أظن الطقس كان حارًّا جدًّا على ساحل الميناء.

نعم! في بعض الأحيان كانت الحرارة تزداد بقوة. عندئذٍ، أحببنا أن نذهب إلى أوباتيا لنسبح.

تنفست الصعداء حين بدا لي أن السيدة العجوز بدأت تنخرط في ذكرياتها من جديد. كثيرًا ما حدثتني عن حياتها الماضية، وكيف عاشت، وإلى أين ذهبا في رحلة إستيريا، وكذلك عن إقامتها في ليوبليانا، والوقت الذي قضوه في فيينا، وزياراتهم للمسارح والأوبرا هناك.

لقد أحببتِ الرقص!... ماذا تقول تلك الاغنية التي أحببتِ الرقص على لحنها؟ فيرونيكا تعرفها جيدًا.

أجابتني بنظرة حالمة:

هل تعنين (بيوندا)؟

نعم، بالضبط! المرتبطة بذكريات زواجك.

لا، لم يكن هناك زواج بعد! لقد سمعناها حين عرض عليّ الزواج وأجبته بأنه قدم لي العرض في الوقت المثالي.

ضَحِكَتْ، فشعرتُ بأنني في حال أفضل من ذي قبل. وتوقفت عن التحديق باتجاه النافذة، واستراق السمع للأصوات المائجة بالأسفل. عرفت من ملامحها أنها لم تعد تستمع إلى أي أصوات في الخارج. عينها صارت مثبتة على مشهد ما رأته منذ زمن طويل، مشهد من الماضي البعيد. اختفى من حولها برد تلك الليلة الشتوية القارسة، وضوضاء الزائرين الغرباء. لا ترى نفسها في هذه

الغرفة بعد الآن، وإنما ترى نفسها جالسة في مقهى، بينما تقف السفن في مراسيها بالميناء، وتشم رائحة البحر الدافئ.

تقول... «توتتي مي كيامونو بيوندا، ما بيوندا إيو نو سونو»، ومعناها.....

وبدأت تخبرني بما أعرفه وما سمعته منها مرات عديدة من قبل:

«... ولكنني لست شقراء»، أليس هذا مضحكًا؟ إلى اليوم لا أفهم لِم نادوها لا بيوندا! الحقيقة أنني أنا من كانت شقراء. بشعر ذهبي وناعم مثل فيرونيكا، وغالبًا لقد ورثته عني. حتى هذا الشاعر يدعوها «ذات الشعر الجميل الناعم». كان لبيتر شعر كستنائي، مائل إلى المجعد.

واصلت حكاياتها، وبدأت من لحظة طلب بيتر من العازفين أن يعزفوا الأغنية. وهدأتُ تمامًا لما تأكدت من أنني نجحت في إلهائها. بعض الشعور بالذنب وجد طريقًا إلى ضميري بعد كل هذا التضليل الذي مارسته عليها، هذا غير الألم الذي نغّص عليّ هذا الشعور المؤقت بالهدوء كلما تذكرت ما يجري بالدور الأرضي. مجرد أنني نفذت طلب فيرونيكا يكفي ليشعرني ببعض الراحة. فقد استطعت أن أشغل والدتها بالماضي: الصور والذكريات والأغنية التي طالما فسرتها لي مرات عديدة بالحرف. حتى أصبح من الممكن أن أعود إلى النافذة مرة أخرى لأتفقد الأمور. لاحظت أن الضوء الساقط على موقع إيرانيك في الساحة صار أكثر سطوعًا بعد أن أضاء شخص ما إحدى غرف الدور العلوي. رأيته ينظر لأعلى باتجاه الغرفة المضاءة، وتبينت ملامحه بوضوح هذه المرة. شعرت أنه على وشك أن يقول شيئًا ما. طالت لحيته، وأحكم وضع قبعته العسكرية على رأسه. تمنيت ألا يكرر ما قاله منذ قليل في الساحة الخارجية، حين صاح فيّ: «إذًا أنت الآن تعرفين، يوجي، أن سيدتك ليست سوى عاهرة ألمانية!».

صعب عليّ لوهلة أن أصدق ما قاله الصبيُّ الهادئ الطيب، ولم أتخيل –ولا حتى إلى هذه اللحظة- ما الذي يدور برأسه تحديدًا ليدفعه إلى قول ذلك. ثم إنه ليس من المنطق أن يكره كل من له صلة بشخص ألماني الجنسية لأنه صار جنديًّا من قوات الحراسة. أفهم تمامًا معاناتهم: الجوع والاختباء والحياة التي تشبه حياة الوحوش الضارية في الغابات، والهرب الدائم من الألمان الذين طاردوهم وتعقبوهم كصيادين شرسين انطلقوا في إثر طرائدهم. ويمكنني أن أتخيل إلى أي مدى قد ملأ هذا المفوض رأس إيرانيك بكراهية الأغنياء المسالمين المرفهين، الذين لا يعبؤون بمن يعيشون في بأس وفقر وتعاسة. المشكلة أن ذلك لم يكن كل شيء، فالأمر بالنسبة لإيرانيك يتعدى كراهية الأغنياء. هناك شيء آخر يحرق قلبه، ويقتات على دمه وأعصابه. الشيء الذي رأيته في عينيه حين حفر تلك الحفرة في الرمل تحت قدميه وأخبرني بأفكاره عما يجري بين الدكتور هورست والسيدة، وما رأى عند البحيرة حيث وقفا ذلك الصباح. ومن المحتمل أن الكراهية قد سبقت الغيرة والرغبة في الانتقام بفترة طويلة، حتى من قبل أن يكون هناك موالون وألمان.

شَهدتُه يتقدم نحو الباب بمجرد أن أطفأ أحدهم أضواء الدور الأرضي. صار المشهد في الساحة الخارجية أكثر قتامة بعد أن خفت الضوء ولم يعد ينير أنحاءه سوى ضوء القمر. شخص ما كان يعدو باتجاهه قادمًا من داخل القصر ليخبره بشيء ما. بعدها بلحظة، بدأ الزوار الغرباء في الخروج تباعًا من القصر. حاولت السيدة العجوز النهوض من مكانها، فخشيت أن تفكر في إلقاء نظرة عبر النافذة إلى الساحة. لكنها مدت ذراعيها في الهواء فجأة، ثم غنت أغنية الفتاة ذات الشعر

الداكن. في الخارج، تتابعت حركة الظلال السوداء في الظلام، ورأيت وسطهم ظلي السيد جارنيك مرتديًا معطفه الطويل، والسيدة فيرونيكا مرتدية كذلك معطفها وتمسك قبعة ركوب الخيل في يدها. رمى القمر بأشعته الفضية على شعرها المنسدل المتطاير، بينما علا صوت أمها وهي تغني: «توتتي مي كيامونو بيوندا، ما بيوندا إيو نو سونو»، وتدور راقصة بأنحاء الغرفة، تحملها ذكرياتها وتطير كريشة في الهواء. وقفوا مجتمعين في الساحة الخارجية في انتظار واحد منهم قد عاد إلى القصر مرة أخرى، ثم يرجع حاملًا ثلاث أو أربع بنادق صيد. يبدو أنهم قد نسوا أمر تلك الأسلحة. أبقى واحدة منها فوق كتفه إلى جوار بندقيته، وسلم البقية للآخرين. حمل كل واحد منهم حقيبة ظهر منتفخة، امتلأت بالملابس والألحفة، وغيرها من الأغراض القيمة الأخرى التي أخذوها من القصر. من المنطقي أن يحتاجوا إلى الألحفة والبلوفرات والجواكيت في هذا البرد القارس، ولكن ما حاجتهم إلى أدوات المائدة الفضية، ومعاطف الفرو باهظة الثمن؟ من المحتمل أنهم يرغبون في بيع هذه الأشياء واستخدام المال لشراء الطعام والذخيرة. أو أنه أعجب هذه الفتاة التي ترتدي قميصًا أبيض بياقة وزيًّا عسكريًّا، فأرادت أن تحصل عليه. أي شخص في موقفي كان سيفكر في عشرات الاحتمالات لتفسير هذه الأحداث العجيبة! تحركوا باتجاه البوابة الرئيسة ثم اختفوا، ولم تزل السيدة العجوز تغني وترقص، إلى أن تعبت وجلست على طرف الفراش.

أتعبتني قدماي! كم رقصت بهما، وذهبت في رحلات سير في الغابات الجبلية دون كلل.

ثم نظرت لي:

الآن، انظري ماذا حل بهما! لم أعد قادرة حتى على السير إلى البحيرة.

عاد الغرباء للظهور على الطريق مرة أخرى، بعد أن عبروا الغابة إلى ممرات التلال المغطاة بالجليد، سائرين في صف طويل، في الوسط منه ليو وفيرونيكا. دلفوا إلى طريق غائر، تراكم الجليد على جانبيه، ثم شقوا طريقهم لأعلى الغابة. هُيئ لي أن من بينهم مدرب الخيول الذي رأيته للمرة الأولى في ذلك اليوم. أدار ليو رأسه لينظر خلفه نحو الضيعة. لم أتمكن من رؤية وجهه لأنه كان على مسافة من القصر. أما فيرونيكا فطأطأت رأسها كأنها تراقب وقع خطواتها على الجليد. قبل ساعة أو ساعتين، رأيت ملامح وجهيهما جيدًا في غرفة الطعام، وما زلت أذكرها. وأذكر بالتحديد ابتسامتها التي أخفت كثيرًا من الحزن والخوف. والآن، أتابع ظليهما يسيران في حراسة صف عسكري مسلح. هكذا رأيتهما للمرة الأخيرة.

التفتُّ تجاه السيدة يوسيبينا، وقلت لها:

لا تقلقي! ستسيرين من جديد. حين يعود الربيع، سنذهب لجمع الزهور البرية معًا. وستبدين كما كنتِ على هيئتك في هذه الصورة، بفستانك الأحمر الحريري الأنيق.

عادت بظهرها إلى الوراء، وألقت برأسها على الوسادة، فاستطردتُ:

أنت تغنين بصوتٍ جميل!

لكنني نسيت الكثير من الأغنيات، إلا هذه الأغنية.

تحدثت بهمس وأسبلت جفنيها:

ما زلت أذكر كل كلمة منها.

لاحظت بالصدفة أن الوقت قد حان لغسل شعرها الأشيب، فقررت أن أعد لها حمامًا ساخنًا في الغد وأملأ لها حوض الاستحمام، وأحممها كما أفعل دائمًا. خرجت من الغرفة على أطراف أصابعي حتى لا أوقظها. كان الممر مظلمًا، فأضأتُ المصابيح. فجأة صاح شخص من أسفل، «اطفئوا النور!»، فأطفأته. وتحسست طريقي إلى المطبخ في الدور الأرضي. أضأتُ أنوار المطبخ الخافتة، لأجد جميع الخدم جالسين في أماكن متفرقة؛ البعض أحنى رأسه واستند إليها براحتيه، وآخرون مستلقون على المقاعد. قفز أحدهم كالملدوغ وجرى ناحية مفتاح الإضاءة، مصدرًا صوتًا كنباح كلب مستكين، ثم أطفأ الضوء بسرعة، وأشعل سيجاره فاستطعت أن أرى ملامح وجهه بعد أن انعكس عليها ضوء النار، وتبينت تفاصيل الرعب في عينيه. وسألته:

لماذا تجلس في الظلام؟

همس لي آخر لم أره في العتمة بأن الزوار هددوهم أن من يغادر البيت قبل الخامسة صباحًا سوف يطلقون عليه الرصاص. تعجبت من تهامسهم وخوفهم من الضوء بعد أن رحل الزائرون جميعًا من الضيعة، وشاهدتهم بأم عيني يتسلقون الجبال، وبلا شك هم قطعوا الآن منتصف الطريق إلى الحقول. لكن الخوف حين يتملك من الإنسان، يتوقف العقل عن التفكير. بعد أن خيم الظلام والصمت على الضيعة، لم يلحظوا أن غرفة السيدة العجوز ظلت مضاءة طوال الوقت. كانوا في عجلة من أمرهم، بكل تأكيد. سألتهم ما إذا عرف أي منهم إلى أين أخذوا الزوجين، فساد الصمت في الظلام للحظات إلى أن أجابني أحدهم أنه سمع الزوار يذكرون أنهم سيصطحبونهما إلى كوخ الصيد لاستجوابهما.

يستجوبونهم بشأن ماذا؟ ألم يكن كوخ الصيد هذا هو المكان الذي اعتاد السيد جارنيك أن يستضيفهم فيه ليطعمهم ويأويهم ويمنحهم ما يحتاجونه من أشياء أخرى؟ ما الذي لا يعرفونه ويرغبون الآن في معرفته؟!

لم أتحكم في غضبي وأنا أتكلم بصوت مرتفع وبنبرة حانقة، فقاطعني أحد العاملين –ذلك الذي أشعل سيجارته في وجهي- وقال:

اصمتي يا امرأة!

سيطر عليهم جميعًا الخوف وأفقدهم أعصابهم، ففضلت أن أقضي ما تبقى من الليل في صمت. وفي الصباح، أعددت الإفطار وأخذته إلى غرفة السيدة يوسيبينا، وأخبرتها أنني سأساعدها في غسل شعرها. وذكرت لها بشكل عابر في وسط الحديث أن السيد ليو والسيدة فيرونيكا سافرا إلى ليوبليانا وسيعودان قريبًا. انتابتها حيرة شديدة كما بدا في نظرتها نحوي، وسألتني:

ما الذي اضطرهما إلى الرحيل في منتصف الليل؟

لدى السيد ليو بعض الأعمال الهامة هناك.

هذه المرة، لم تكن الكذبة محبوكة للدرجة التي تجعلها تصدقها. ففي العادة، هذا لا يحدث: أن يرحل السيد ليو في الليل لأعمال هامة ويصطحب معه فيرونيكا. وبالفعل لم تقتنع السيدة يوسيبينا، كما بدا من سؤالها. وتبع سؤالها سؤالٌ آخر:

من هؤلاء الناس الذين ظلوا يصفقون الأبواب الليلة الماضية؟

لم يساورني شك أن فيرونيكا سترتاح لمعاملتي الحسنة للسيدة يوسيبينا. فقد حاولت أن أنفذ تعليماتها بضمير ودقة. ولكن الأمور لم تسر على ما يرام، رغم كل ما فعلته. فقد ازدادت أسئلتها يومًا بعد يوم، وأرادت أن تعرف متى ستعود ابنتها وزوج ابنتها إلى الضيعة. وقد استنفدت كل المبررات التي اخترعتها في كل يوم، ولم يعد عندي ما أقوله، حتى اكتفيت في النهاية بتطمينها وإخبارها أنهما: «سيعودان قريبًا، فلا تقلقي!»، وقبلت بذلك، على ما بدا لي وقتها. تمسكت السيدة يوسيبينا بالأمل ولم تذكر لي ولو مرة واحدة أنها تخشى لو أصابهما مكروه، أو من ألا يعودا إلى البيت. جلست إلى جوار النافذة، من أول اليوم إلى آخره، تنتظر أن تراهما ذات يوم عائدين. أحضرت لها الطعام والكتب التي رغبت بقراءتها من مكتبة القصر. وكلما انتهت من قراءة كتاب، أعيده إلى المكتبة وأحضر لها غيره. من وقت لآخر، سألتني:

سيعودان يا يوجي، أليس كذلك؟

بكل تأكيد!

أكدت لها أنهما عائدان رغم أنني يئست من عودتهما بعد أن مرت أيام عديدة على رحيلهما دون سماع أي خبر منهما أو عنهما. في يوم، أتى عامل من بوسيليا ليقطع بعض الأخشاب، وحين سألته عنهم، نفض يديه وهمس قائلًا:

لقد تمت تصفيتهما.

لم أفهم معنى الكلمة، وطلبت منه أن يوضح ما قال، فمرر سبابته على حنجرته، وقال:

كما تذبح إوزة!

لا أصدقك!

أنكرت رغم أنني في قرارة نفسي توقعت أن حدوث ذلك ممكن.

لِم قد يفعلون ذلك بهما؟!

أنت تفهمين! لديهم أسبابهم.

كان في تبريره نبرة رضا وارتياح. رفع فأسه من الأرض، ثم حمله ومشى. أضاف وهو في طريقه متوعدًا:

ليسا أول من حدث لهما ذلك، ولن يكونا الأخيرين. هناك الكثيرون ممن سيلاقون نفس المصير.

اختفى داخل أحراش الغابة، وسمعت صوت فأسه يضرب عنق جذوع الأشجار. كل ضربة من ضربات فأسه أصدرت صوتًا قويًّا رجَّ جدران القصر وكسر صمت الصباح وهدوءه.

طال الشتاء حتى بدا كأنه لانهائي. ولفترة من الوقت، عينت الشرطة الألمانية حراسة للقصر، ثم سحبتها، واكتفت بإرسال ضابطين أو ثلاثة من فترة لأخرى ليسألوا ما إذا كانت العصابات –كما أسموهم- قد عادت للاستيلاء على أنحاء المنطقة مرة أخرى، ودائمًا تعجلوا في الرحيل كلما أتوا للزيارة. الحقيقة أنهم في تلك الفترة كانوا يخشون من أهلنا في الحقول. صارت الضيعة خاوية على

عروشها، وساد الصمت المميت في أرجائها، وغادر معظم الخدم حين توقفت رواتبهم، ولم يعد هناك من يدفع لهم. استمررنا أنا وفاني في تنظيف البيت، وترتيب الغرف، وإعداد الطعام لأنفسنا وللسيدة العجوز. أحيانًا قدمنا الطعام للعمال الذين أتوا لرفع الجليد عن الطريق، وأيضًا لفرانتس الذي واظب على المجيء كل يوم لرعاية الخيل. كانت غرف نوم ليو وفيرونيكا دائمًا معدة لاستقبالهما، وجميع ملابسهما نظيفة ومكوية ومنظمة في أماكنها بالدواليب. أعددت كل شيء كأننا على انتظار عودتهما من رحلة ما. حل الربيع، ومن ورائه الصيف، ولم تزل السيدة العجوز تجلس بالقرب من النافذة، تراقب الطريق كعادتها وتتأمل في المدى البعيد، على أمل أن ترى سحابة التراب التي ستثيرها عجلات السيارة التي ستقل ابنتها وزوجها إلى الضيعة. في يوم من أيام شهر يوليو، أصرت على أن أساعدها على النزول والخروج إلى الساحة الخارجية. اضطررت تقريبًا لحملها لأن قدميها لم تقوَ على حملها. ساءت حالتها الصحية في تلك الأيام لدرجة أنها بالكاد تحركت من مكانها. أرادت أن تذهب إلى موقف انتظار السيارات الخاص بالقصر، وعرفت السبب، لكني رأيت أنه من السخف عندئذٍ لو استمررت في محاولاتي البائسة لأن أُخفي عليها أي شيء. نظرت إليّ نظرة غاضبة، وسألتني:

ألم تقولي إنهما غادرا في سيارتهما؟

لم أقل ذلك على الإطلاق! إنما هي تخيلت ذلك طوال الوقت وتصورته حتى صدقته.

لم أقل ذلك على الإطلاق!

عارضتها هذه المرة، ولم أكبح جماح نفسي في الدفاع عن الشيء الوحيد الذي لم أكذب بشأنه. أرهقني الكذب بما يكفي للدرجة التي جعلتني لا أحتمل أن أتهم بالكذب في ما تجنبت الكذب حوله. دار رأسها حتى فقدت اتزانها إلى حد ما، وظننت أنها ستسقط مغشيًّا عليها. استندت إلى باب السيارة، وسألتني:

كيف غادرا إذًا؟

قاد بهما شخص آخر في سيارته.

لم يكن كذبًا. هذا بالضبط ما حدث بمعنى أو بآخر. لو أردت دقة أكثر، لقلت لها إنهما قبض عليهما وسحبا بالقوة إلى مكان غير معلوم. ولكن «قاد بهما شخص» توحي كذلك بأنهما أُخذا، وربما بالقوة.

فعلًا؟ إذًا، فقد أتى الزائرون في سيارتهم؟

لم يعد لدي رغبة في إجابة المزيد من الأسئلة، لذا أقنعتها أن الوقت قد حان للنوم. لدي قناعة بأنني أديت مهمة رعاية السيدة يوسيبينا على أكمل وجه، تمامًا كما وجهتني فيرونيكا قبل رحيلها. رحيل؟ لم أرغب في تصديق أنها رحلت بلا رجعة. لم أمل من انتظارها إلى جوار السيدة العجوز، وقد منحتني بعضًا من صبرها وأملها، حتى صرت أجلس إلى جوارها على النافذة، أحدق في المدى الممتد. في حين وثق الجميع من أنها لن تعود، لا هي ولا ليو، فقط أنا وهي لم نيأس. وحدنا تمسكنا بالأمل. منذ هذه اللحظة لم نعد نتحدث عن تفاصيل تلك الليلة. ظلت كلمات الحطاب الذي أخبرني عن تصفيتهما ترن في أذني، ولم يفارقني صداها، إلا في الأوقات التي قضيتها مع السيدة العجوز.

ذات مساء صيفي دافئ، أقبلت على غرفتها، فسمعت صوت حديث في الداخل قبل أن أدخل. اندهشت لأنني لم أكن أعلم أن هناك من تتحدث إليه غيري. دخلت عليها لأجدها قد وضعت إلى جوارها كتابًا كانت تقرأ فيه.

مع من كنتِ تتحدثين؟

بيتر! نحن نتحدث أحيانًا.

تصورت أن بعض الخلل بدأ يصيب قواها العقلية، فمن الطبيعي بعد كل هذا الضغط العصبي أن يحدث ذلك.

بل نتحدث غالبًا. الليلة كنت أقرأ له قليلًا.

التقطت الكتاب مرة أخرى، ولوحت به قائلة:

الشاعر الذي اعتاد أن يزورنا أعطى هذا الكتاب لفيرونيكا؛ بعنوان (قصائد للجميلة)، وكتب لها إهداءً في مقدمته: «إلى صاحبة الشعر الأشقر الناعم.... ماذا بوسعنا أن نفعل لو أن الحياة مرت كلحظة عابرة؟!». لقد أحبت فيرونيكا القصائد في هذا الكتاب، وكثيرًا ما قرأت فيه قبل النوم.

فتحت الكتاب وقرأت:

«تعالَ في الغسق

إذا حلّ الظلام

حين يناديك قلبك،

لنختبئ معًا

تحت ظلال الشفق»...

لقد قرأتُ هذه الأبيات لبيتر، وأخبرته أن الشاعر قصد أن تلك هي كلمات ستيفان لفيرونيكا. لم يقصد ليو، لا قطعًا. ليو لا يقول مثل هذا الكلام. أخبرت بيتر أني الملامة على رحيل فيرونيكا عن ستيفان. لو لم تتركه، لكانت تقيم الآن في ماريبور.

توقعت أن أقول لها شيئًا ما يثنيها عن التفكير بهذا الشكل، شيئًا من شأنه أن يريح ضميرها. بالطبع كنت أعرف اسم ستيفان من توقيعه على الرسالة التي قرأناها أنا وفاني، وجعلتنا نبكي. وعلى ذكره في تلك اللحظة، اختنقت الأنفاس في صدري. ربما من أثر القصيدة، أو من تعاطفي مع تلك العجوز المسكينة التي تحدث زوجها الميت وتظن أنه يتحدث إليها.

ربما هي الآن هناك، في ماريبور، من يدري؟

صدقت على كلامي دون تردد، وقالت بانشراح صدر:

نعم، نعم! من يدري؟ ربما بالفعل هي هناك الآن. ربما يقيمان معًا. أو ربما هي وليو ذهبا إلى سويسرا. هذا أيضًا احتمال. من المحتمل أنهما في سويسرا.

قلبنا في صفحات ألبوم الصور، وتحدثنا عن اللحظات الرائعة في حياتها، والتي عاشت في ذكرياتها. مر الخريف، ولم نسمع أي خبر، أو يأتي أحد للزيارة، إلا في ما ندر حين جاء شخص أو اثنان من أقارب أو أصدقاء الزوجين، ثم انقطعت الزيارات تمامًا. ثم عاد الشتاء مرة أخرى ومر علينا أطول من الذي سبقه. شتاء العام 1945. توقع الجميع أن الحرب ستنتهي بنهايته، وقبل حلول الربيع. تزايدت مخاوف الناس مع ازدياد أعداد المختفين من الأقارب والمعارف، سواء أخفاهم الألمان، أو الموالون، أو اختفوا في المعسكرات. لم يعد الطعام متوفرًا بكثرة، ولا الملابس والأحذية. صار كل شخص بالكاد يجد ما يكفيه. مررنا بوقت عصيب للعثور على عمال لقضاء حاجات الضيعة الأساسية، ولحسن الحظ زارنا فيليب أخو ليو عدة مرات، وأعطانا مالًا كافيًا لندفع لبعض العمال الذين قبلوا العمل، ولنغطي مصروفاتنا أيضًا. كل مرة زارنا فيها فيليب، قضى وقتًا طويلًا مع السيدة العجوز، في حين كان حديثه معنا دائمًا مقتضبًا. لم يعد أحد يأتي على ذكر أصحاب الضيعة. ظلوا يسألونني كلما ذهبت إلى الكنيسة كل أحد، وحتى بعد مرور أشهر على غيابهما. سألوني عن تفاصيل ما حدث، وما إذا كان هناك بارقة أمل في عودتهما، وغير ذلك من الأسئلة. ثم فجأة توقف الجميع عن السؤال، خاصة أن الناس امتنعت عن أي تجمعات، ولم يعد أحد يخرج من بيته. في هذا الوقت، لم يثقوا بعضهم ببعض، وانتظروا أن يعرفوا كيف ستنتهي الأمور، وما ستؤول إليه.

في ربيع 1945، رأيت شاحنات محملة بأثاث وحقائب سفر وأمتعة، وعائلات بأكملها تهجر بيوتها إلى جهات غير معلومة. في الضيعة، جلسنا بانتظار البارتيزان. كنا نعرف أنهم قادمون. وبالفعل أتوا في النهاية، ولكن ليسوا نفس من جاؤوا في المرة السابقة. هذه المرة كانوا سادة محترمين مفرودي القامات من ليوبليانا. هؤلاء الرفاق هم من قالوا إنهم سيستخدمون مرافق الضيعة للاسترخاء والترفيه. على حين غرة، انتهت الحرب. لذا، أراد الرفقاء الحصول على بعض الراحة بعد الجهود الكبيرة المبذولة في ليوبليانا. بعضهم كان مريضًا، وأرادوا أن يقضوا فترات النقاهة في بودجورسكا. عاد إيرانيك أيضًا إلى القرية، لكنه لم يأتِ لزيارتنا ولا مرة. لكنني رأيته بالصدفة في محطة القطار. حينها بدا أكبر سنًّا، وأكثر جدية، وأفضل صحة وقوة في زيه العسكري. عقد ذراعيه خلف ظهره وهو يشاهد أحد القطارات يمضي. كان ذلك قبل وقت قصير من مغادرتنا لبودجورسكا. حين عدت إلى بيت والدي، وتزوجت من لودجي هريبوفشيك، سائق سيارة جارنيك. تعرفنا إلى أحدنا الآخر في بودجورسكا. هو الآخر لحق بالبارتيزان عام 1941، لكنه سرعان ما عاد وانفصل عنهم. ذلك أسعد قلبي لما رأيته يعود. لكن تلك قصة أخرى لن أرويها. قصة خاصة بي.

بنهاية كل تلك الأحداث، صرنا نتجنب الحديث تمامًا عن ليو وفيرونيكا. لم يكن هناك جدوى من إثارة زوابع الماضي، بذكرياته المؤلمة. قبل أيام من زفافي إلى لودجي، قلت له:

لم تكن فيرونيكا لتفوت حفل زفافي. لقد أحبتني من قلبها.

بعد عام أو أكثر من انتهاء الحرب، لم أعرف أي شيء عن السيدة العجوز، أو ماذا حل بها. ثم توصلت بطريقة ما إلى أنها تقيم في ليوبليانا حيث وجدوا لها شقة صغيرة تقيم فيها. فقررت في يوم أن أستقل القطار وأتوجه إلى حيث تقيم لأزورها. وجدتها تجلس كما اعتادت بجوار النافذة، لكنها بالكاد تذكرتني وتعرفت إليّ. فكرت أنه صار من المناسب لها أن تعرف حقيقة ما حدث،

فربما يكون ذلك في صالحها. ثم اكتشفت أنني أنا شخصيًّا لا أعرف الحقيقة. ورغم أن فيرونيكا كانت في عداد الأموات بالنسبة للجميع، إلا أن الموتى على الأقل يدفنون في مراسم ندعو لأرواحهم فيها بالسلام والراحة، ونودعهم. على الأقل نعرف أماكن قبورهم، ونضع لهم فوقها شمعة. لكن فيرونيكا وليو هما موتى بلا قبور. أخذت معي كتاب الشعر في زيارتي للسيدة يوسيبينا. ذلك الكتاب الذي قرأت لي منه بعض أبيات ذات ليلة في بودجورسكا. كنتُ قد أخذته معي كتذكار لأيامي هناك. من بعد تلك الليلة، كنت أقرأ منه قبل أن أنام. أنتظر الجميع حتى يخلدوا إلى النوم، ثم أفتحه وأقرأ منه بعض أبيات. وكلما فتحته، رأيت فيرونيكا تجلس أمامي. وأتذكر حين اعتدت أن أحضر لها كوبًا من الحليب الدافئ وهي تقرأه، فتنظر لي وتقول:

انظري إلى هذا الكتاب الذي أقرأه!

أرادت أن تخبرني عنه، لكنني لم أستمع إليها. انشغلت بالكثير من الأمور الأخرى وقتها. والآن لم يتبق لي من تلك الذكريات سوى بعض الصور وذلك الكتاب، وكل ما عداهما اختفى للأبد.

« في غروب الشمس سأراك

فقط في الغروب ستراني

ساعة الغفران والسماح

يصبح النهار أبديًّا

كليلةٍ لا تنتهي

الطيف يحلم بالغناء

ويرسم الحلم بالأغاني».

لم تزل ضيعة بودجورسكا قابعة عند سفوح التلال الخضراء على جبل ستيب، شاهقة بجلالها وبهائها. في يوم طلبت من ابنتي أن تقود بي السيارة إلى هناك. بعد الحرب، حولوها إلى مصحة للنقاهة. والآن، صارت متحفًا. حين وصلنا بالسيارة، شاهدنا مجموعة من تلاميذ إحدى المدارس أتوا لزيارة الضيعة، ووقفوا عند باب القصر حين أوشكوا المغادرة. أخبرت الموظفة التي تبيع تذاكر الدخول أنني عملت في هذا القصر يومًا ما، وأنني جئت لأرى كيف يبدو الآن من الداخل. لكنها اعتذرت لانتهاء مواعيد الزيارة وأخبرتني أن لديها أطفالًا في انتظار عودتها. أنا أيضًا لدي أطفال ينتظرون عودتي. بمعنى أدق، أحفاد. بنتان وصبي. أحكي لهم أحيانًا عن حياتي هنا، وكيف كانت جميلة. أريتهم صور بودجورسكا القديمة، حيث وقفت في واحدة منها إلى جوار السيدة فيرونيكا، كلانا يمسك في يديه بعض الورود. هذه الورود جمعناها في هذا اليوم لنضعها في مزهريات غرفة الطعام. كلما حكيت لهم ذكريات بودجورسكا، أنصتوا إليّ بجميع حواسهم. يومًا ما، فتحوا أعينهم على اتساع حدقاتها حين عرفوا أن أدوات المائدة التي استخدمناها في تناول الطعام صنعت جميعها من الفضة، وأن عازف بيانو محترمًا من ليوبليانا اعتاد أن يأتي ليعزف لضيوف الضيعة، وعن الخيل وهي ترعى في الحقول أسفل القصر. ومن أكثر النوادر التي أحبوها قصة التمساح الأليف الذي اقتنته فيرونيكا، وعقر زوجها السيد المحترم في حوض الاستحمام. ضحكوا وصفقوا بكفوفهم الصغيرة كلما رويتها لهم.

وبالنهاية، حنطوا التمساح وعلقوه على الحائط بالقرب من باب القصر ليخيفوا الزائرين الغرباء غير الودودين.

أحبوا أن يسمعوا تلك القصة بالتحديد مرارًا.

(٥)

توفي يانكو كرالي اليوم. غنى في جنازته كورال المحاربين القدامى أنشودة «بحيرة السكون»، ووُضع العلم فوق مقبرته بعد أن نزل التابوت إلى مثواه الأخير. شعرت بألم شديد في صدري كأن قذيفة شمايسر استقرت في منتصفه. لمعت النجمة المعدنية المثبتة على عمود ساري العلم وانعكس بريقها في عيني حين سقط عليها شعاع من ضوء الشمس الساطعة. نظرت إلى التابوت المسجى في حفرته العميقة وبداخله الجثمان الذابل، وتذكرت الشاب الطويل النحيف الذي طالما رأيته مبتسمًا ومرحًا كعادته. أينما وجد الغناء، تجده! حين يبدأ الأكورديون في العزف بنهاية المسيرات أو التجمعات، يخطف يد أقرب فتاة ويسحبها لحلبة الرقص. بعد الاستقلال والتحرير مباشرة، عشنا أجواء سعادة غير مسبوقة، وارتفعت الروح المعنوية إلى أعلى درجة. أيامها رأيته على دراجة نارية، وخلفه فتاة تقبض على خصره، وظل يقود الدراجة بسرعة جنونية في شوارع كراني، وقفز الناس من طريقه على الجانبين. يومًا ما أطلق رصاصة ليخرق برميل خمر يملكه صاحب نُزُل ما، ليشرب أصدقاؤه من النافورة المتدفقة بلا توقف. وبأحد الفنادق في بليد، سار بحذائه العسكري ذي الرقبة الطويلة في أوانٍ واسعة مملوءة بالمربى التي صنعها بنفسه. عرف الجميع أنه فتى جامح وصاخب ومحب للمقالب إلى حد ما. بعد أن انتهت الحرب بعدة أشهر، قرر أن يستقر ويكرس وقته للعمل السياسي. لكنه ظل محتفظًا بروحه الخفيفة الساخرة الفكاهية. ولكن فجأة، في السنوات الأخيرة، أجهده المرض، وظل يتنقل من مستشفى إلى آخر إلى دار نقاهة، وهكذا. انكمش حجمه، وظهر عليه التعب كأن المرض يمتص قواه ويعتصر أعضاءه. أذكر زيارتي الأخيرة له، حين رأيت جسده الضئيل المتكور في مقعد ضخم بمسندين، والذي جعله يبدو أكثر هزالًا. تجاذبنا أطراف الحديث، وحدثني للمرة الأولى عن أحداث وقعت في ضيعة بودجورسكا. لم يكن أحد يأتي على ذكر الضيعة منذ شتاء عام 1944، لذا ربما كان يعرف أنه لن يعيش طويلًا، فرأى أن يتحدث عنها للمرة الأولى والأخيرة.

حين أقبلتُ عليه، ابتسم ابتسامة واهنة. وطبعًا، حاول –قبل أي شيء- أن يمازحني ويضحكني، لكنه لم يكن نفس الرجل المرح القادر على أن يثير عاصفة من الضحك إلى أن يشعر بالإعياء هو ومن حوله. مازحني قائلًا:

ما بِكَ، يركو؟ هل أخفتكَ؟

أكيد لاحظ التغير الذي ظهر على ملامحي بمجرد أن رأيته على هذه الحالة. بالفعل لقد أخافني منظره إلى حد لا يمكن إخفاؤه.

لا تخف! لم أحتضر بعد!

ولن تحتضر! الريحان تظل رائحته فيه ولو ذبل!

أخرجتُ من حقيبتي زجاجة من البراندي المصنوع بالبيت، فلمعت عيناه:

ما هذا؟! مسكرات يركو الشهيرة!

حاول أن يضحك:

لم أعد أستطيع. إنهم يملؤون معدتي بالحبوب طوال اليوم.

جلست إلى جواره، فقال لي:

ما يحدث لي جريمة! منذ ثلاث سنوات فقط كنت أقفز بين التلال في الممرات الجبلية، والآن بالكاد أزحف إلى دورة المياه.

لم أفهم لماذا اعتبرها يانكو جريمة! تلك سنة الحياة، لا أكثر. لقد ولدت وتربيت في مزرعة وتعلمت أن كل الكائنات الحية تمر بمراحل حياة مختلفة؛ فهناك بذور الطفولة السعيدة النامية، ثم حصاد الشباب والحيوية والانطلاق، ثم الذبول واليباس والبلاء. الكائنات جميعها كالنباتات، فلِم نتوقع أن يختلف الأمر معنا نحن البشر؟! إذا حانت ساعتي، سأحاول أن أجد وسيلة مناسبة للترحيب بها. فالمسألة ليست إلا هبوط التل بعد صعوده. يرحل الشباب ولا نراه مرة أخرى. نتعود على شكوانا بعضنا لبعض كلما التقينا من عظامنا التي وهنت وآلام الروماتيزم الذي أصابنا بسبب حياتنا في الغابة ونحن لم نزل شبابًا. لكن الأمر كله مجرد هروب من الاعتراف بالعجز. نشتكي كأننا نستغرب كوننا مرضى ولم نعد بقوتنا وصحتنا، ونتجاهل حقيقة أن أغلب لقاءاتنا أصبحت في مراسم دفن أقراننا، وأننا طعنّا في السن. قال أحدنا اليوم ونحن نقف في مدخل المقابر، تحت ظل أشجار البتولا:

لقد بدأ اقتلاع الجذوع في غابتنا أيضًا، يا أصدقاء!

فأجبته بأنها تقتلع منذ زمن طويل، وأن غابتنا بالفعل على وشك أن تنمحي من فوق الأرض. وضحكنا قليلًا بمرارة، كما يضحك العجائز المعزون في جنازة ما حين يجتمعون تحت الظل أثناء مراسم الدفن. تلك هي سنة الحياة، وليست جريمة كما اعتقد يانكو قبل أسبوعين من دفنه حين أقعده السل في كرسيه دون حركة. في حياته، لم يفكر ولو مرة في الموت. لو أن شخصًا لم يتخيل أن موت يانكو ممكن بأي حال، سيكون هذا الشخص هو يانكو نفسه. ظل دائمًا يسابق الحياة، ولا يعرف التروي ولا الخمول. طوال فترة الحرب، كان يتجول في الأنحاء على دراجته النارية، متنقلًا من مكان إلى مكان ليقوم بأعمال التنظيم والتنسيق بين الأطراف، ثم أصبح بطلًا في الرماية، ووصل إلى أعلى المراتب وحصل على أقيم الأوسمة، ثم جاء أمر بنقله إلى ليوبليانا. وهناك اعتاد التخييم والسير في الممرات الجبلية. حين كنا نخرج في مهمات في الجبال، أقسمنا إن أعلى قمة سوف يتسلقها الواحد منا بعد الحرب ستكون زوجته. العجيب أننا قلنا ذلك ولم يكن أي منا متزوجًا وقتها. «يانكو دائمًا في عجلة من أمره»، هكذا قال عنه بوجدان ذات يوم ونحن جالسون في واحدة من الحانات، وضيق عينيه الصغيرتين الخبيثتين بالطريقة المؤثرة ذاتها حتى كادت أن تختفي في ملامح وجهه ووسط رأسه الضخم. بدأت معركة يانكو مع المرض قبل ثلاث سنوات من وفاته. فترة معاناة ليست بالقصيرة. لكنه لم يكن يحارب المرض فقط. فقد صارحني في زيارتي الأخيرة له أن «عملية بودجورسكا كانت خطأ كبيرًا». حين قال لي ذلك، كان يتوقع مني ردًّا ذكيًّا عمليًّا، إلا أن حديثه المفاجئ عن ذلك الموضوع جعلني أتردد في قول أي شيء. فربما أقول شيئًا يؤلم هذا المسكين المريض المسلول الذي يجلس نحيلًا، بعد أن ذَوى عُودُهُ، كالنبتة الظمآنة، وأكله المرض من الداخل. هل أقول له إنني لم أفعل شيئًا في بودجورسكا سوى الوقوف حارسًا على الباب في انتظار الأوامر لأنفذها؟ أردف مبررًا الخطأ حين لم يتلق مني ردًّا:

كنا شبابًا، مشردين، بلا مأوى كالحيوانات الضالة الهائمة في الغابة. رددنا الهجوم بأشرس منه لحماية أنفسنا.

هذا ما قاله قبل أسبوعين من وفاته، واسترجعته بألم وأنا أشاهد تابوته بينما فردوا العلم فوقه، قبل أن ينزلوه إلى حفرته تحت شمس الظهيرة الساطعة التي انعكست أشعتها على النجمة المعدنية وزغللت بصري، حين غنى الكورال.... « أقف على شاطئ بحيرة السكون، وأسمع حفيف أوراق الأشجار الذابلة تتطاير من حولها....»، والآن في المساء بعد انتهاء مراسم الدفن، ما زلت أسمعها تتردد في أذني وأنا جالس على الأريكة أمام بيتي، محدقًا في الظلام الممتد على تلال الغابة الخضراء. ظلت الكلمات تطفو في ذهني....

« يقف الجندي الشاب قريبًا من الماء، هادئًا يحدق في الظلام....».

اللعنة! كان يانكو ليقولها حين ينتابه الحزن. اختنقت العبرات في صدري. اللعنة! سقطت الدموع من عيني دون أن أشعر.....

« يقف الجندي على شاطئ البحيرة، ويتذكر عهدًا قطعته حبيبته، بأنها ستنتظره حتى يعود إليها بالحرية من جديد».....

بعد أن غادرنا المقابر بانتهاء الجنازة، بلغ مسامعي دون قصد مني حوار بين عجوزين نمامتين:

لقد دفنوه!

نعم. غناء الكورال كان ممتعًا! إلا أن حضور القس كان ليجعل الجنازة أفضل.

فعلًا، كانت العجوز على حق. غياب القس جعل الجنازة ناقصة، ومختلفة عن جنائزنا التي اعتدناها. لم تفوت عائلاتنا القداس في الكنيسة أبدًا، وفي جنازة أمي ارتحنا لسماع القس وهو يخبرنا أن الملائكة أخذتها إلى الجنة. لو لم يقل لنا القس ذلك، لما شعرنا بالراحة ونحن نودعها. لكن في جنازة الرفيق يانكو كرالي، صعب عليّ تصور الملائكة تحمله إلى أي مكان. وظننت حتى لو أنهم حملوه، كان ليلقي عليهم نوادر مضحكة ويضحك من قلبه طوال الطريق. العجوزان النمامتان كانتا على حق إلى حد ما، على الأقل في قولهما إن شيئًا مفتقدًا في هذه الجنازة. تَعن على خاطري ثرثرتهما حتى الآن. قلتُ في نفسي حين سمعتهما: «أيتها الخرقتان الباليتان، دعا الصديق العزيز يرقد في سلام». اكتفيت بالنظر إليهما أثناء مروري إلى جوارهما نظرة أصابتهما بالخرس في التو. الحقيقة لم يكن القس هو الشيء الوحيد المفتقد في هذه الجنازة، وإنما أشياء أخرى من بينها الغداء. بعد الدفن تجولنا في الأنحاء قليلًا تحت حرارة الشمس الحارقة. لم يدعُنا أي شخص إلى أي مكان، فالجو حار هذا الصيف، ولا أحد يتحمل ضيافة أحد، حيث يهرع الجميع إما إلى الوقوف في الظل أو إلى العودة إلى بيوتهم. قفزت زوجة يانكو وابنته إلى السيارة بمجرد أن انتهت مراسم الدفن، وحين رأتاني سائرًا في اتجاههما لتعزيتهما قبل أن تتحرك السيارة من مكانها، اكتفت السيدة كرالي بفتح زجاج النافذة قليلًا، وصاحت:

تعال إلى زيارتنا ذات يوم، أيها الرفيق إيرانيك.

ثم انطلقت بالسيارة، ومن بعدها جميع الأقارب والأصدقاء القادمين من ليوبليانا، وسمعت أصوات صفق أبواب السيارات المتتالي وهم يغادرون، واحدًا فالآخر. حَجَبت زوابع التراب التي أثارتها

سياراتهم الرؤية أمامي قبل أن أعرف من منهم غادر الجنازة دون توديع الحاضرين، ولم أعد أرى ماذا يحدث في ساحة انتظار السيارات من أثر سحب الدخان الرملية. لم يتبق لعائلة كرالي في بوسيليا سوى مقبرة العائلة، واقتصرت زياراتهم للقرية على يوم تكريم الموتى عند النصب التذكاري. وحتى هذا لم يداوموا على حضوره عامًا بعد عام. ربما من الآن ستتكرر زياراتهم للمقبرة بعد دفن يانكو، وستواتيني الفرصة لمصافحة يد الابنة وإخبارها بعض الأشياء الجيدة عن والدها.

من تبقى في القرية من الحطابين –كما تعودنا أن نطلق على أنفسنا من باب المزاح- يلتقون في الحانة. نجلس على طاولة ونطلب المشروبات. ورغم أننا نستمتع بشرب الخمر معًا، لكننا لا نقيم حوارًا متصلًا أبدًا. في الماضي، حين اجتمعنا، تحدثنا عن ذكرياتنا معًا؛ المسيرات الليلية والكمائن، الهجمات على صفوف الجيش الألماني، غناء يانكو والخُطب التي طالما ألقاها علينا في التجمعات، البثرات التي ملأت أجسادنا والقمل المستشري فينا. سخرنا من الشيب ودور النقاهة الرائعة حيث تعالجنا فيها من الروماتيزم الذي أصابنا جميعًا دون استثناء بسبب الفترة التي عشناها في الغابة. ثم تنتهي جميع الحوارات بالحديث في السياسة. ونسأل بعضنا بعضًا: «هل هذا ما ناضلنا من أجله؟».

ألم يعد أحد يقدر تضحياتنا ويعترف بها ويكرمنا عليها؟

سأل بوجدان وهو يضيق عينيه كعادته، كأنه لم يزل واقفًا في المقابر، أثناء الجنازة، وقد ألهبت الشمس عينيه، فاضطر أن يغلقهما، وأكمل:

عصابة المحتالين الملعونة! إذًا فإن حلفاء النازيين ينعمون بالتقدير أكثر منا.

كفانا حديثًا في السياسة، بوجدان.

قاطعته ثم سألته:

لم لا نسترجع معًا –بدلًا من هذا- ذكرياتنا في غابات الصنوبر، حين أوشكنا على الموت من التجمد في البرد القارس؟

حدث ذلك بعد عملية ضيعة جارنيك بودجورسكا، وفي ذات تلك الليلة بقينا في البرد مثل الكلاب الضالة نرتعد في الصقيع. الآن أتذكر كلمات يانكو مرة أخرى: «لقد ارتكبنا خطأً هناك!». بوجدان لم يجبني بكلمة، بل بنظرة قاسية. فهمت أنه لا يرغب في الحديث عن تلك العملية. ولا أنا أردت أن أتحدث عنها، بل أردت التحدث عن يانكو. كان معنا وقتها، والآن لم يعد معنا. أنا وبوجدان آخر الأحياء في فرقة يانكو. رحل الجميع عن عالمنا كما رحل قائد فرقتنا الآن أيضًا. قبل الحرب، عمل بوجدان في بناء الطرق، وكانت له يدان وذراعان أقوياء ذوات بأس، وكل ذراع تشبه الفأس في صلابته ومتانته.

صوت شخيرك في تلك الأوقات كان كالزئير الذي أيقظ جميع كائنات الغابة المساكين في الوادي مفزوعين.

مازحته ليتكلم، لكنه -مرة أخرى- لزم الصمت. لم نعد نستمتع بالنوادر ولا نجد فيها ما يضحك كسابق عهدنا. اكتفينا بالشكوى من «الجرائم» –أو الأمراض العضال- التي أصابتنا على كِبَر.

حتى بعد جنازات رفاقنا، كنا نمازح بعضنا بعضًا. والآن تبدل كل شيء. الشباب في هذا الزمن لا يعرفون شيئًا عن ما عاناه جيلنا. بالتأكيد انزعج يانكو بسبب ذلك أيضًا. كل ما فكرت فيه هو أن أفضل شيء نفعله الآن معًا استرجاع ذكريات نضالنا وكفاحنا، والحديث عما تحملناه معًا. مثلًا، يوم هرب يانكو من بيت تحت الحصار، فقفز على ثلاثة جنود ألمان، جلسوا عندئذٍ مسترخين في انتظار دورياتهم. للحظة شعر بالرعب حين سقط فوقهم، لكن المفاجأة سلبتهم تركيزهم، فانطلق هو يعدو نحو الغابة، ثم توقف للحظة ورمى عليهم قنبلة يدوية بعد أن نزع فتيلها. أو نتحدث مثلًا عن أيام سيرنا الطويل الذي بدا لنا لانهائيًا في الممرات الجبلية المغطاة بالجليد. وحين التففنا حول النار إلى جوار الخيم، وعن شخير بوجدان. أين الأوقات التي أحببنا فيها أن نتحدث عن ذكرياتنا؟ لماذا صار الحديث الآن فقط عن السياسة؟!

من سيتذكر ما فعلناه إن لم نتذكر نحن؟

صحت فيهم فجأة، فحملقوا جميعًا في وجهي. جرعت ما تبقى في كأسي من خمر دفعة واحدة، ودفعت فاتورتي ثم رحلت. والآن أجلس وحيدًا في المساء أمام بيتي. ابني يقيم في ليوبليانا. اتصل بي أمس، وأكد أنه سيحاول حضور جنازة يانكو. وكيف لا يحضر جنازة يانكو الذي سُمي تيمنًا باسمه؟ ولكنه أخبرني هذا الصباح أنه لم يجد الوقت للحضور لأن لديه اجتماع عمل طارئًا. لقد سميته على اسم أكثر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي شجاعةً ومرحًا. حين كنا أطفالًا، تجولنا أنا وهو في المروج، وقدنا الأبقار إلى حظائرها معًا. لما تخرجنا من المدرسة، انتقل هو إلى كراني، وعمل ميكانيكي، ثم لم يعد يزور القرية كثيرًا منذ رحل. أصبح فتى المدينة العصري المبتهج دائمًا، وفي كل زيارة منه إلى القرية بدا مختلفًا عن أبنائها. ملابسه وطريقة تصفيف شعره، وحتى أسلوب كلامه اختلف كثيرًا عنا. قبل اندلاع الحرب بفترة قصيرة، رأيته قادمًا إلى القرية على دراجته النارية الصاخبة. حقدنا عليه حين وجدنا كل فتيات القرية قد صرن معجبات به. في هذه الفترة، بدأت صعود الجبل للعمل بضيعة بودجورسكا في بعض المهام من وقت لآخر، وبحسب الطلب؛ جز العشب، المساعدة في تنظيف الحظائر، القيام ببعض أعمال التصليح في القصر أو مرافقه. سخر يانكو مني أحيانًا:

لا تقل لي إنك ستظل طوال عمرك صبيهم الخادم.

قال عنهم إنهم منتفعون واستغلاليون. وضحكت على ما قاله لأن ما يهمني هو أنهم يدفعون لي جيدًا مقابل عملي. وغير ذلك لا يهمني. طلب مني أن أنتقل إلى المدينة:

لديك بعض المهارات، وستجد عملًا هناك بسرعة.

لكنني فضلت البقاء في الديار، كما أن أبي احتاجني لأساعده، فهو لم يعد قادرًا على الاهتمام بكل شيء وحده في هذا الوقت، لذا بدأت آخذ على عاتقي العمل وحدي لرعاية أمور المزرعة، كما أن أصحاب الضيعة أحبوني، وأيضًا لم أرغب في أن أفارق بيبتسا. فقد أنشدنا في جوقة الكنيسة معًا، ورقصنا في حديقة نُزُل القرية في المناسبات. لم أتحمل الاغتراب عن الوطن والعائلة، ولا عن القرية والحقول، ولا بيبتسا. قال لي يانكو:

ستظل فلاحًا إلى الأبد.

ورغم أنه يمزح في قوله، ويقصد أن يحثني على الانتقال، إلا أنه كان محقًّا. فما زلت إلى الآن

فلاحًا، مع الفارق: فلاح بمعاش محارب قديم، يذهب إلى المدينة لحضور الاجتماعات الرسمية، ويستجيب للحكومة الجديدة كلما طلبت المساعدة، ولم يعد يقوم بكثير من أعمال الزراعة. عينت في مكتب التعاون المحلي بعد الحرب، وصار مكان عملي هو المكتب، وليس الحقل. بالطبع، واصلت تربية الغنم والمواشي، فهذا أمر لا يمكن الاستغناء عنه. لكن حظيرتي صارت خاوية من فترة طويلة، ولم يعد أحد يجز عشبي. بيتي تم إعادة تصميمه وتطويره ليصبح أكثر راحة. ليس في حياتي ما يمكن أن أشكو حياله. ابني يأتي للزيارة كلما سمحت ظروفه، وزوجته تقوم بمهامها في البيت من تنظيف وترتيب وغسيل، وما إلى ذلك. أحفادي يلعبون ويتسابقون حول البيت. إذًا! تلك أوقات سعيدة، دون شك. فقط يزداد شعوري بالوحدة كل يوم، والليلة بعد رحيل يانكو تفاقم هذا الشعور بداخلي. أنظر تجاه سور الحديقة إلى شجرة الكمثرى القديمة ذات الظلال الوارفة، وأفكر في اقتلاعها قريبًا. أردت أن أقتلع جذعها العام الماضي، ثم رأيت أن أتركها تؤتي بثمارها المريرة لعام آخر. ينمو الريحان بكثافة بالقرب من السور، وصار من اللازم جزه. محتمل أن أجزه غدًا. سأكتفي الآن بالاسترخاء والاستمتاع برائحة النباتات التي يحملها نسيم الصيف الدافئ في المساء، وأستشعر حركة نمو الأعشاب واستطالتها نحو السماء، وبرودة التيار اللطيف القادم من جهة غابات الصنوبر الجبلية في الغابة، ومن أعلى الضيعة الراسخة عند سفوح جبل ستيب. كل الطرق تتفرع إلى الضيعة، وتنبت في أرضها وتنمو كل الأنواع والأصناف. رحلت بيبتسا إلى نفس وجهة يانكو منذ عشرة أعوام، مثل أبي وأمي. أما أنا، فلم أزل أحيا وحيدًا هنا، أتجول حول البيت، أصلح بعض الأشياء البسيطة، أقود السيارة إلى نزل القرية، لكنني لا أحضر القداس. لا أحب القساوسة، كما لم أحب السياسيين، على الأقل هؤلاء السياسيون الجدد. أيامنا في فرقة يانكو كانت أفضل، حين كان لنا دور سياسي ومكانة جيدة. وقتها فهمنا أهدافنا وآمنا بها. الحديث عن حقوق العمال والفلاحين والمهنيين. إنما في الوقت الحاضر، صارت الأهداف أكثر تعقيدًا، وأهمها جني أكبر قدر ممكن من المال. وكل من توافرت له الظروف ليخطف ما تصل يده إليه سيفعل دون تردد، ومن بين هؤلاء ابني نفسه.

أسمع صوت قطار قادم من على مسافة بعيدة. هذا المساء، تحمل القطارات عمال القرية من ليوبليانا وكراني وتعود بهم إلى القرية. تأتي هذه الرحلات كل مساء. عاد عليها يانكو من فترة إلى أخرى قبل الحرب. عمل صبيًا حرفيًا بإحدى الورش في المدينة. لم يكن قد حصل على دراجته النارية بعد. تعودت استقباله في محطة القطار. ليس فقط لهذا السبب أحببت القطارات، وإنما أيضًا لأن العم شتيفان عمل هناك رئيسًا للمحطة. أعجبت بمظهره الأنيق، وزي العمل الرسمي الذي ارتداه. كان يحمل واحدة من تلك البدّالات التي كانت تستخدم في تحريك القطار حين يكون ساكنًا في موقفه المخصص له. دعوته العم شتيفان، ليس لأنه قريبي، بل لأنه صديق أبي، وطالما تردد على بيتنا ليتناول معه بعض البراندي ويتحدثا في السياسة حتى وقت متأخر من الليل. رأيت العم شتيفان شخصًا شديد التميز، وقفز قلبي الصبي الغر في جوانحي كلما رأيته يستخدم عصا البدَّال بقرصها الأحمر الدائري ويلفه في مكانه ليحرر مكابح القطار، فيتحول كل ساكن إلى متحرك، وتدور العجلات، وتُغلق الأبواب، ويصدر المحرك خواره، وتنطلق القاطرة بحركتها البطيئة إلى خارج المحطة ثم تختفي عن الأنظار. وحين تظهر على الأفق من بين التلال مرة أخرى، أراها تسير بأقصى سرعتها فوق القضبان وتبتعد لتختفي تمامًا مرة أخرى. أتأمل المشهد العجيب وأفكر في ذلك الرجل القوي الذي يسيطر على هذا الوحش الضخم، فيقيده أو يفك قيوده لينطلق، ويخضعه تحت إمرته وتحكمه. أفتخر كثيرًا بصداقته لأبي، وزياراته لبيتنا. لكنه مات كما يموت الجميع،

وذهب حيث ذهبوا مع يانكو. أما القطار، فما زال يجري على قضبانه، ويمر صاخبًا إلى جوار قريتنا، وقلما يتوقف عندها. لكن هذا القطار الذي أسمع صوته الآن سيتوقف في قريتنا. أعرف ذلك! أسترجع الأيام التي استقبلت يانكو فيها في المحطة، عندما يقفز من سلالمه إلى رصيف المحطة قبل أن يتوقف القطار تمامًا عن الحركة. يصيح قائلًا لي:

هل تعرف ما الذي اشتريته؟.... دراجة نارية!

حين جاء بها في زيارته التالية، أخذني وراءه فوقها وتجولنا بها في أنحاء القرية. وقتها، أوشك عيد الفصح أن يحل، ورياح الربيع الدافئة أطلقت صفيرها في أذننا بينما تمر عبر الطرقات التي جففت رمالها أشعة الشمس الساطعة اللطيفة. في الطريق، توقفنا لبعض الوقت لنتمدد قليلًا فوق العشب قرب ضريح القديس جون، قس المعمودية. أخرج يانكو زجاجة خمر من حقيبة الدراجة، وأخذنا جرعات صغيرة. على بعدٍ، رأينا شخصًا يمتطي حصانًا ويسير باتجاهنا عبر الطريق الممهد على حزام الغابة، قال يانكو ضاحكًا:

إنها امرأة!..... انظر كيف يفقز جسدها النحيف فوق السرج!

إنها السيدة الشابة صاحبة الضيعة. اسمها فيرونيكا! تمتطي الفرس كل يوم.

قام يانكو واقفًا ليحصل على رؤية أفضل، وقال:

عليَّ اللعنة! إنها تحرك مؤخرتها فوق الحصان بلطف شديد.

لم تعجبني طريقة حديثه عن السيدة فيرونيكا، فطالما عاملتني بإحسان، مثلما عاملت جميع العاملين بالضيعة. حين قمنا أنا وزملائي بمهام جز العشب كانت ترسل لنا طعامًا، وكان الطهاة يخبروننا بأنها شمرت عن ساعديها وشاركت في إعداده بنفسها. لطالما تحدثت إلى الجميع باستحسان وتقدير وامتنان، لم أنظر إليها كامرأة، على الأقل ليس بالطريقة التي نظر بها يانكو إليها هذا اليوم. أتت إلى حيث جلسنا مباشرة، وتطاير شعرها الناعم في الهواء مع حركة النسيم وخبب الفرس. حين صارت أقرب، وقفت أنا الآخر على قدمي. أمرت حصانها الأسود أن يتوقف، وربتت على ظهره ليسترخي.

هل أنت عاملنا، إيفان؟

بدت في حالة مزاجية جيدة، وابتسمت في وجهينا، واستطردت:

منذ متى تقود دراجة نارية، إيرانيك؟

ليست دراجتي!

أجبتها في خجل:

إنها دراجة يانكو، وهو أخذني معه في جولة عليها.

لم يخفض يانكو عينيه وظل محدقًا فيها بفضول ووقاحة. ثم قال لها:

يمكنني أن آخذك في جولة سريعة أيضًا.

تأخذني في جولة؟

سألته ببساطة ودون أدني شعور بالغضب تجاه عرضه المخزي لها وتجرؤه عليها، وأضافت:

ما رأيك في أن آخذك أنا في جولة سريعة عليه؟ أنا أجيد قيادة تلك الأشياء.

أعرف طبعًا أنها تقود السيارة، وسمعت عن أنها تدربت على قيادة طائرة أيضًا. أجابها يانكو:

آخ! بالله عليك لا تبالغي! لم يسبق لي أبدًا أن رأيت امرأة تجيد قيادة دراجة نارية.

إذًا عليك أن تتطلع إلى تلك اللحظة حين أريك كيف تقود امرأة دراجة نارية، ولكن في وقت لاحق. أما الآن فلا بدّ أن أعود إلى القصر.

راقبناها وهي تدور بالفرس لتعود من حيث جاءت عبر الحقول، وبنهاية الطريق عرجت بالفرس نحو التل ليصعده نحو بودجورسكا. لم يكن يانكو في وعيه إطلاقًا، بل ظل يراقبها حتى بدا أنه مسحور ومفتون بها. بعد لحظات، زفر زفرة حارة، وقال:

يا لها من امرأة!

ثم انفجر ضاحكًا بأعلى صوته، وقال بشهوانية:

لو أخذتني في جولة فعلًا، لطوقت خصرها بذراعيّ هكذا.

وقفز خلفي، ولف ذراعيه على خصري بقوة.

... هكذا!

ثم رفع قميصي قليلًا، وأدخل يديه أسفله ليتحسس جسدي، ثم أطبقهما فجأة على صدري.

... وهكذا!

وازداد هياجًا، فرفعني من خصري لأعلى، وضحكت كالطفل الأبله. قلت له:

بماذا تفكر أيها الأحمق!؟! إنها ليست لك. هي امرأة متزوجة.

فأجابني مبتسمًا:

المتزوجات يجدن الركوب.

ركبنا الدراجة وانطلقنا نحو القرية، وسارت وراءنا سحابة من الغبار أينما ذهبنا. صاح بي فجأة:

إيفان! أنت ساذج! ستبقى فلاحًا للأبد.

تأكدت من حقيقة ما ردد يانكو –ولو على سبيل المزاح- عني، فأنا بالفعل فلاح ساذج. وسألت نفسي: لِم لم أنظر إلى سيدة الضيعة الشابة الفاتنة كامرأة من قبل؟ هي امرأة يانعة وجذابة، حتى لو كانت أكبر سنًّا مني. بالطبع هي مختلفة عن فتيات القرية العاديَّات، ومن بينهن بيبتسا التي أحببتها كثيرًا. كلما مررت ببيتها في المساء، ورأيتها عند الباب، أظل أسير بعدها في أنحاء القرية بلا تعب، وأرقب النجوم وأفكر فيها. أفكر في شعرها الأسود الداكن، وشعوري حين ألمسه في خلوتنا،

وأتذكر مشيتها الرقيقة، ونظرة عينيها الحانية كلما قلبَتْ في الوجوه التي تحيط بها وهي تغني في الجوقة بحثًا عن وجهي. ذات يوم، رآنا القس نجلس خلف الكنيسة على المروج، ويدها في يدي، فأعطانا درسًا في أن الحب الحقيقي لا بدَّ أن يظل طاهرًا بلا أي تلامس جسدي إلى أن يتم الزواج. ضحكت بيبتسا خجلًا من ذكر الزواج، فأضحكت القس أيضًا، ثم قال بنبرة جادة: إن الغرض الأساسي من زواج اثنين هو إنجاب الأطفال وتربيتهم. والإنسان حين يتم تلك المهمة كما يجب، ويجد في العلاقة دعمًا متبادلًا من الجانبين، يصبح من حقه بعد ذلك أن يمارس حقوقه ويرضي رغباته. من يدري، ربما كان القس على حق. فقد كان رجلًا طيبًا، له صوت جميل أحببنا سماعه وهو يغني في الجوقة، ويتحدث إلينا دائمًا بلباقة ولطف. لو حضر جنازة يانكو اليوم، لأصبحت بكل تأكيد أفضل مما كانت عليه. أنا لا أحب القساوسة، لكني كلما تذكرت كلامه لي ولبيبتسا، أتأكد من أنه على حق في كل ما قال. فقد أنجبت لي بيبتسا صبيًّا، وكانت لي سندًا في الحياة. أما الرغبة، فهي شيء آخر غير تلك الأشياء.

وفيرونيكا لم تكن كغيرها من النساء!

لم تنجب أطفالًا ولم تربِّهم. سارت في الضيعة مرتدية ملابس الرجال، وأقدمت على مساعدة الجميع في مهامهم، أيًّا كانت. تمتعت بروح مرحة، وابتسامة دائمة لم تفارق ثغرها. لم تكن كالنساء الثريات اللاتي يجلسن متأنقات، ويجدن متعة في إعطاء الأوامر لمن حولهن ليقومون بتنفيذها وتقديم فروض الطاعة لهن. بل هي امرأة باسمة، وبسمتها أخاذة، تبدو دائمًا كامرأة رقيقة تبتسم لرجل ما. هكذا شعرت أيضًا وهي تبتسم لي. ذات مساء، حين بقيت متأخرًا أنهي بعض العمل في مرأب عربة الأحصنة، شهدتها مرتدية فستانًا من الحرير، وتقف على بوابة القصر ترحب بضيوفها القادمين من ليوبليانا. حين رأتني، عبرت الساحة الخارجية وتقدمت نحوي في المرأب لتسألني إذا ما زلتُ أستقل الدراجة النارية.

لا، فصديقي لم يعد لزيارة القرية مرة أخرى منذ رأيتنا معًا.

ما اسم صديقك صاحب الدراجة؟

أخبرتها. رائحة عطرها المنبعث من جسدها الدافئ ملأت خياشيمي. ضحكت وقالت:

سأريه ذات يوم أنني قادرة على قيادة الدراجة النارية.

سارت بعيدًا، متجهة إلى ضيوفها مرة أخرى. بدت جميلة وبعيدة كأنها في السماء، ولا يمكن ليد أن تطالها. في تلك الليلة، انتابني شعور بالغيرة من يانكو والكراهية تجاهه. أتذكر الآن أنني تضايقت كثيرًا لمجرد أنه ترك لديها انطباعًا بأسلوبه المخجل. تخيلته حين يجلس خلفها على دراجته وذراعاه ملفوفتان حول خصرها. سيفعلها، دون شك! لن يخجل. إذا أتيحت له الفرصة، فربما سيتجرأ على فعل ما تقمصه معي. أكيد سيفعله بالضبط معها. لو أني مكانه، لما تجرأت. هذا لأني سأظل فلاحًا، بالضبط كما قال يانكو. غضبت منه، ومنها. حين عدت إلى البيت واستلقيت في فراشي، حلمت بها، وبه. كانا يتجولان بالدراجة في الحقول، على أقصى سرعة، تتطاير من خلفهما الغبرة في الجو. لف يانكو ذراعيه حول خصرها النحيل، وتطاير شعرها الذهبي إلى الوراء وغطى وجهه. مال بجسده أكثر على ظهرها، ووضع شفتيه على أذنها وهمس بشيء ما.

تغيرت نظرتي لأصحاب الضيعة من بعد لقائنا بفيرونيكا قرب ضريح القديس جون. بعد أن اعتدت

أن أراهم أناسًا طيبين يعاملوننا بكرم ويدفعون لنا بسخاء مقابل خدماتنا، صرت أتساءل عن تلك الضيعة الشاسعة وذلك القصر الفاره، وأتعجب أن تكون ملكًا لزوجين. فكرت في حياتهما؛ كيف تعيش امرأة وحيدة في كل تلك الحقول والحدائق، والغرف التي لا تعد ولا تحصى، فقط مع زوجها، وتستقبل ضيوفها، وتسمح لهم بالسهر إلى أوقات متأخرة. في أوقات الحفلات، تُفتح النوافذ، ويسري صوت عزف البيانو والألحان في محيط الضيعة، مختلطًا بأصوات الضحك والغناء، ونستطيع أن نسمع تلك الأصوات بوضوح. قيل إنها عاشت مع ضابط صربي قبل أن تأتي للإقامة في بودجورسكا، ولكن تلك الشائعات لم تلفت انتباهي. فهؤلاء الأثرياء لهم ظروف حياة مختلفة عن ظروفنا، ويعيشون على طريقتهم، وفكرت أنها ربما كانت مجرد شائعات. إلا أن حديثها مع يانكو في ذلك اليوم كشف لي أمورًا لم أرها، وفتح عيوني على زاوية أخرى، ثم تيقنت من ظنوني فيها حين سألتني بنفسها عن يانكو، فبدأت قناعة ما ترسخ بداخلي، وإحساس بالاستياء يختمر ويتفاقم. الاستياء من يانكو، ومن ذلك الضابط الصربي الذي لم أعرفه، ووضعت نفسي في مكان زوجها حتى إنني تقمصت شخصيته أحيانًا، ووجدتني من وقت لآخر أصرخ فيها لتتراجع عما تفعله. هذا الزوج الطيب العطوف الكريم الطَّيِّع! أولى بها أن تكون ممتنة له، لا أن تقول لرجل ما قابلته لتوها إنها تريد أن تأخذه في جولة على دراجة نارية يومًا ما. سيطر عليّ ذلك التفكير وظلت تلك الخواطر تعن على رأسي مرارًا. وكلما تحدثت إليّ، شعرت بالخجل والإحراج، كأنني أخشى أن تقرأ أفكاري عنها. ذات قداسٍ، نادتني وعرفتني إلى والدتها. كان أهل الضيعة يحضرون قداس عيد القديس جيكوب معنا في الكنيسة أحيانًا، وليس بانتظام. كانت والدتها السيدة العجوز لم تزل في هذا الوقت قادرة على التجول في أنحاء الضيعة، وعرفنا في ما بعد أن المرض اشتد عليها، ولم تعد قادرة على السير، حتى صارت تجلس أحيانًا في المرسم، أو إلى جوار النافذة تراقب العالم الخارجي من خلال إطارها.

هذا هو عاملنا، إيفان! لديه يدان سحريتان. لا يوجد شيء لا يستطيع فعله. كما أنه يغني بصوت جميل، أنتِ سمعتِه يغني اليوم.

سألتني العجوز ما إذا كنت غنيت مع جوقة الكنيسة أثناء القداس، فنظرتُ بخجل إلى حذائي، وأومأت برأسي دون أن أقول شيئًا.

غناؤك عذب، إيرانيك.

نعم، إنه رائع، يا أمي.

لم أجبهما بكلمة، وبداخلي شعرت بالغضب الشديد تجاهها. تحدثت عني بطريقة مختلفة عن تلك التي تتحدث عن يانكو بها. رأيتها مع ضيوفها تغني وتمرح وتقف إلى جوار البيانو تستمع إلى العزف بسعادة، أما معي أنا، فتصبح شخصية أخرى. تصبح سيدة القصر التي تتحدث إلى عاملها الفلاح المطيع الماهر الذي يتقن جز العشب واقتلاع الأشجار بالفأس في الغابة. ويا للروعة، هو يستطيع أن ينشد الأغاني الكنائسية أيضًا! صبي رائع ومجتهد وله يدان من ذهب، إلى آخره! هذا كل ما تراه فيّ! كل ما يمكنها قوله عني! وكل ما عدا ذلك كان الأوامر: «إيفان، هل من الممكن أن تصلح بوابة الإسطبل؟»، « خذ فراناتس من لجامه وتجول به حول المزرعة ليسترخي ويهدأ!»، «الأمطار تجمعت وأغرقت الطريق الممهد، سوف يحتاج المزيد من العمل!»، وغيرها. لماذا لم تتحدث إليّ في أمور أخرى من وقت لآخر. أنا لم أكن مجرد خادم، بل ابن مالك مزرعة كاملة

بجميع مرافقها، ومن المفترض أني مالكها المستقبلي. ما جعلني أعمل في الضيعة هو أن والدي طلب مني أن أفعل، وحين جربت العمل، استمتعت به. وأغدق عليّ زوجها المال مقابل مجهودي. زوجها هو من أعطاني المال، وليست هي. لكنني لست مجرد فلاح يجيد جمع القش، بل كنت آنذاك عضوًا في جميعة الشباب والشابات الريفيين، وكنا نجتمع فيها لنقرأ الكتب، ونؤدي المسرحيات. ذات يوم لعبت دور قس يبارك الجنود السلوفينيين الشباب قبل أن يتوجهوا إلى أرض المعركة ضد الأتراك. في وطني، كنت –ومواطنون آخرون- من قراء نادي القديس موهور الذي يمنح جائزة شهرية لأفضل كتاب، واشتركت في مجلة (البيت السلوفيني) لتصلني أعدادها بانتظام. كان بإمكاني أن أخبرها عن الكثير من الأمور التي تحدث في العالم. وأيضًا عن الأشياء التي أحبتها، مثل الخيل والطائرات، فقط لو أنها أرادت. كنت قارئًا جيدًا مداومًا، ووسعت القراءة مداركي وعرفتني على الكثير من الأشياء. أثارت النبرة الآمرة والابتسامة المجاملة غضبي، وبدأت أتجنب تلقي الأوامر منها. وكلما ذهبت إلى القصر، توجهت إلى السيد جارنيك كلما تواجد بالضيعة، لأسأله ما الذي يجب عليّ فعله.

في مرة أرادت أن تطلب مني القيام بشيء ما في الإسطبل لخيلها، فاعترضت متحججًا أنني والسيد جارنيك اتفقنا على أن أؤدي بعض المهام في الغابة هذا اليوم. فقالت لي:

إن فراناتس يشتاق إليك، لأنك تتعامل معه بلطف أكثر من أي شخص آخر.

فراناتس هو اسم فرسها الأسود الذي أُغرمت به. تظهر عليها سعادة شديدة حين تراه، فتدور حوله وتربت على جسده وتظل تتحدث إليه: «فراناتس، هذا كذا....»، «فراناتس ذلك كذا.... «، كأنه شخص مثله مثلها. حتى الحصان عاملته بأسلوب أفضل مما عاملتني به. فهي لم تظهر لي كل هذا الحنان والعطف يومًا. في أحد الأيام كنا نتناول الغداء في المطبخ، وذكرتُ للخدم طريقة تعاملها الحنونة العاطفية مع الخيل بسخرية، فبررت فاني الطاهية حبها وتدليلها للخيل بأنه افتقاد للأطفال، لأنها لم تنجب. مع الوقت، لم أعد أراها إلا في صورة امرأة المدينة السطحية السخيفة، المتظاهرة بحب الطبيعة والخيل وأعمال الفلاحة. وكل ما خدعت الآخرين به من تظاهر بالاهتمام بأعمال المزرعة، والإقبال على مساعدة العمال والخدم، وملابسها البسيطة التي ارتدتها وهي ترفع القش في الإسطبل، لم يعد يخدعني. رأيتها كما هي. امرأة تحب ملمس الحرير في فساتينها، ووقع الكعب العالي على الأرض وهي تمشي، وتحب سادة رجال ليوبليانا المدعوين في حفلاتها، ومن بينهم مؤخرًا الألمان، خاصة كلما انحنوا أمامها لتقبيل يدها. ومع الوقت، أردت أن أتعامل فقط معه هو، ليو، كلما تواجد بالقصر. كان سيدًا لطيفًا لا يبالغ في التعامل معنا –كما تفعل هي- ليبدو واحدًا منا. كان متحفظًا ومقدرًا لجهدنا ولم يحاول أن يكون ودودًا فوق العادة. يقول لي: «عمل جيد، إيفان». ثم يدفع لي، ثم: «إلى اللقاء». دعانا ذات مرة إلى غرفة الصيد، عند عودته من إحدى رحلات الصيد الناجحة، لتناول الطعام، ودعانا لنخبٍ احتفاء بحظه الجيد في الصيد. كأسه لم تكن فيها خمر، بل ماء. والحقيقة أنه كان كالماء تمامًا: واضحًا، هادئًا، يصعب عليه الاختلاط بالآخرين. عامل فيرونيكا بنفس الطريقة التي عامل بها الجميع: يحترمها، ويبقي مسافة بينه وبينها. وأعجبتني طريقته في التعامل معها كثيرًا.

جاء إلينا ذات يومٍ ونحن نصنع حفرة أمام الإسطبل لنجمع فيها الماء الجاري، ونظر إلى ما نفعله وبدت على ملامحه الحيرة، وسألنا:

هل طلبت منكم أن تفعلوا ذلك؟ أحيانًا ترتكب زوجتي أخطاء دون أن تدري. سأخبركم كيف تفعلون ذلك بطريقة صحيحة.

وبالفعل، أعدنا كل شيء إلى ما كان عليه، وبدأنا من جديد، وبطريقة مختلفة. بعدها دفع مقابل ما قمنا به دون نقاش، حتى العمل غير الضروري الإضافي لم يعترض عليه.

لاحظت فيرونيكا أخيرًا أني أتجنب العمل بأوامرها، وتحت إشرافها، فأوقفتني فجأة في يوم ما بالساحة الخارجية، وحدثتني بحماسة:

سمعت أنك ستتزوج، إيرانيك!

استخدمت لقبي وهي تدعوني وضايقني ذلك كثيرًا. أما يانكو، فتحدثت إليه كأنهما صديقان قديمان حميمان، على الرغم من أنهما تقابلا مرة واحدة. لكنها كالعادة تعاملني معاملة الخادم. حين لم أجب عن سؤالها، طلبت مني أن أخبرها عن اسم خطيبتي، فأخبرتها أنه (يوجيتسا)، ولكن عائلتها تناديها (بيبتسا). قالت إنها تريد أن تعطيها شيئًا لطيفًا هدية زواجها، وسألتني عن لونها المفضل. فأخبرتها أني لا أعرفه، ولكنه ربما اللون الأزرق. لم أشعر بالراحة في الحديث عن أشياء نسائية، وانزعجت لأنها جاءت تحدثني فقط لتعرف بعض المعلومات. وزاد من انزعاجي حفاظها على هدوئها وابتسامتها الودودة، فآثرت أن أشكرها وأنصرف. وحدث أن مرضت بيبتسا بحمى شديدة في صيف عام 1942، وفقدت وعيها، وفقدت أسرتها الأمل في شفائها. ولأن الوقت تأخر ليلتها، ووجدنا أن آخر قطار يغادر القرية قد رحل بالفعل، لم أجد أمامي غير اللجوء إلى أهل الضيعة، وطلبت أن يسمحوا للسائق بأن يأخذنا إلى المستشفى في السيارة. لسوء الحظ، قالوا إن السائق في إجازة، وحتى السيد جارنيك نفسه لم يكن متواجدًا، وتطوعت فيرونيكا أن تأخذنا إلى هناك. لم تتردد لحظة، وقالت:

سأقود بكما إلى هناك.

في نفس الليلة، أخضعوا بيبتسا إلى جراحة عاجلة في المستشفى واستأصلوا زائدتها الدودية. قام طبيب من الجيش الألماني بإجراء الجراحة، ومن بعدها تعافت في وقت قصير. عرضت السيدة فيرونيكا أن تأخذها من المستشفى إلى بيتها بعد أسبوع من إقامتها هناك للتعافي. في طريق العودة، قادت السيارة بسرعة وأثارت زوبعة من التراب خلفها، وقلت لنفسي: ها هي الآن تقود بي أنا، لا بيانكو. وفي سيارة، لا دراجة نارية! بالنسبة لي، كان يومًا رائعًا. نحن الثلاثة معًا في السيارة عائدون للقرية. فتاتي المسكينة المريضة تجلس في المقعد الخلفي، وأنا وفيرونيكا نجلس إلى جوار أحدنا الآخر في المقاعد الأمامية. لو رآنا يانكو هكذا، لأكلت الغيرة قلبه. كنت سعيدًا، ولم يضايقني غير الحوار الذي دار بيننا عندما توقفت على الطريق عند نزل ما لتشتري بعض البيرة.

نعم، تذكرت! قل لي... أين صديقك هذا الآن؟.... ماذا كان اسمه؟

شعرت بحنق شديد لأنها لم تزل تفكر به، ولكن ما أراحني قليلًا أنها لم تعد تتذكر اسمه. قلت لها اسمه، فتذكرت، وسألتني إذا ما كان لا يزال يقود دراجته البخارية في أنحاء القرية. الحقيقة أن جولتها مع يانكو على دراجته لم تحدث أبدًا. لم تتسنَّ لها الفرصة للقيام بها، كما لم تتذكر أن تعطي لبيبتسا هدية الزواج التي عرضتها عليّ. تسارعت الأحداث بعدها، وانضم يانكو إلى الجماعات التي تقاوم الألمان في الغابة، وراح يقنصهم واحدًا تلو الآخر. أما زواجي أنا وبيبتسا فلم يتم إلا

بعدما انتهت الحرب، ورحلت فيرونيكا.

الحرب اندلعت فجأة، وانتشرت المركبات الحربية المملوءة بالجنود الألمان في قريتنا، تسير في صفوف لانهائية. في الأشهر الأولى، لم تتغير الأحوال في الأنحاء تغيرًا ملحوظًا سوى في أقسام الشرطة التي سيطرت عليها الشرطة الألمانية. وتعاونت شرطتنا معهم، وقاموا بدوريات مشتركة في القرى المجاورة لنا، ثم دوريات تفتيش أخرى في نزل القرية كل مساء. أثناء عملي بقصر الضيعة، لاحظت أن الضباط الألمان من كراني صاروا أغلبية بين المدعوين للحفلات التي تقام هناك، على غير العادة. بدا أنهم أحبوا المكان كثيرًا، خاصة أن الزوجين جارنيك أتقنا لغتهم، كما –بحسب ما سمعنا- قضت فيرونيكا فترة دراستها في برلين. بعد رحلة علاج ببيتسا في المستشفى العسكري الألماني بوقت قصير، وفي نفس عام 1942، انتشرت الأقاويل بين الناس في القرية عن أن جنودنا العائدين من الأسر بعد توقيع اتفاقية الاستسلام بدؤوا في إعادة تنظيم صفوفهم في الجبال لتشكيل المقاومة. قاموا بعمليات هجوم على الشرطة الألمانية ومكاتبها، واستولوا على الأسلحة والذخيرة، ونصبوا كمائن لإطلاق النار على صفوف مركباتهم ومدرعاتهم الحربية. وفي يومٍ، داهَمَتْ مجموعة كبيرة من قوات النواب الألمان قريتنا، بالتعاون مع أفراد شرطتنا، بيوت القرية، على خلفية اغتيال أحدهم في كمين أثناء سيره بدراجته على طريق عند أطراف الغابة. ألقوا القبض علينا واقتادونا إلى قسم الشرطة لاستجوابنا عما إذا كنا نعرف أي معلومات عن الحطابين. دعوني إلى غرفة الاستجواب، حيث وجدت رجلًا من ولاية تيرولين النمساوية يرتدي زي الشرطة. ذرع الشرطي الغرفة روحة وجيئة، وهو يسألني بعض الأسئلة ترجمها لي مدرس بالقرية يعرف الألمانية. لم يكن لدي إجابات عن أسئلته. وحتى لو كنت عرفت وقتها أن يانكو كرالي انضم إلى الحطابين، لم أكن لأشي به أبدًا. فأنا لست يهوذا.

ثم في ليلة من ليالي الخريف في عام 1942، سمعت أحدًا يدق بصوت خفيض على نافذة البيت دقًّا متتاليًا دون توقف وبإصرار، خرج أبي ليفتح الباب ويرى من بالخارج، وسمعته يتحدث إلى شخص ما، ثم عاد إلى الداخل شاحبًا تمامًا، وأخبرني أن من بالخارج يريدونني أنا وليس هو. قال لي بنبرة غاضبة، شابها خوفٌ أراد أن يخفيه:

إنه صديقك هذا!

لم يكن راضيًا عن صداقتي ليانكو، ودعاه بـ(شريد المدينة). سألته:

لماذا لم تدعُه للدخول؟

حين خرجت إليهم، فهمت السبب الذي منع أبي من دعوته لدخول البيت. فقد انتابني الفزع من هيئة يانكو ليلتها، حين رأيته يحمل فوق كتفه بندقية آلية تتأرجح في حزامها الواسع فوق جاكيته الجلدي الوثير، وعلى خصره حزام آخر يتدلى منه جيب مسدسه، وفي منتصف قبعته علامة لنجمة حمراء. عرف أبي أنه صار من الحطابين، ولم يكن يحبهم، بل دعاهم بـ(المخربين). وإلى لحظة وفاته لم يسامحني على انضمامي إليهم في ما بعد. لكنني لم أنضم إليهم إلا بعد مرور عام على زيارة يانكو لي. أمعنت النظر في الظلام خلفه، فرأيت ظلين يقفان تحت شجرة الكمثرى بالقرب من سور حديقة بيتنا. اختصر يانكو الكلام وتجاوز التحية، ليدخل مباشرة إلى الموضوع:

هل ما زلت تصعد إلى بودجورسكا؟

نادرًا!

أريدك أن تستمر في الذهاب إلى هناك، ومراقبة الضيعة وإخبارنا بكل ما يحدث هناك.

أردف أن جماعته تناضل من أجل حرية الأمة السلوفينية، واستخدم كلمات براقة معقدة وجذابة، وتعجبت كيف أنها خرجت من مهرج لعوب مثل يانكو.

بينما تستمر عائلة الضيعة في إقامة حفلات لأفراد جيش المحتل، ستكون أنت عيننا عليهم.

وشرح لي في عجالة أن كل تفصيلة –مهما كانت تافهة- هي مهمة بالنسبة لهم. مثلًا: من يأتي، متى يرحلون، أسماؤهم، مهمتي أن أعرف أسماءهم من الخدم، هل بينهم ضباط ألمان أم لا، وإذا كان بينهم ألمان، فما هي رتبهم، وأوصاف سياراتهم، وهل يرافقهم حرس مسلحون، وإذا كان يرافقهم حرس، فكم عدد الحرس الذي يرافق كل واحد فيهم. ألجمت الدهشة لساني. في تلك الفترة، كره كثير من الناس الحطابين لانتشار الشيوعيين الجشعين بين صفوفهم، والذين عرف عنهم أنهم أرادوا الاستيلاء على كل ما يملكه الفلاحون. بالضبط كما فعلوا في روسيا. ورغم هذه الكراهية، لم يتوانَ أهل القرية عن مساعدة الحطابين بإمدادهم بالطعام والملابس لأنهم في جميع الأحوال أبناؤهم، من لحمهم ودمهم. حتى أهل الضيعة فعلوا نفس الشيء. فمن عمل هناك رأى بالتأكيد زياراتهم المتكررة إلى بودجورسكا ومغادرتهم من هناك وهم محملون بحقائب ظهر ضخمة ومنتفخة عن آخرها ومتجهون بها إلى الغابة. أما أنا، فقد رأيتُ بعيني ذات صباح، بينما كنت أعمل في الغابة قرب كوخ الصيد، عندما أتى حارس الكوخ ومعه اثنان من العمال يحملون حقائب ظهر ضخمة وثقيلة، تنوء بحملها ظهورهم، أحضروها من القصر إلى الكوخ. فسألت الحارس مازحًا:

هل تلك هدايا للدببة؟

نعم. فقد قاموا بهجرة جماعية من كوتشيفي إلى الشمال.

ضحكنا جميعًا. نعرف أن منطقتنا وما يحيط بها من سياج الغابة لا يعيش بها أي دببة. وحتى لو صادف أن جاءت الدببة، فإن صاحب الضيعة لن يهديهم حقائب محملة بالطعام. كل من عمل ببودجورسكا، كان يعرف أن السيد جارنيك ساعد البارتيزان، في الوقت الذي استقبل فيه الضباط الألمان في بيته. وهكذا، عاش تلك الفترة بشخصية مزدوجة. ولا غرابة في ذلك على الإطلاق، لأننا جميعًا عشناها مثله تمامًا. تجنب التعامل مع الألمان كان أمرًا مستحيلًا لأنهم كانوا حولنا في كل مكان. حتى جنودنا الذين تفرقوا في أنحاء البلاد، قد نجد أحدهم عائدًا فجأة، مرتديًا زيًّا عسكريًّا ألمانيًّا، ليحكي لنا عن المعارك التي حارب فيها الروس. وآخر قد يأتي من إفريقيا، وهكذا.

لكنني ظننت أن أهلنا هناك يساعدونك بالفعل.

قلت ليانكو حين طلب مني أن أكون عينهم على بودجورسكا، فغضب كثيرًا، وقال لي:

ليس من المطلوب منك أن تظن، أو تفكر. هناك من ينوب عنك في التفكير، وما عليك أنت إلا أن تنفذ ما تؤمر به.

لم أجبه، فصمت للحظات وهو يتفرس في ملامحي، ثم قالها مبتسمًا:

لن تفهم أبدًا يا إيفان! ستعيش وتموت فلاحًا.

وفي لحظة، ارتسمت على ملامحه جدية صرفة، وبدأ في إعطاء الأوامر. قال سيأتيني شخص خلال عشرة أيام ليعرف مني أخبار الضيعة، ومن المفترض أن أخبره بكل ما يجري، وكل ما رأيت. وسأدون له في ورقة جميع الأسماء والأرقام التي سأقوم بتجميعها. ومن باب العلم، هناك من بين العمال في الضيعة من يعملون بالفعل لحسابه، لذا فإن كل معلومة سأخبر بها ستتم مراجعتها أكثر من مرة للتأكد من صحتها، وفهمت أن ذلك تهديد صريح. ثم بعد فترة سيتم تعيين شخص مسؤول عن استلام التقارير مني. ضم قبضته ورفعها لأعلى ملوحًا بها في الهواء على مقربة من قبعته، وقال:

تسقط الفاشية!...

بقيت صامتًا، فقال لي إنني من المفترض أن أجيب على ذلك قائلًا: «... والحرية للشعب!».

سار حتى اقترب من سور الحديقة، فانضم إليه الظلان القابعان تحت شجرة الكمثرى، ثم رحلوا جميعًا.

الجدية والتحية –على وجه الخصوص- وغيرها من تصرفات يانكو غير المألوفة أوحت لي بأن كل ذلك ربما مجرد مقلب من مقالبه السخيفة. وتمنيت لو تحملت سخافته بدلًا من الاضطرار إلى احتمال تهديداته الصريحة العدوانية. أصابني ذهول مما يحدث، ماذا جرى فجأة لصديقي القديم الذي طالما أعجبت به جعله يأتي إلى بيتي ويوجه لي الأوامر، والأعجب من ذلك أن يهددني؟ يطلب مني أن أتجسس على من أكرموني، ودفعوا لي بسخاء مقابل خدمتي؟ هناك مقولة ألمانية يرددها أبي. أبي الذي عاش في الإمبراطورية النمساوية الحبيبة، ثم رحل عنها بعد سنوات طويلة، حفظ هذه الجملة التي تقال عن الواشي، أو الجاسوس، ودائمًا تذكرها ورددها كلما سمع عن واشٍ أبلغ في إدارة الضرائب بقسم الشرطة عن أن أحد الأشخاص قد ذهب إلى الغابة واقتلع شجرة أو اصطاد غزالة دون تصريح. كان ليقول عندئذٍ: « الواشون سيظلون للأبد الأحقر بين جميع الأوغاد». ورغم أن يانكو لم يطلب مني أن أفعل ذلك بالضبط، وأن تلك الأوقات الخبيثة التي نعيش فيها تتطلب أن نقوم بأشياء لا نرضى عنها، ولا هي من طباعنا، إلا أن ما طلبه كان درجة من درجات الوشاية. شعرت بثقل على كاهلي في تلك الليلة، ولم يطاوعني النوم. ظللت أحدث نفسي: « أنا لست واشيًا، أنا لست يهوذا!». وبقيت مقتنعًا بذلك حتى ونحن في كوخ الصيد مع ليو وفيرونيكا في تلك الليلة المريعة في شتاء يناير عام 1944، وحين رأيت في عيني فيرونيكا شيئًا أكبر من الخوف. أحسست أنه الأمل في أنني سأساعدها، لكنه كان ممزوجًا بالعتاب والاستنكار في نظراتها لي. ورغم أنني فهمت مغزى نظراتها، لكنني كنت يائسًا من قدرتي على مساعدتها بأي شيء، وحاولت أن أخلص نفسي من هذا الذنب بإصراري على أنني لم أشارك في فعل شيء، وإنما كل ما فعلت هو أنني وقفت حارسًا على الباب. ولو فكرت أن أفعل أي شيء –ولو حتى صدر مني صوت يدل على اعتراضي- عندما سحبوها من ملابسها وأدخلوها إلى غرفة الطعام بالقوة لاستجوابها، لما ترددوا لحظة في قنصي. لا شك أن يانكو كان محقًّا حين قال قبل وفاته بأسبوعين وهو متكور على جسده الضئيل المسلول في كرسيه الضخم إنهم طاردونا كما لو كنا حيوانات شرسة. ذلك هو ما جعل تحقيق النظام أقرب إلى المعجزة المستحيلة والمخاطرة المميتة. أثناء كل عملية كنا نقوم بها، لم يكن هناك أي مجال للاعتراض. فأي اعتراض يتم تفسيره على أنه محاولة للتخريب أو الانشقاق. فماذا كان بوسعي أن أفعله أنذاك؟ لا شيء! نعم رأيت الخوف

والأمل في عينيها، وشيئًا آخر لا أعرف ماذا أسميه. وكأن على لسانها كلمة تجاهد أن تمنعها من الخروج.... «ولكنك إيفان عاملنا، واحد منا، أحببناك كثيرًا، وأردت أن أهدي بيبتسا شيئًا لطيفًا بمناسبة زواجكما! ألن تفعل شيئًا حيال ما يحدث لنا؟» ولكن ماذا سأفعل؟ ربما لو أن يانكو مكاني لفعل شيئًا. هو القائد، ووافق على تنفيذ العملية! ولم يتراجع، ولا تعاطف معها حتى. رغم أنه هو من وعدته بجولة على دراجته النارية، وليس أنا. كانت ستقود وتسمح له أن يجلس خلفها، ويضحك بصوت مرتفع، ويقبض على خصرها بذراعيه، ويقول شيئًا ما في أذنها –يعلم الله ما هو- فتضحك هي الأخرى. لقد قابلت وقاحته بصدر رحب، وبدا أنها أعجبتها. وفي ما بعد، سألتني عن اسمه في الليلة التي استقبلت فيها ضيوف حفلها وهي ترتدي فستانًا من الحرير. بينما بالكاد لاحظت وجودي في أي وقت. لم أكن في عينيها سوى الفلاح ذي الأيدي السحرية، الذي جاء من بوسيليا وأتقن غناء الترانيم الكنسية؛ «عاملنا المجتهد، إيفان».

كما وعد يانكو في زيارته، لم يمر اليوم العاشر إلا ووجدت شخصًا يدق على النافذة، فأضأت الغرفة وفتحت المصراع، فوجدت امرأة شابة تضع منديلًا على رأسها، وتغطي به جبهتها تمامًا. همست بأن يانكو أرسلها:

كيف أثق في ما تقولين؟

سألتها بحرص، فأجابتني بسؤال:

وكيف لي أن أعرف نافذتك إن لم يكن هو من أرسلني؟

فكرت -وأنا لم أزل أشعر بالنعاس- في أن حجتها مقنعة جدًا، فكيف سيعرف شخص غريب مكان نومي إن لم يرشده هو إليه؟! تلفتت حولها في قلق وأمرتني أن أطفئ الضوء. انعكس الضوء على وجهها، إلا أنني لم أر من ملامحها الكثير بسبب المنديل. دخلت من النافذة لأطفئ المصباح ووقفت في ظلام الغرفة، أسترق السمع إلى داخل البيت لأتأكد من أن الجميع ما زالوا نائمين. عدت إلى النافذة، فسمعتها تقول لي:

ماذا لديك؟

أخبرتها أنني لم أذهب إلى القصر إلا مرات قليلة، فسألتني:

ماذا رأيت وأنت هناك؟

لم أر الكثير.

شعرت أنه ليس من المنطق أن أنقل أخبار الذين يترددون على الضيعة لامرأة ما تقف على نافذتي. ولما لم أعطها إجابة شافية، ظهرت عليها علامات فروغ الصبر، وقالت بنبرة صوت مرتفعة إلى حد ما، تعكس غضبها:

الرفيق يانكو يثق بك، ويعتمد عليك!

بقيت صامتًا، حتى يئست مني:

حسنًا! سأخبر يانكو أنك ترفض العمل معنا.

لم أرغب في زيارة أخرى من صديقي، يأتيني فيها حاملًا بندقيته الآلية، وخلفه تابعان من رجاله يقفان في انتظاره تحت شجرة الكمثرى. قلت لها دون تردد:

كانت هناك سيدة من ليوبليانا. ورجل ما يعزف البيانو، وقد قضى اليوم بطوله في العزف.

ما اسمه؟

على ما أذكر، فيتو. خرج أكثر من مرة إلى الحديقة ليدخن. اشتكى من أن البيانو قديم ويصعب العزف عليه. لذا، فهم مضطرون لشراء بيانو جديد.

صمتت للحظة، ثم صاحت بنبرة خفيضة قدر الإمكان:

ما الذي يهمني أنا؟ ماذا يهمني من أمر البيانو؟! قل لي من غير هؤلاء يتردد على القصر؟

غير هؤلاء ليس إلا نحن العاملين بالقصر.

ماذا عن الألمان؟

أدركت أنها بدأت تفقد أعصابها وصبرها، وتوقعت أنه ربما يكون لها يوميًّا حصة محددة من المعلومات يجب أن تجمعها وتقدمها للقيادة. ومعلومة عن عازف بيانو من ليوبليانا لن تغطي جزءًا من تلك الحصة اليومية.

ليس الكثير من الألمان. هناك سيد ألماني في منتصف العمر، طبيب تقريبًا.

هل جاء وحده؟

بل كان برفقته اثنين من المسعفين، وانتظراه في المطبخ بالدور الأرضي. قدمت لهم يوجي طعامًا. غالبًا كان يجلس في غرفة الطعام بالدور العلوي ليتناول الغداء.

ما المدة التي قضاها في القصر؟

لا أعرف، ربما ساعتين. لقد كنت في الخارج أعمل بالحديقة، ولم ألحظه حين غادر.

هل سبق أن ذهب فالنر إلى الضيعة؟

لم أكن أعرف وقتها من هو فالنر، فأجبتها:

لم أر أي زوار آخرين.

سمعنا فجأة صوت اصطدام داخل المنزل، ثم صوت باب يفتح في ممر الغرف، ونزلت بجسدها لأسفل وبقيت على وضع القرفصاء لتختبئ كي لا يراها أحد من داخل المنزل.

لا تقلقي! هذا أبي. يصحو غالبًا في تلك الساعة من الليل ليذهب إلى المكان الذي تعرفينه.

مدت قامتها ووقفت مرة أخرى:

عليك أن تجتهد أكثر من ذلك! فالمعلومات التي أخبرتني بها ليس لها أي قيمة.

قلت في نفسي: ليكن! سأكون عنيدًا كجميع أهل هذه القرية. قالت:

لا أعرف ما إذا كنا سنثق فيك لدرجة أن نعين لك شخصًا يعمل كنقطة اتصال بيننا وبينك.

قلت في نفسي غاضبًا: إذًا فلا تعينوا أحدًا! فأنا لست متطوعًا، كما هو واضح! ورحلت دون أن تزيد كلمة، ودون أن أجيبها بأي شيء، ثم اختفت تمامًا فجأة بين الأشجار في اللحظة التي أغلق فيها أبي باب المنزل الخارجي المجاور للحظيرة.

مرت على تلك الأيام عقود طويلة، نصف قرن تقريبًا لأكون أكثر دقة. وهناك الكثير من الأحداث المنسية فعليًّا، ولكن زيارة المرأة الغريبة لي في ذلك اليوم ليست بين ما سقط من ذاكرتي. حين قابلت يانكو في الغابة بعدها، سخرت من الموقف، وأخبرته أن المخبرة التابعة له ارتعبت حين سمعت صوت أبي خارجًا من غرفته ليقضي حاجته في منتصف الليل، حتى إنها قبعت في مكانها فظننت أنها بالت في ملابسها من شدة الخوف. ضحكنا حتى كادت قلوبنا أن تتوقف. ربما نسيت أحداثًا كبيرة، لكن المواقف الصغيرة المشابهة لتلك المواقف لم تزل عالقة بذاكرتي وبكل تفاصيلها. في الغالب ما يحدث حين تسترجع أحداث فترة معينة من حياتك، فإن سيل الذكريات يبدأ بتلك الأمطار الخفيفة البسيطة، إلى أن تهطل بغزارة وتفيض الأمواج وتغادر شاطئها، إلى أن تبلغ العواصف أوج هياجها.

لم أنس أي ذكرى تتعلق بيانكو، ذلك الصديق الذي دفناه اليوم. لقد غنوا له «بحيرة السكون»، وهي نفس الأغنية التي غناها كثيرًا في الغابة، إما بالقرب من النار التي التففنا حولها إلى جوار الخيم، أو حين تنتابه لحظات الحزن، أو بعد أن يتناول كأسًا من الخمر، وتنجرف مشاعره.

«حين نملك حريتنا من جديد...».

هذا الجزء الذي أثر فينا كثيرًا كلما رددناه، وفي كل مرة تخنق العبرات واحدًا منا ويبكي، كما فعلتُ اليوم في الجنازة، تحت لهيب الشمس، عندما شعرت أن شيئًا اخترق صدري بمجرد أن وضعوا العلم على التابوت الذي نام فيه رجل جدير بالاحترام، باعث على الفخر. صديق أنقذ حياتي، وغريم كرهته ذات يوم، بسببها هي، بسبب فيرونيكا. مستحيل أن أنسى يانكو؛ ضحكه وغناءه. ومستحيل كذلك أن أنسى فيرونيكا؛ طريقة مشيتها، عطر جسدها حين تكون قريبة. محتمل أنني صرت أخلط بين بعض الأمور، ولكن من غير الممكن أن أغفل عن أي تفاصيل تتعلق بهما، أو تفوتني ولو كلمة، حتى صوت كل منهما لا يزال يتردد في أذني، وأسمعه حين أستيقظ من النوم في منتصف الليل فجأة في هذا البيت الكبير الخالي. وحتى في هذه اللحظة، وأنا على مشارف الليل، جالس في هذا البيت وحدي، وبعد أن وارينا يانكو التراب منذ ساعات، لم أزل أسمع صوته وصوتها.

حين صرتُ رفيقًا مسلحًا، شاركت باقي الرفاق في الكر والفر، في المسيرات والتجمعات، في الضحك، وفي الحزن على من فقدناهم، ثم في مواصلة النضال. بعد هجومنا على قسم الشرطة في بوكوفي، سرتُ بين جثث الموتى من الألمان والسلوفينيين الذين ارتدوا زي الجيش الألماني، وتعرفت على أحدهم، بالرغم من شحوب ملامحه. تداخلت ذكريات تلك الفترة من حياتي في رأسي؛ ليالي الأرق الطويلة، التخييم، السير في الجبال، الوديان، الطرق الصخرية، مسيرات منتصف الليل على أطراف الغابة، مرورًا بالقرى واحدة تلو الأخرى، التلاحم، القصف، وغير ذلك من الأشياء التي حدثت ولا أتذكر منها سوى صور مشوشة، بلا تواريخ ولا أسماء لقرى أو جبال.

لقد نسيت الكثير والكثير من كل شيء. لكن الكثير مما نسيت مدون في المذكرات المتراصة على أرفف مكتبتي في الداخل وسط الكتب. للأسف ليس على أعلى مستوى من الدقة، ولا بمنتهى التفصيل، ومن بين ما سقط سهوًا حادثة المرأة التي جاءت إلى الغابة لتقطف بعض الفطر، وأرديناها قتيلة ظنًّا منا أنها جاءت لتتجسس علينا. وقصة ميلان الخائن الذي فرض نفسه للانضمام إلى فرقتنا، ثم اكتشفنا أنه يترك رسائل للألمان بها معلومات عن تحركاتنا، في مناطق معينة متفق عليها، وفي أثناء الدوريات التي خرج فيها وادعى أثناء استجوابه أنه دخل تلك المناطق لأنه «أضاع الطريق». قال باكيًا: «إنني أحبكم يا رفاق!»، فضربناه حتى الموت لأننا لو أطلقنا عليه الرصاص كنا سنضحي بكشف موقعنا للعدو. مثل تلك الأحداث وغيرها لم تذكر في المذكرات. أعرف هذا لأنني من وقت لآخر أقرأ في واحد أو أكثر منها لأسترجع الأحداث المدونة بها، والتي كانت جزءًا من حياتي. في غرفة المعيشة، وعلى جدار كامل، توجد لوحة زيتية مرسومة للموالين يلتفون حول النار وسط الخيام في الغابة، في ليلة من ليالي الصيف. حين رآها ابني يانكو لأول مرة في إحدى زياراته لي قادمًا من ليوبليانا، أصابه الذهول، وقال لي:

أنا آسف، ولكن هذه حماقة! تلك الرسومات الزيتية القبيحة غير الاحترافية، لا فن فيها. ثم، كم تبعد الغابة عن البيت؟! الغابة هنا في الخارج على بعد خطوات، فلِم تصر أن تحضرها إلى داخل البيت؟!

ضحك، واستطرد:

لو أنك تفتقد تلك الأيام، يمكنك الخروج والسير قليلًا حتى تصل إلى جذع شجرة، لتجلس عليه وتتذكر كل ما دار هناك.

كثير من الأمور لا يفهمها ابني يانكو، هذا كل ما في الأمر! ولن يفهم أنني حين أكون وحيدًا في البيت أحيانًا، وأفتح كتابًا ما لأقرأه، وأملأ لنفسي كأسًا من الخمر، فإنني أحب أن أجلس في صحبة الرفاق، أو أتمشى معهم بطول الجدار مثلًا، وأستمع إلى أغنياتهم التي قمت بتسجيلها. فتنتابني مشاعر مختلطة ما بين السعادة والألم معًا.

قالت تلك المرأة التي قبعت أسفل نافذتي في تلك الليلة إنهم قد لا يمنحونني الثقة وقتها بتعيين نقطة اتصال بيني وبينهم. وفي الوقت الذي لم أهتم فيه بتلك الثقة على الإطلاق، فوجئت أنهم بالفعل منحوني إياها دون طلب مني. ثم اكتشفت أن نقطة الاتصال التي تم تعيينها لتبلغ تقاريري إليهم كان أحد العاملين بمحطة القطار، بل هو رئيس المحطة بنفسه، الرجل الذي طالما أدهشني وأعجبت به منذ الطفولة، وأذهلتني عصاه السحرية التي تحرك القطار وتوقفه. أتذكره دائمًا سائرًا متأبطًا عصاه ومتجهًا نحو الرصيف بجلال وكبرياء، ثم يعلو خوار القاطرة ما إن يلمسها، فيعلن كمساري المحطة الاستعداد للمغادرة، وينادي على المسافرين بالرحلة ليستقلوا القطار في أسرع وقت. وينتهي المسافرون من توديع أحبائهم على الرصيف ليقفزوا في القطار قبل أن يسير، وتغلق الأبواب. وما إن يرفع عصاه ويلفها في قرصها، تدور العجلات وتمضي القاطرة. لم أمل أبدًا من هذا المشهد، وطالما راقبته من اللحظة الأولى إلى الأخيرة بنفس القدر من الدهشة والمتعة. ما زلت أتذكر وقع المفاجأة على العم شتيفان –كما اعتدت أن أدعوه- حين دخلت عليه مكتبه في زيارة بناء على طلب البارتيزان لأخبره بأنني الشخص الذي كان في انتظاره. كانت تلك الجملة هي الشفرة التي سيعرف بها من أرسلني لمقابلته. لكنه لم يرد إلا بكل هدوء، قائلًا: «يسعدني مرورك. بلغ

سلامي لأبيك، وأهلًا بك في وقت آخر». من خلال هذا الحوار المقتضب، نجحنا في تفعيل الاتصال بيننا بنهاية عام 1942.

زوار القصر كانوا زُمَرًا متنوعة من البشر؛ من علية الأقوام في ليوبليانا، إلى قساوسة القرى المحيطة. لكنني لم أقدم عنهم أي تقارير. الحقيقة، لم يكن لدي رغبة في التجسس على أصحاب الضيعة الذين وفروا لي عملًا، ودفعوا لي مقابله، وتعاملوا معي بلطف، ولم أحمل لهم أي ضغينة. في الوقت نفسه، كان لا بدَّ أن أبلغ البارتيزان بمعلومات. ما هي تلك المعلومات؟ إذا قلت إنني أحيانًا أبقى لوقت متأخر لأؤدي بعض العمل، ثم أسمع بعض الموسيقى والضحك قادمًا من النوافذ المفتوحة، فإن تلك معلومات بلا قيمة. ثم جاءت زيارتي الأولى للعم شتيفان بعد أن أقمنا الاتصال، ووقعت بعدما رأيت السيدة جارنيك تقف على البحيرة مع الطبيب. سلوكها معه أغضبني كثيرًا، واحتقرتها، ثم قررت أن يكون تقريري الأول عنها. شرحت للعم شتيفان كل شيء عن تصرفاتها وأسلوب تعاملها مع الضيوف، حتى قرر أن يستخدم عصاه ليحرك القطار ويجعل عجلاته تدور، ولكن هذه المرة لا ليسير على القضبان، وإنما ليسير عليها، ويدهسها.

قبل أن يسير القطار على فيرونيكا، قضيت بضعة أيام في سجن كراني بعدما قُبض عليّ ذات صباح قارس البرد في نوفمبر، في يوم أحد –أذكر هذا اليوم بكل تفاصيله- دخلت إلى القرية شاحنتا نقل، وفي مقدمتهما سيارة ركاب صغيرة. فتوجهتُ نحو السور لأتبين وجهة الموكب، لكنه توقف على بعد مئة متر تقريبًا من بيتي، بالتحديد أمام مزرعة كوشنيك. خرج رجلان من سيارة الركاب يرتديان جاكيتين من الجلد، وقفز مجموعة من الجنود مترجلين من مؤخرتي الشاحنتين. لم أفهم ما الذي يجري بالضبط، وظننت أنهم يبحثون عن شخصٍ بعينه. انتابني القلق حين استرجعت زيارات يانكو الليلية والمرأة التي تأتي من طرفه إلى بيتي. دخلت إلى البيت، وقبل أن أخبر أبي وأمي بما يجري في الخارج، عبر ثلاثة جنود يرفعون بنادقهم بوابتنا الأمامية، وأمرني أحدهم بالسلوفينية أن أرتدي ملابسي وأحضر أوراق هويتي لأذهب معهم. ثم قال شيئًا بالألمانية للجنديين الآخرين، فأجابا بهز رأسيهما بالموافقة على ما قال. كان أبواي جالسين على الطاولة عند دخولهما، ثم وقف أبي، وقال لهم:

هو لم يفعل شيئًا!

لكن الجندي لم يقل سوى «هيا بنا!»، فالتفت أبي إلى رفاقه وقال لهم بالألمانية: «نحن لدينا ولاء، نحن كاثوليكيون!».

نعم، نعم.... كاثوليكيون!

كرر أحدهم الكلمة بسخرية، فضحك الثلاثة معًا. وظل أبي يتحدث ويلوح بذراعه تجاههم، دفعه الجندي الذي يتحدث السلوفينية إلى الوراء باتجاه الأريكة. وقال له:

ابق جالسا في مكانك، فربما لا يكون هناك مشكلة بشأن ابنك، وعندئذٍ سيعود إليك في خلال أيام.

هل سيتم تجنيده؟

سأل أبي محاولًا باستماتة -ولآخر لحظة- الحصول على أي معلومة تطمئنه، رغم علمه بأن الاستدعاء للتجنيد يتم باستلام المجند رسالة إخطار بالبريد من طرف الجيش الألماني تتضمن

تاريخ تسليم نفسه في الوحدة. وفي حال تغيبه، يأتي أفراد من الجيش للقبض عليه. كثيرون من أهل القرية، من الشباب والكبار، تجمعوا إلى جوار الشاحنتين المغطى سقفيهما بالقماش المشمع ينتظرون خروجي. قفز الجنود إلى مركباتهم واقفين، وفعلت مثلهم، والتصقنا ببعضنا حيث اكتظ صندوق الشحن بالواقفين. نظرنا بعضنا إلى بعض في صمت، دون أن ينطق أحد. حين وصلنا إلى كراني دفعوا بنا إلى داخل زنزانة في قبو، وبلغ عددنا فيها نحو خمسين فردًا. سمعنا أصوات شاحنات أخرى تدخل إلى ساحة الموقع الذي تم حجزنا فيه، واستنتجنا من الصخب في الخارج ووقع الأقدام الكثيرة المتدافعة، والأصوات المتداخلة المرتفعة أنهم قد قبضوا على المزيد منا، وتوقعنا أن أعدادهم تفوق أعدادنا بكثير. بعد فترة، بدؤوا يأخذون من بيننا جماعات تتراوح بين اثنين إلى ثلاثة أشخاص. لم يكونوا متأكدين من هوياتنا، وكان من الواضح أنهم لا يعرفون من نحن. أخبرنا العائدون إلى الزنزانة أنهم طلبوا منهم أولًا تقديم أوراقهم الثبوتية، ثم الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمعلومات مذكورة في تلك الأوراق ليتحققوا من أنها تخص كل واحد منهم فعلًا. حدث ذلك معي بالتفصيل، واستغرق التثبت من هويتي عشر دقائق. ثم بدأ الانتظار في الخارج إلى أن يتم استدعائي بالاسم كما فعلوا مع من انتظروا قبلي. كلما دخل أحدهم غرفة الاستجواب سمعنا ضربًا وصفعًا وخبطًا وتأوهًا وصراخًا. خرج البعض بعد الاستجواب مبتسمين، والبعض الآخر خرج بوجه مغطى بالدماء ومليء بالبروز والتورمات. قالوا إنهم ضُربوا بخُصيات الثيران. يلفون أنسجة الخصية العضلية بعد تجفيفها بالقماش ويضعونها في طرف السوط، وحين يضربون بها أي مكان، يتشقق الجلد وينفتح لتسيل منه الدماء. لم نكن نفهم ما يجري لفترة طويلة، ثم بدأ الهمس ينتشر حول أننا قد أُخذنا رهائن -هكذا قالوا في زنزانتنا- وأن البارتيزان وضعوا كمينًا لضابط ألماني برتبة عليا، بينما كان يقود مع حاشيته في الطريق إلى بليد، ثم قتلوه رميًا بالرصاص. وقتل في الكمين العديد من الجنود أيضًا. لما سمعنا ذلك فهمنا أسباب ما يجري، وعرفنا أن مصير أغلب الرهائن الذين تم القبض عليهم من قرى مختلفة سيكون الرمي بالرصاص. اعتدنا أن نقرأ أسماء الرهائن الذين يتم إعدامهم في إعلانات باللون الأحمر تعلق في محطات القطار، ويكتب عليها بالخط العريض وباللغة الألمانية (تنويه). بالتأكيد قبل الإعدام، سيعتصروننا ليستخرجوا منا بعض المعلومات المهمة. لذا استمرت مهمة الاستجواب، واستدعائنا بالأسماء، والخروج والدخول من وإلى الزنزانة، والانتظار خارج الغرف، والسير في صفوف، طوال النهار والليل.

للمرة الأولى في حياتي شعرت بهذا القدر من الخوف، وعلى مدى تلك الأيام الثلاثة بلياليها في سجن كراني. بقيت منتظرًا لحظة استدعائي بالاسم وأنا في حالة من الرعب، وتوقعت أن يكون أول ما يسأل عنه هو يانكو كرالي، والمرأة التي تدق نافذتي في الليل. ثم السؤال عن نقطة الاتصال التي تربط بيني وبينهم. لم تفارقني صورة رئيس المحطة ممسكًا بعصاه ويرفعها لأعلى وهو يقف على الرصيف. قال بعضهم إنهم يعلقون المشتبه فيه على الحائط، ويطلبون منه أن يوقع على إقرار في مقابل الاحتفاظ بحياته يتضمن التأكيد على التعاون مع الألمان، بموجبه ستجوب العالم كيهوذا- هكذا قال واحد منا. قررت بيني وبين نفسي أنني لن أقول أي شيء. لكن الواحد منا لا يعرف مقدار قوة تحمله إلا حين توضع تحت الاختبار. لم تتوقف الأقاويل التي تصف تفاصيل التعذيب في غرفة الاستجواب: ضربات السوط المتتالية بخصية الثور المجففة التي تقطع جلدك وتكسر عظامك، اقتلاع أظافرك أو نزع الجلد عن كعبي قدميك. زادت الأقاويل سوءًا كلما عاد الذين تم استجوابهم إلى الزنازين، وبدأنا نرى بأعيننا ما لحق بالمساكين الأوغاد. ثم انتشرت شائعة

جديدة أن الجميع سيتم إعدامهم بلا استثناء انتقامًا لاغتيال الضابط الألماني. عدت إلى الوراء حتى التصق ظهري بالحائط، وتصورت اسمي مكتوبًا في معلقات محطة القطار الحمراء. (إيفان إيرانيك/ فلاح/ بوسيليا). العم شتيفان سيكون أول من سيقرأ اسمي، ثم سيخبر عائلتي. ودعت والدي وبيبتسا، والناس اللطيفة الذين عرفتهم في الضيعة، حتى النباتات والحيوانات، وشجرة الكمثري العجوز، والعشب الأخضر والغابات على التلال المتاخمة لقريتنا، ولم أنس توديع الأبقار في الحظيرة.

في اليوم الثالث لي بزنزانة كراني، سمعت رجلًا من جورينيا، تعرفت عليه حين رأيته واقفًا فوق أريكة خشبية موضوعة تحت نافذة الزنزانة ليتطلع منها إلى الخارج، قال:

انظروا! هذا فالنر.

صعدت فوق الأريكة إلى جواره، ونظرت من النافذة فرأيت رجلًا يرتدي زيًّا أسود، وحذاء لامعًا، ويقف في الساحة متحدثًا إلى شخص آخر. همس لي الرجل: «هذا هو فالنر، رئيس الجيستابو. إذا وضع عليك يدًا، فأنت ميت لا محالة!» لكنني لم ألحظ فالنر حيث كان انتباهي مشدودًا لمن وقف يتحدث معه. الرجل الذي ارتدي معطفًا طبيًّا أبيض، بأزرار مفتوحة، ومن تحته يظهر زيه العسكري. أشرت إليه وقلت للرجل الذي يقف إلى جواري:

هذا هو من أعرف.

فالنر؟

لا، الطبيب الذي يتحدث معه. إنه واحد من زوار بودجورسكا.

إنه وغد، مثله مثلهم. كلهم أوغاد.

فجأة، أشار فالنر تجاه نافذة زنزانتنا واستدار الطبيب لينظر حيث أشار، فقفزنا نحن الاثنان من فوق الأريكة مبتعدين عن النافذة. وفي نفس اليوم، وقت الظهيرة، أفرجوا عني. حسن حظي هو ما أنقذني من السجن ومن الاستجواب. أتى رجل سلوفاني يرتدي زي الشرطة الألماني إلى زنزانتنا ونادى اسمي، «إيفان إيرانيك»! قمت من مكاني فوجدت ساقيّ مثقلتين كأنهما مقيدتان إلى سلاسل، وقفت بصعوبة، فقال لي «هيا بنا!» وتبعته بخطوات حذرة، بينما تبعني زملاء الزنزانة بنظرات التعاطف حتى مررت من الباب. بمجرد أن أغلق الشرطي الباب وراءنا، ووقفنا في الممر قال لي:

أنت محظوظ يا إيرانيك، لقد تم الإفراج عنك.

السلاسل التي شعرت أني أسحبها وأنا أسير وراءه انفكت في لحظة، وزال ثقلها عن ساقيَّ. حين فكرت في الأمر بحيادية في ما بعد، وجدت أن خير ما فعلوه هو إطلاق سراحي، فما الذي وشيت به للموالين عن أهل الضيعة سوى أنهم على وشك شراء بيانو جديد؟! ثم حين فكرت مرة أخرى، قلت لنفسي كان من المحتمل أن يبقوا عليَّ سجينًا هناك، أيًّا كان وضعي. فقد اتضح لنا أنهم لا يفرقون في جمع الرهائن بين مشتبه أو غير مشتبه به. أرادوا أن يجمعوا عشوائيًّا فقط عددًا كبيرًا بغض النظر عمن له صلة أو لا صلة له بالبارتيزان. نفضت الأفكار عن رأسي، وقنعت بأن كل ما في الأمر هو أني محظوظ بدرجة لا تصدق. وبرغم الشائعات عن احتمالية قتل جميع الرهائن، فقد عرفت في ما بعد أن البعض منا تم الإفراج عنه مثلي، والبعض الآخر قتل بالرصاص. انطلقت

عدوًا إلى محطة القطار، وقضيت ساعتين في انتظار القطار القادم من ليوبليانا، مرتعدًا من برودة نوفمبر القارس، ومن السعادة بعدما حدث ما لم أتوقعه، ولا يصدقه عقل؛ أنهم أفرجوا عني. من بين الذين قتلوا رميًا بالرصاص بعض الرجال من زنزانتي، أحدهم ذلك الرجل من جورينيا الذي رأى فالنر من نافذة الزنزانة. قرأت أسماءهم على المعلقات الحمراء، تحت كلمة (تنويه)، التي انتشرت في أنحاء كراني والقرى المجاورة، بالإضافة إلى محطة قطار بوسيليا.

حين وصلت إلى البيت، كنت قد بلغت حد الإعياء. لم أقو على الحديث مع أي شخص لعدة أيام، سعادتي لأنني ما زلت حيًّا أرزق، والرعب الذي تملكني حتى النخاع، جعلاني غير قادر على التحدث مع أحد عن أي شيء. بالفعل كان ذلك هو هدفهم من كل ذلك. أن يرعبونا إلى الحد الذي يجعل من المستحيل أن نفكر في التعاون مع العصابات –كما اعتاد الألمان أن يسموا البارتيزان-. بعد عودتي بأيام، زارتني يوجي مدبرة أمور القصر بالضيعة، وهي المسؤولة عن كل شيء هناك، الطعام والشراب واختيار أنواع النباتات التي تزرع في الحديقة، وحتى بعيدًا في الحقول، ورعاية السيدة العجوز، والإشراف على الطهاة والخدم. بالإضافة إلى كل تلك المهام، اشتغلت بالحديقة وحشرت أنفها في كثير من الأمور الأخرى. أخبرتني أن السيدة جارنيك تفتقد وجودي للقيام بالأعمال المعتادة، وخاصة الخيل لأن لا أحد يعتني بها كما أفعل. في البداية، ترددت في الذهاب، ثم قررت أن أتوجه إلى هناك في وقت الظهيرة تقريبًا. لم أرد أن يشعروا بأني انطلقت إلى القصر بمجرد إشارة من أيديهم كما يدعون خدمهم ويستجيبون لهم. لكنني حين ذهبت، فوجئت أن فيرونيكا صارت ألطف وأرق في تعاملها معي من ذي قبل.

إلى أين تنطلق، إيفان؟

نادتني ودعتني إلى دخول الضيعة من البوابة الرئيسة. ولأول مرة دلفت إلى الضيعة من نفس البوابة التي يدلف منها الزوار والضيوف. فمثلي مثل كل الخدم، أدخل إلى الضيعة عبر الباب الجانبي المؤدي إلى المطبخ، ومنه إلى الغرفة المجاورة حيث يتناول العمال غداءهم. دعيت ذات مرة أيضًا إلى غرفة الصيد في القبو، ورأيت رؤوس الحيوانات المحنطة من غزلان وخنازير برية، وذلك حين دعانا السيد جارنيك عند عودته من رحلة صيد وفير. الآن تدعوني فيرونيكا إلى دخول غرفة الطعام الرئيسة، وأجلستني معها على إحدى الطاولات، بينما قدمت يوجي لنا زجاجة من الخمر، وصبت فيرونيكا لي كأسًا. ولم تصب لنفسها، فقد كانت تتناول كعكة صغيرة. قضمتها وقالت لي إنها افتقدتني، وإنها اكتشفت أن لا أحد يستطيع الاعتناء بالخيل مثلي. حدثتني عن بعض اللوحات الزيتية المعلقة على جدار الغرفة، وكانت صورتها واحدة منهم:

هذه أنا! منذ سنوات طويلة. كنت لم أزل شابة.

لكنك ما زلتِ شابة.

قلت وأنا أنظر في عينيها، ولم تشح بنظرها بعيدًا. ظلت تنظر لي، وأحسست بنظرتها تصيب شيئًا ما في صدري، وتمنحه شعورًا بالدفء، فبدأ نبض قلبي يتسارع. ثم ضحكت، وقالت:

هذا لطف منك، إيفان.

توجهت نحو الباب، وسألتني فجأة:

نعم، صحيح! متى ستقيم حفل زفافك؟

لم نحدد موعدًا بعد، ربما قريبًا.

فقط أعلمني حين تحدد الموعد حتى يمكنني أن أجد الهدية المناسبة لها. قلت لي إنها تفضل الأزرق، تقريبًا... الأزرق الفاتح أم الداكن؟

وسارت بي إلى خارج غرفة الطعام وهي تسألني. رأيت بالردهة حيوانًا مفترسًا محنطًا ومحشوًّا. قالت لي حين نظرت نحوه بدهشه:

هذا تمساحي الصغير! مخلوقي الصغير اشتريناه حين أقمنا في ليوبليانا، ثم عقر ليون فأخذناه إلى الطبيب البيطري لينهي حياته.

وقفت أتفحص الحيوان المحنط بعناية، ولم يزل نبض قلبي يتسارع، ليس بسبب الوحش طبعًا، ولكن بسبب قربها مني وعطفها عليّ. هذا اليوم، كانت عطوفًا بطريقة مختلفة، أكثر مما كانت عليه مع يانكو ذات يوم أحد، ومما فعلت مع ضيوفها كلما أخذتهم واحدًا بعد الآخر من يده لتقوده إلى داخل القصر. وحتى هذا اليوم، لم أكن واثقًا إذا كانت قد عرفت شيئًا عن احتجازي كرهينة بسجن كراني، أو من أنها بالفعل افتقدتني حين تغيبت طوال هذه الأيام. أردت أن أصدق أنني لست مجرد موظف لديها. مجرد عامل ماهر يمكنه القيام بأي مهمة ويتقن العناية بالخيل كلما عادت بها من جولة في الطرق المغطاة بالجليد.

الحقيقة أن دعوتها الكريمة لي إلى غرفة الطعام يوم عودتي لم تغير نظرتي الجديدة والمختلفة إلى أصحاب الضيعة بعد تلك التجربة الرهيبة في قبو الجيستابو. بعد أن سمعت بأذني ورأيت بعيني ما فعله هؤلاء المتطفلون الذين لم يدعُهم أحد إلى بلادنا بمواطني هذه البلاد. بعد أن رأيت كيف جزوا أطرافهم، ثم ألقوا بهم في الزنازين تحت الأرض كأجولة البطاطس. لن أستطيع تجاهل أن هؤلاء الضباط هم من يأتون إلى بودجورسكا للترفيه والاستمتاع بأوقاتهم، ويتم دعوتهم إلى عشاء فخم، أو استضافتهم في كوخ الصيد ليجربوا صيد غزالة برية أو غزالتين، بنفس الطريقة التي يسددون طلقاتهم إلى رؤوس أهلنا كل لحظة وأخرى، بعد أن يثبتوهم على حائط الساحة بلا حراك. بعيني رأيت فالنر والطبيب الذي يتردد على القصر يقفان معًا. صار واضحًا لي أن علاقتهم بالألمان ليست مجرد تواصل اجتماعي، وفكرت أن الأمر يتطلب بالفعل أن أسرق لوحة أو لوحتين من سياراتهم وأسلمها إلى العم شتيفان في زيارتي القادمة لمحطة القطار.

استمرت الحياة بعد ذلك، وانشغلت بالكثير من العمل في مزرعتنا، ولم أنقطع في الوقت نفسه عن الصعود إلى بودجورسكا للقيام بأعمالي هناك، لأعود في الليل وأستمع إلى أبي يقرأ عددًا من مجلة البيت السلوفيني، ثم يخبرني عن الذي فاتني مما يجري حول العالم. لا أعرف ما الجديد الذي توقع أن يقرأ عنه في المجلة! فقد كانت الحرب دائرة، في كل مكان: إفريقيا، وروسيا. أحيانًا كان يجد مقالات عن العصابات الشيوعية التي تتمركز في بلادنا، ولكن ما عرفناه عنهم كان أكثر مما ورد في المقالات. فمصادر معلوماتنا هي الأقاويل والشائعات المتناقلة بين الناس. عرفنا مثلًا أنهم أطلقوا الرصاص على صاحب حانة في قرية جورينيا، وقد أعطاني العم شتيفان منشورًا صادرًا عن جبهة التحرير يبررون فيه قتل صاحب الحانة لأنه خائن وتحالف مع الألمان. وفي المنشور، أعلن الموالون أن النصر قريب ويوم الحرية أوشك وأن السلوفينين المتنكرين في زي الألمان

سينالون نفس مصيرهم. في هذا الوقت، صار سني مناسبًا لطلب التجنيد، ذلك لأن الألمان ظلوا يخفضون من الحد الأدني لعمر التجنيد. وفكرت أن أسير على درب الكثيرين من الشباب الذين تسلموا الإخطار، وبدلًا من أن يسلموا أنفسهم لقيادة الجيش الألماني، هربوا إلى الغابة لينضموا إلى البارتيزان. لم يكن أحد قادر على تقييم الأمور، ولا التأكد مما إذا كان القتال على الحدود الروسية أخطر من الاختباء في الغابة ومطاردة الألمان المستمرة. وغالبًا ما كنت أفكر في يانكو، إذا كان لم يزل حيًّا حتى تلك اللحظة، هل سأجده واقفًا أمام البيت مرة أخرى مرتديًا جاكيته الجلدي وقبعته ذات النجمة الحمراء، أم لا؟ تمنيت لو أنه جاء فعلًا، فقد تجعل زيارته الأمور أكثر بساطة. لم تأت المرأة الرابضة أسفل النافذة مرة أخرى قط، لكن رئيس المحطة بقي واقفًا على رصيفها كل يوم، متأبطًا عصاه، يحرك القطارات المغادرة. وعندما يتم تحميل قاطرات الشحن متعددة العربات بالمدافع والدبابات، يودعها قبل الرحيل، فيخرج من مكتبه ويتوجه إليها ثم يرفع يده أمام قبعته، ويقدم التحية العسكرية للمهندس والوقَّاد. ذات مساء، قابلته بالصدفة حين كنت أسير في القرية، فرفع حاجبيه ونظر إليّ نظرة فيها تساؤل. بعدها، في أغسطس من عام 1943، ذهبت لزيارته، وكان ذلك قبل استسلام إيطاليا مباشرة. كان اليوم نفسه الذي رأيت فيه فيرونيكا عند البحيرة مع – رفيقها.

كنت قد استيقظت في هذا اليوم باكرًا مع أول خيط ضوء، وتوجهت مباشرة إلى بودجورسكا. فقد كان موعد الجزّ الأول في الصيف، وفي منطقتنا نطلق عليه موسم الجفاف، وهو موسم مزعج يتطلب منا الكثير من العمل في فترة قصيرة تحسبًا لأي عاصفة أمطار وشيكة قد تدمر جميع ما قمنا به على مدى العام في أي لحظة. في اليوم السابق، كنت قد بدأت الجز، واليوم كان علينا أن نقوم بتقليب العشب ليحصل على الكمية الكافية من حرارة الشمس ليجف تمامًا. وخططت للقيام بالشيء نفسه في مزرعتنا التي تقع عند سفوح الغابة استعدادًا لهذا الموسم. كان الجو صحوًا في الصباح، ولم أر سحابة واحدة في السماء، فتأكدنا من أن اليوم سيمر دون عواصف أمطار محتملة قد تؤدي إلى تدمير الزرع. لذا، فقد كانت حالتي المزاجية جيدة رغم انشغال بالي بتوافر العمال الذين سيساعدونني في إنجاز العمل بنفس اليوم من عدمه، والتفكير في إمكانية أن أنظم وقتي بحيث أنجز المهمة في الضيعة وفي مزرعتنا في نفس اليوم. أتذكر أنني سليت نفسي بالصفير أثناء سيري إلى الضيعة، وما إن وصلت إلى هناك، توجهت مباشرة إلى حظيرة القش لأبحث عن مجرفتي، وبعدها توجهت إلى مخزن الغلال لأوفر مساحة هناك تكفي لتخزين القش الذي سنضعه لاحقًا. ثم رأيتهما بعد خروجي من المخزن. كانا معًا؛ فيرونيكا وذلك الضابط الألماني، يتأملان جريان المياه في البحيرة، بينما كان يمسك هو بيدها. كانت تواجهه في وقفتها وتنظر إليه، تمامًا مثلما نظرت إليّ في ما بعد حين دعتني إلى غرفة الطعام. نظرت في عينيه دون أن تجفل. ونظرت إليّ من بعده نظرة اخترقت الروح وأثارت بصدري عاصفة من المشاعر الجياشة، حتى تسارع نبض قلبي وكاد يقفز من بين جوانحي. حدث ذلك أيضًا حين رأيتهما معًا. لدرجة أنني أحسست بصدغيّ يرتجان. حينها فكرت كثيرًا في مغزى زياراته المتكررة. فكرت في أن الألماني بقي في القصر بعد انتهاء الحفل ومغادرة جميع الضيوف، ولم يكن هناك أي سيارات أخرى غريبة في ساحة الانتظار أو على الطريق إلى البوابة. إذًا! فقد قضى ليلته في ضيعة جارنيك. معها؟ مع زوجة ليو؟! قلت لنفسي إنها بكل تأكيد ستقله الآن بنفسها إلى مسكنه. ولكن، أين زوجها؟ من المحتمل أنه في ليوبليانا. فكرت في أن من واجبي أن أخبره بما يدور في بيته بغيابه. تسلقت السلم إلى مخزن الغلال، وجلست هناك على السقف الخشبي. دار رأسي من هول ما اكتشفت، وارتعش

جسدي قليلًا. اتضح لي كل شيء في لحظة، فالمسألة ليست مجرد رغبتها في قيادة دراجة يانكو النارية بينما يجلس هو خلفها ويقبض على خصرها بذراعيه، ويشد عليه بقوة. إنما الموضوع أكبر من ذلك. فها هي أمامي قد خرجت مع الألماني، سائران نحو البحيرة، لتراقب معه الشروق بعد أن قضيا ليلة طويلة معًا في القصر. ووجدتني أقول بصوت مرتفع دون أن أستطيع التحكم في غضبي: «عاهرة! عاهرة ألمانية!».

تلصصت عليهما مختلسًا النظر من خلال شق في الحائط الخشبي، زحفت لأصل إليه. فرأيتهما من الظهر يسيران على حافة شاطئ البحيرة، وأنا أرى وجهه من زاوية. تحققت منه وتأكدت أنه الطبيب الذي تعددت زياراته للضيعة، وتجول في كل ركن منها كلما سنحت له الفرصة. أحيانًا كان ليو يصطحبه إلى كوخ الصيد ليتناولا البيرة معًا، أو يأتي حاملًا الزهور وزجاجات الخمر. نعم، هو بعينه! تحققت منه وعرفته في ما بعد حين وقف يتحدث مع فالنر، رئيس الجيستابو، في كراني، مرتديًا معطفه المختبري المفتوح. لم أنس ما قاله الرجل الذي قبض عليه من قرية جورينيا عن فالنر صاحب الحذاء العسكري اللامع، عن أن الذي يقع تحت يديه ميت لا محالة. تزايد حنقي وغضبي، وجزمت بأنها ليست فقط عاهرة ألمانية بل إنها عاهرة الجيستابو! قضيت الصباح كله أجمع القش في الأرفف الخاصة به، وكنت أنظر تجاه الضيعة من وقت لآخر. كانت معتادة أن تحضر بنفسها إلينا بعض الطعام والماء وبعض البراندي كلما عملنا على جز العشب أو ترتيب القش في أماكنه أمام الإسطبل. الماء لإطفاء العطش، والبراندي ليمنحنا القوة لمواصلة العمل. لكنها لم تأت هذه المرة. وكيف تأتي بعد ليلة طويلة كتلك الليلة؟! جاءت يوجي بدلًا منها، وسألتها عن الطبيب الألماني الذي يزور الضيعة كثيرًا.

آه، نعم! هو رجل طيب! كان يخدم على الجبهة الروسية.

قلت في نفسي: لا أهتم إذا خدم على الجبهة الروسية، أو في أي موقع لعين آخر. من العار أنه لم يتلق رصاصة ترديه قتيلًا هناك. سألتها عن اسمه، فقالت:

هورست هبماير من بافاريا.

فقلت في نفسي: «الآن حصلت على كل ما أريد!».

في نفس المساء، توجهت إلى نقطة الاتصال لأقدم تقريري الأول حول ما رأيت. وجدت العم شتيفان جالسًا على مكتبه يدرس بعض الأوراق ويخبر شخصًا ما على الهاتف عن مقطورة شحن غادرت المحطة قبل قليل. نظر لأعلى حين لاحظ حضوري، وأعطاني إشارة بالانتظار وأنه سينتهي مما يعمل في الحال. أغلق سماعة الهاتف، وانتظر أن أتكلم دون أن يقول كلمة واحدة. أخبرته ما رأيت، فقال بنبرة يغلب عليها النعاس:

إممم! حسنًا، ليس الأمر بهذا السوء.

ماذا تعني بأنه ليس بهذا السوء؟

أوشكت أن أفقد أعصابي، واستطردت:

هذا الضابط، هورست هبماير البافاري، نازي وله اتصال بالجيستابو. رأيته يتحدث إلى فالنر في ساحة سجن كراني.

وقد كان!.....

اسم فالنر كان كلمة السر التي أثارت حواسه، وأيقظتها فجأة. انتفض واقفًا على قدميه، وذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا:

هل أنت واثق؟

مئة بالمئة!

سأمرر المعلومة. وأبقِ فمك مغلقًا، أتفهم؟

لا تقلق من جهتي، فأنا أعرف حجم المخاطرة.

أجبته بثقة ودون تردد، لكن دون استيعاب. بالطبع لم أكن أعرف حجم المخاطرة، ولكنني أدركت خطورة الأمر حين رأيت الطريقة التي وقف بها رئيس المحطة على قدميه فجأة، وبدأ يسير في الغرفة بلا هوادة بمجرد أن سمع اسم فالنر. عندما تهيأت للمغادرة، خاطرٌ جاء على بالي:

أريد التحدث إلى يانكو!

هذا ليس أمرًا سهلًا، إنه مشغول في أرض المعركة.

إذًا، فسوف أنضم إليهم.

أمعن النظر في وجهي للحظات، ثم سألني:

أتريد الخروج إلى الغابة؟

هذا صحيح! وبأسرع وقت.

حسنًا. اذهب إلى البيت الآن، ودع الأمور تسير كما هي بالضبط، دون أي تغيير. واصل الذهاب إلى قصر جارنيك أيضًا. وإذا حانت اللحظة، سيأتي إليك رجالنا ليأخذوك إلى هناك.

رن الهاتف، والتقط السماعة:

اذهب الآن! عندي قطار قادم.

لكن، هناك شيء آخر.

التقط قبعته وعصاه، وتوجه إلى الرصيف. سرت معه، وسألته في الطريق:

هل ستقوم بتصفيته؟ أقصد هبماير.

ارتفع صفير القاطرة القادمة على القضبان، فقال لي بهدوء وغموض:

هذا ليس من شأني.

فهمت أنه يريدني أن أذهب، لكنني وقفت أراقب القطار القادم ببطء، حتى لحظة احتكاكه بالقضبان بعد تشغيل المكابح، وتوقفه تمامًا ثم سكونه. ورأيت العديد من الركاب المتأخرين في النزول يقفزون إلى خارج العربات، وما زالوا يثرثرون مع رفاقهم. سرت إلى مخرج الرصيف، فشاهدته

يتحدث إلى مهندس القطار، ثم تراجع بظهره، وبخطوات واسعة لمسافة طويلة على الرصيف، رافعًا عصا البدال وفي نهايتها القرص المستدير لأعلى، وتعلق نظري بتلك العصا الشهيرة التي طالما أعجبت بها منذ الطفولة، وجعلتني أرى صاحبها ليس مجرد العم شتيفان صديق أبي، وإنما ذلك الرجل الجبار القوي الذي يسيطر على محطة القطار، ويتحكم في رحلات الوصول والمغادرة، ويحرك بأمره القاطرات الضخمة بعرباتها الثقيلة، ويضع تحت قبضته القوية تلك السكك الحديدية بأكملها. أصدرت القاطرة خوارها وهي تدفع العجلات على قضبانها لتحركها، حتى دارت شيئًا فشيئًا، ليسير القطار مغادرًا الرصيف، ولم أزل أراقبه وهو يبتعد، بينما يخرج الضوء من نوافذه براقًا ساطعًا في وسط ظلام الجبال الحالك كلما ازدادت سرعته، حتى لم أعد أراه على المدى. لكنني انتظرت اللحظة التي سيعود فيها للظهور مرة أخرى من وراء التلال على الأفق، ويتسارع حتى يختفى تمامًا وبالكاد أسمع صوت صفيره مبتعدًا. يعدو كأن لا شيء يمكن أن يقف في طريقه أو يجبره على التوقف. يجري باتجاه فيرونيكا، ويدهسها.

في زيارتي التالية للقصر، في يناير 1944، ارتديت معطف أبي النمساوي العسكري القديم، وكان من بين الأشياء التي أخذتها معي من البيت قبل رحيلي إلى الغابة. وحملت أيضًا بندقية كاربين صغيرة أعطاني إياها يانكو. ذلك الشتاء كان زمهريرًا، وكانت فرقتنا مجتمعة على منزلق التل القريب من كوخ صيد جارنيك. اختار قائد الكتيبة الزعيم كوستيا عشرين من البارتيزان التابعين لفرقة يانكو للقيام بعملية ضيعة جارنيك. وتم تقسيمنا بحيث يقف عشرة منا على حراسة المداخل، وإعداد الكمين تحت قيادة يانكو، والعشرة الآخرون يبقون في انتظار تعليمات كوستيا للقيام بما يلزم داخل القصر. هدف العملية تمثل في قطع قنوات الاتصال بين السلوفينين الخونة وقوات الاحتلال، ثم الكشف عن هوية المخبرين، والقيام ببعض الاستجوابات. لم نحتَج إلى القيام بأكثر من ذلك. مدبرو العملية هم كاستيو واثنان من العملاء الاستخباراتيين الذين انضموا إلينا. أحدهما يدعى بيتر. في ذلك الوقت، صار لدينا قناعة بأن الرأسمالي الصناعي جارنيك هو أحد مستغلي الطبقة العاملة، عن طريق قمعهم والاستفادة من خدماتهم في مصنعه –كما شرح لنا بيتر- إضافة إلى ما ثبت حول دوره كعميل للعدو. اتخذنا من تلك المعلومات -التي وصلتنا عن طريق مصادر متعددة موثوق فيها أثبتت ما ورد بها- قاعدة راسخة للتخطيط لتلك العملية وتنفيذها. كان لدينا بعض المخبرين التابعين لنا من بين العاملين بالضيعة. وأكمل بيتر:

وقبل العملية بأشهر، تحديدًا في أغسطس، قدم لنا أحد المخبرين تقريرًا عن أن زوجة جارنيك تجتمع بشكل منتظم مع عميل للجيستابو يدعى هبماير.

نظر تجاهي، فوجدت نفسي تلقائيًا أقلب بصري في جميع الوجوه خوفًا من أن يتوجهوا بأنظارهم نحوي إذا فهموا أنه يقصدني بكلامه، لكنهم لم يفعلوا فشعرت بالراحة. لم أذكر أنني رأيت بيتر ذلك قبل انضمامي للموالين، ولكنه عرف بطريقة ما أنني المخبر الذي قدم هذا التقرير. جميع تحركاتنا اتسمت بالسرية التامة، لكنه هو فقط من عرف أنني المخبر الذي بلغ بذلك. وغالبًا كان يانكو على علم كذلك، إنما لم يخبرني قط، لا في هذا الوقت، ولا بعده. أطلقنا على العملية اسم (المؤامرة)، ومن تم اختيارهم للقيام بها لم يعرفوا بعضهم بعضًا. فقط عرفت القيادة كل واحد منا، كما عرفت استخبارات البارتيزان الذي عرفوا باسم الفوس5 هؤلاء كانوا من جنس آخر غير جنسنا، عدائيين وخطرين، وإذا حدث أن قاموا بزيارة الكتيبة، فإننا سرعان ما نشتم رائحة البلاء القادم. حتى في تعاملهم معنا، دائمًا ما انتابهم الشك في أن أحدنا يفعل شيئًا ما في الخفاء. الفوس هم من كشفوا أمر

ميلان واستجوبوه ثم قاموا بتصفيته حين أمرونا بضربه حتى الموت لنتجنب إطلاق الرصاص وإصدار ضجيج يكشف مكاننا، بينما ظل يردد أمام المجموعة بأكملها أنه يحبنا إلى أن فارقته الروح. سرت في أوصالي قشعريرة رهيبة بعد ذلك التصريح الدقيق من قبل عميل الفوس الاستخباراتي بيتر، وخاصة أنه وجهه إليّ تحديدًا عن قصد، ليخبرني بأني السبب المباشر في القيام بتلك العملية، بشكل أو بآخر. فوجئت في لحظة بأني صرت عميلًا رسميًّا للفوس؛ الواشي، الشرير الأعظم، المخبر السري. في الوقت الذي قدمت فيه تقريري إلى شتيفان لم أستطع تقدير ما ستؤول إليه الأمور، وقطعًا تصورت أن العقاب سيكون لهبماير، ولن يشمل فيرونيكا. في غمرة غضبي الأعمى لم أتخيل أنني سأكون السبب في إيذائهما. أردت أن أقول في تلك اللحظة لبيتر إن هبماير قد لا يكون له علاقة بالجيستابو، وإنني لم أذكر في تقريري أنه أحدهم. كل ما قلته للعم شتيفان هو أنه طبيب عسكري خدم على الجبهة الروسية. فالنر هو عميل الجيستابو، نعم. وبالتأكيد رأيتهما يتكلمان معًا بساحة السجن عندئذٍ.

واصل الرفيق بيتر حديثه عن عميل الجيستابو هبماير. الجيستابو هو المسؤول عن اغتيال إخواننا السلوفينيين في روسيا:

يمكننا أن نتخيل عشيقته، وما الذي همست به في أذنه وهما في الفراش.

هنا، استطاع أن يحظى بكامل انتباه الرجال الجالسين، فتلقى كوستيا طرف الحديث محاولًا اختصاره:

الزوج عميل جيستابو، والزوجة عاهرة جيستابو. سنقوم باستجوابهما، ونعرف المعلومات التي قدمها هذان الخائنان السلوفينيان إلى العدو على طبق من فضة.

فكرت أن أذهب إلى يانكو وأشرح له أن من الأفضل إلغاء تلك العملية، وأن الجميع يعرفني ويعرف أنني صاحب التقرير الذي تسبب في التخطيط لتلك العملية. ثم تراجعت لأن العملية بدأت بالفعل، ولأنني لو فتحت فمي سيبدو أنني متعاطف مع الخونة وعملاء الجيستابو. كما أن بيتر قال إنهم قاموا بما يكفي من التحقيق في الأمر، وبالتالي فإن تقريري لم يكن السبب الوحيد الذي أدى إلى هذه العملية. حاولت أن أبعث الراحة في نفسي، واستمررت في تذكير نفسي وإقناعها بذلك المبرر في ما بعد طيلة الطريق إلى الضيعة، ونحن نسير في الطرق الوعرة المغطاة بالجليد وسط التلال. طلبت من يانكو أن أكون ضمن الحرس، فقال:

لا بأس، ستكون معي إذًا!

ضحك المفوض كوستيا حين سمع بطلبي هذا:

يبدو أنك غير مهتم برؤية رؤسائك القدامى. أليس كذلك؟!

أجبته بوجه جامد خالٍ من التعبير:

أفضل أن أكون ضمن الحرس اليوم.

لم يعارضني برغم وثوق كلينا أن ما قاله هو الحقيقة الدامغة. فأنا لم أرد رؤيتهما أو أكون حاضرًا لأنهم لم يسبق أن أساؤوا لي، وأي ذنب آخر اقترفاه فهو لم يكن تجاهي، ولا أعرفه. كما لم أعرف

إلى هذا اليوم ما إذا كانا بالفعل اقترفا أي ذنب أم لا. لا بدَّ أن بيتر وكوستيا يعرفان جيدًا، وربما يانكو أيضًا. وقد استجاب لطلبي لإدراكه أن آخر ما أريد الظهور به أمام الرفاق هو مظهر المتعاطف الضعيف الهش مع العدو أو تجاهه. ولو أن السيد أو السيدة جارنيك حاولا التحدث إليّ في الداخل، لن أستطيع الصياح بوجوههم لإخراسهم، بما أنهم لم يسبق أن عاملوني باحتقار. على الأقل لم يعاملوني أنا كذلك. أما ما اقترفاه في حق الشعب السلوفيني والطبقة العاملة هو أمر مختلف يعرفه المفوض كاستيو تمام المعرفة. وهكذا، بقيت على قوة الحرس في ضيعة بودجورسكا، ووجدت نفسي واقفًا على أرض ساحة القصر مرة أخرى، في هيئة لم يسبق أن تخيلتها في حياتي، مراقبًا المدخل الرئيس وحاملًا بندقية آلية. بقية رجالنا توجهوا للداخل، وسمعنا من مواقعنا في الخارج أصوات صياح وتعليمات وأوامر ووقع أقدام سريعة متتالية على السلالم الخشبية، وأسئلة غير مفهومة من الخدم المرتعبين وغيرهم من العمال الذين تمت محاصرتهم جميعًا في المطبخ وحبسهم بداخله. بعدها رأينا بعض مصابيح الدور العلوي تضاء، ثم تنطفئ. مر وقت طويل في هدوء تام، تزامن مع أصوات رفاقنا المكتومة القادمة من جهة القبو. فقد حل الهدوء بعدما أرادوا الحصول على بعض السلامي والجبن والخمر، فذهبوا ليخدموا أنفسهم بأنفسهم في القبو. عرفت ذلك حين رأيت يوجي منطلقة تعدو في الساحة الخارجية، فقلت في نفسي إما أنها قررت الهروب والذهاب لإبلاغ شخص ما بما يجري في الضيعة، أو انتابتها لوثة عقلية جعلتها تفر هاربة بلا وجهة كالإوزة التائهة. وجهت بندقيتي تجاهها:

لن تذهبي إلى أي مكان!

نظرت إليّ بعينين اتسعت حدقتاهما عن آخرهما، وصاحت:

أهذا أنت، إيفان؟!

كانت في حالة عصبية هيستيرية، وأرادت أن تفهم ما الذي يجري. ثم بدأت في الثرثرة بكلمات غير مفهومة متتالية، تبينت من بينها –أولًا- أنها تطلب مني الدخول إلى القصر وتوضيح الأمر للآخرين، ثم –ثانيًا- إنها ستذهب لتحضر لي بعض السلامي والجبن والخمر أيضًا، وبعدها –ثالثًا- تحولت الثرثرة إلى نحيب.

يستحيل أن تؤذيهم بكل تأكيد!

خِفتُ أن يسمعها أحد تتحدث إليّ. فقد كنت مناوبًا على الحراسة، ولم يكن هناك مجال للمزاح. فالأمر يتطلب مني التركيز الكامل وأن أكون على قدر المسؤولية. فححت في وجهها آمرًا إياها بالذهاب، والعودة إلى الداخل من حيث جاءت. تلعثمت وهي تقول شيئًا لم أفهمه، ثم انطلقت تعدو إلى الداخل فزلت قدمها وتعثرت لتسقط على الأرض فوق الجليد، قبل أن تنهض وتعدو ثم تختفي في الداخل. مر الوقت بطيئًا بعد تلك الواقعة، وظللت أسير أمام البوابة ذهابًا وإيابًا، وقدماي تغرزان في الجليد، لكني لم أهتم بالجليد ولا الصقيع، وإنما أردت أن ينتهي الأمر بسرعة لأخرج من هذا المكان. لكنني حفظت كل تفاصيل هذا المكان عن ظهر قلب، خاصة في الخارج. أعرف كل غصن في كل نبتة، الأبواب والمداخل، سور الحديقة، الخيل في الإسطبل. أما في الداخل، فقد أصبح الجميع سجناء، ولا أعرف ما الذي ينوون فعله بهم. ربما سيستجوبون جارنيك، أو يسعون للبحث عن دليل ما. تمنيت من قلبي ألا يخيفوا فيرنيكا كثيرًا. بغض النظر عن كل ما جري فإنني

لا أتمنى أن يصيبها أي مكروه. مهما غضبت منها، حتى لو بلغ الحد الذي بلغه يوم رأيتها على البحيرة. ألقيت نظرة سريعة على الطريق حيث وقف يانكو ورجاله يحرسون كمينهم بعد أن نصبوه، وتوقعت أن أسمع صوت محرك سيارة أحد الألمان قادمًا في أي لحظة نحو القصر. كما يحدث غالبًا في الكمائن التي ننصبها على الطريق حين نسمع بعض الأزيز الذي يعني أن الصيد علق في المصيدة، ثم يليه لحظات صمت قصيرة، يتبعها هدير الرصاص الذي ينطلق بكميات هائلة ودون توقف. بعدها، يبدأ تنظيم حركة التقهقر السريع، وقد يسبقه تلاحم على أرض المعركة. لكن لو التقط هذا الكمين على مشارف الضيعة صيدًا، لن يكون هناك أي تلاحم لأننا نتمركز على أطراف الوادي، حيث لا يوجد أمامنا سوى الفرار بأقصى سرعة لأن العراك على الأرض لن ينتهي لصالحنا. عاد صوت وقع الأقدام على السلالم الخشبية، وفي الممرات يتعالى من جديد، ومن لحظة لأخرى سمعت أحدهم يصيح وهو يعطي الأوامر. فجأة علا صوت بكاء، وامرأة تصر على قول شيء ما وتكراره، تنصت أكثر لأميز الصوت فعرفت أنها فاني، الطاهية. عادت الأضواء تنطفئ جميعها في وقت واحد وبدا القصر كواجهة إحدى البنايات الكبيرة التي تظلم جميع نوافذها، الواحدة تلو الأخرى، كأنها تغمض عيونها لتنام.

غرفة واحدة في الدور العلوي أضيئت نافذتها. اعتقدت أنهم نسوا إطفاء ضوء هذه الغرفة. بدأ رجالنا في الخروج من القصر تباعًا، محملين بحقائب الظهر الممتلئة. تركوا بعض الحقائب الإضافية التي لم يقدروا على حملها فوق الجليد ليأتي الحرس الواقفون في الخارج لالتقاطها ومساعدتهم في حملها. فقط حين خرجوا، بدأت حدة الشد العصبي الذي لازمني في الخارج تقل وتتضاءل، ذلك أن العملية أوشكت على الانتهاء. ما جعلني أشعر بالراحة والاسترخاء أن الأمر لم يتعد كما رأيت الاستجواب فقط. ثم لم تمض لحظة على الأفكار التي تداعت على ذهني، حتى توقف تدفقها بمجرد أن شهدت الزوجين ليو وفيرونيكا يخرجان من باب القصر برفقة المفوض كوستيا الذي سار وراءهما. كلاهما ارتدى ملابس شتوية، وأحذية المطر المطاطية. وضعت فيرونيكا على رأسها قبعة صوفية، وبرغم أن القصر من خلفهم كان معتمًا، لكنني ميزت ملامح وجهها تحت ضوء القمر. لم ترفع رأسها المطأطأة، وبقيت تنظر إلى الأرض تحت قدميها. انتابني الخوف من التفكير في لحظة قد ترفع فيها رأسها وتنظر أمامها فتراني وتنظر في عيوني. كاد قلبي أن يسقط عند قدمي من الخوف حين تيقنت من أنهما آتيان بصحبتنا، ومعنى ذلك أن الأمر لن ينتهي على خير أبدًا. تلفت ليو حوله فرآني ونظر تجاهي، فتراجعت للوراء بعيدًا عن ضوء القمر لأختفي في ظل الجدار المظلم. السماء في تلك الليلة لمعت بضوء القمر الفضي، وألقت بضوئه على الضيعة كلها. سكت الجميع عن الكلام تمامًا، ولم يسمع صوت أحد. تمنيت في هذه اللحظة لو كنت في أي مكان آخر غير الضيعة. ندمت أنني لم أطلب من يانكو قبل ساعات أن يستثنيني من المشاركة في تلك العملية. فلو فعلت، لكنت جالسًا عندئذٍ مع أفراد الكتيبة، وما كنت لأقف هناك. كانت العملية ستتم من دوني. لكن الواقع كان غير ما تمنيت. الواقع هو أنني كنت حاضرًا. فجأة، عبر أحدهم الساحة الخارجية إلى الطريق ليجمع أفراد الحرس المنتشرين حول الضيعة، وانتظرناه حتى يعود بهم لننطلق جميعًا نحو التلال.

ثم سمعنا صوت غناء قادم من داخل القصر. وكان بالفعل شيئًا غريبًا جدًّا، لم نفهمه. ولم أستطع حتى اليوم نسيان صوت هذا الغناء. وقفنا جميعًا في الساحة الخارجة صامتين، منتظرين، وذرع المفوض كوستيا الساحة أمامنا، بينما ظل ينظر في ساعة يده. بدأت فيرونيكا ترتعد من البرد،

وربما من الفزع أيضًا. بينما ضمها ليو بين ذراعيه ودعك ظهرها ليدفئها، فتوقفت عن الارتعاش ونظرت إليه نظرة امتنان، تفيض في الوقت نفسه بالقلق والخوف من المجهول. في نفس اللحظة، انطلق الغناء من خلف النافذة المغلقة ليكسر الصمت الطويل، فنظرنا نحو الغرفة التي أشع منها الضوء. سمعنا صوت غناء متواتر من امرأة، ولم نسمع كلمات أغنيتها بوضوح، بل سمعنا لحنًا غير مألوف يتكرر غناؤه على نفس الوتيرة والإيقاع. ثم تذكرت أن النافذة لغرفة السيدة العجوز، فغالبًا ما شاهدتها تجلس إلى جواره في أيام الصيف منذ صارت غير قادرة على السير، وأحيانًا ما كانت تدندن بصوت خفيض، أو تتحدث إلى شخص ما يقف خلفها بالغرفة. رفعت فيرونيكا يدها لتخفي عينيها وسرت الرعشة في جسدها مرة أخرى، وربما بكت. فقد كوستيا أعصابه، وصاح باسم أحد الرفاق وأرسله إلى داخل القصر ليتبين ما الذي يجري بالأعلى. ثم فجأة اندفع حراس الكمين جميعهم يعدون نحو ساحة القصر، وعلى رأسهم يانكو. توقف الشخص الذي أرسله كوستيا إلى الداخل في منتصف الطريق، وأعطاه كوستيا إشارة بالرجوع وتجاهل الأمر، وبدا أنه مغتاظ لأنه اضطر إلى ذلك. حملنا باقي الحقائب على ظهورنا، وأسرعنا في طريقنا نحو الغابة.

لم يفارق صوت السيدة العجوز وهي تغني أذني حتى اليوم، ولا شكل ابنتها وهي تقف بالأسفل محاطة بالحرس في ساحة القصر، في انتظار مصيرها المحتوم بينما تغني أمها بأعلى كما لو أنها مغيبة تمامًا عما يحدث، أو أصابتها لوثة جنون. كان الموقف غريبًا وغير اعتيادي. أذكر أني رأيت السيدة العجوز بعد هذا اليوم مرة واحدة، حين شهدتها تجلس كعادتها على النافذة في مايو من عام 1945 في ليوبليانا. بنفس اليوم الذي ألقى فيه المارشال تيتو خطبته. تجمع الأهالي من منطقتنا في بعض الشوارع النائية على أطراف ليوبليانا، في موست على ما أعتقد. ليوبليانا مدينة كبيرة ولا أعرف مناطقها بشكل جيد. حين بدأت مسيرتنا بالأعلام واللافتات التي حملناها، بمرافقة الفرقة الموسيقية النحاسية، لاحظت أن هناك العديد من المتفرجين من مواطني المدينة ينظرون من النوافذ المحيطة بنا، ويلوحون لنا بحماسة. ثم استوقفني وجه تلك السيدة العجوز الجالسة في نافذة إحدى البنايات القديمة التي تقشر الجير عن واجهتها، لأن نافذتها بدت مختلفة عن النوافذ الأخرى. فلم تكن مزينة بالورود ولا أطواق الزهور وأعلام يوغوسلافيا كبقية النوافذ. بالكاد تحققت من ملامحها وتعرفت عليها بعد أن تغيرت وطعنت في السن فبدت أكثر عجزًا وأكبر سنًّا مما كانت عليه حين رأيتها آخر مرة. صارت تشبه كل العجائز من النساء بمظهرهم المتهدل وشعرهم الطويل غير المصفف. نظرت إليّ لأنها لاحظت وقوفي ومحاولتي تدقيق النظر باتجاهها، وأوشكت أن ألوح لها لكنني منعت نفسي. فما الداعي لأن أحييها وأنا لا أعرف حالها في ذلك المكان الذي تعيش فيه. كنا جميعًا سعداء وفخورين بما حققناه، وكانت الموسيقى تُعزف بلا انقطاع، وسرنا في طريقنا إلى الميدان لنستمع إلى خطبة المارشال بحسب موعدها المحدد. إن الحياة تستمر، ولا تتوقف رحلاتها أبدًا، لكنها في الطريق ستترك وراءها بعض المسافرين في محطاتهم. هكذا تواصل التقدم ولا تنظر خلفها.

في طريقنا إلى بودجورسكا، سرنا في صف واحد طويل، ندفع الجليد المتراكم على المسار الضيق بين الجبال بأقدامنا. كنا قد مهدنا هذا المسار ونحن متجهون من الغابة إلى كوخ الصيد الذي قضينا فيه ليلة والنهار الذي يليها قبل أن نتحرك في المساء من الكوخ إلى القصر لبدء تنفيذ العملية. اتخذنا نفس المسار عائدين مرة أخرى إلى كوخ الصيد، وبدأ يانكو يعين الحراسة عليه من جميع الجهات، ولم يخصني بأي مهمة حراسة لأنني وقفت عند القصر فترة طويلة بما يكفي. في كل مرة

أتينا فيها إلى الكوخ للاستراحة من حياة الغابة التي نهيم بها مشردين، كنا نخصص بعض الأفراد ليقفوا في الخارج للحراسة. ولكن لم يعد هناك داع في هذه الليلة لمزيد من الحراسة، حيث إن القصر أصبح خاويًا، لا أحد فيه. كلما أتينا إلى الكوخ في المرات السابقة، كنا نستدفئ من البرد القارس في الخارج، ونمد أجسادنا، ونسترخي، ونعد الوجبات، ونخرج القمل من ملابسنا ونقتله. وفي أوقات الطقس الحار، كنا نغسل ملابسنا في المجرى المائي العميق بجوار الكوخ. تقدم بيتر لدخول الكوخ، ومعه رجل الفوس –بيتر- وبعض من الرجال التابعين له، وأخذوا معهم الزوجين، صاحبي القصر، إلى الداخل. وبقيت أنا ويانكو بالخارج برفقة بعض السلوفينيين من تريستين الذين سيلاقون حتفهم في ما بعد أثناء مطاردة بعد تنفيذ تلك العملية مباشرة بأيام قليلة. وقفت على بعد نحو عشرة إلى اثنتي عشرة قدم من الكوخ لأسمع ما يقال بالداخل. في البداية قاموا باستجواب مربي الخيول الذي وجدوه جالسًا في مطبخ القصر في المساء. افترض رجال الفوس أنه نقطة الاتصال بين جارنيك والجيستابو في كراني. أمره أحدهم أن يفرغ جيوبه وحقيبة ظهره أمامهم، وسمعنا صوت ارتطام أشيائه بطاولة، ومن بينها أشياء معدنية وعملات. ثم ساد الهدوء لفترة، وقال شخص ما:

لا شيء هنا!

ثم تولى كوستيا استجوابه، وسأله عما كان يفعل هناك في القصر، ومن أرسله، ومنذ متى يعرف عائلة جارنيك. أجاب الرجل بصوت مرتعب وكلمات متلعثمة، شارحًا أنه جاء بسبب إصابة حصان، وأنهم أرادوا شراء أو بيع أحد الأحصنة. أكد جارنيك صحة أقوال الرجل، لكن كوستيا صرخ في مربي الخيول:

اعترف أنك نقطة اتصالهم!

فرد الرجل وهو يئن بعد أن تلقى لكمة ثم أخرى:

أي اتصال؟!

الاتصال مع الجيستابو.

ثم سمعنا ضربة قوية بصوت مكتوم، تلتها تأوهات الرجل ونحيبه، وقال أحدهم بالداخل:

انظر، لقد بال في سرواله.

فأجاب رجل الفوس:

لا يهمني ولو تبرز في سرواله، لن يغير من الأمر شيئًا.

فقال له كوستيا:

اتركه لحاله، يا بيتر!

بعدها بدأ ليو في الحديث عن شأن يخص الخيل حديثًا مطولًا، ومن بين ما قال إن فيرونيكا تحب الخيل، وانزعجت كثيرًا حين انكسرت ساق إحداها، وأخبرناها أنه لم يعد أمامنا حل سوى أن نمنحها طلقة الرحمة. وأضاف أنه لذلك طلب من هذا الرجل أن يأتي ليتحدث إليه بشأن شراء فرس

جديد، وفي الأغلب كان يتفاوض معه على حصان من فصيلة الليبيتسانر. وفجأة قاطعه بيتر محدثًا رفاقه:

هل سيستمر هذا الرجل في ثرثرته عن الخيل؟

ثم وجه حديثه إلى جارنيك:

كف عن ثرثرتك عن الخيول وأخبرنا عن الأشخاص الذين عينهم الجيستابو كحلقة وصل بينه وبينكم.

بدأ جارنيك يتحدث بهدوئه المعتاد، وصوته الرخيم المتواتر المتزن، كأنه يعطي أوامره إلى أحد من عماله، وقال إنه يتمنى ألا يكونوا قد نسوا مساعدته لهم بإرسال المزيد من الطعام إلى كوخ الصيد، والملابس وآلات الطباعة التي ابتاعها سرًّا من أجلهم بصعوبة، وأنه منحهم نقطة للتمركز في ساحة القصر الخارجية العام الماضي. فأجاب كوستيا:

نعم، بالطبع! لقد أتقنت الخدعة. تمنحنا آلة طباعة لتعمي أعيننا عن تعاونك مع الجيستابو.

واستطرد بيتر أن هبماير عميل الجيستابو أتى إلى ضيعة جارنيك في نفس الليلة التي سلمهم فيها آلة الطباعة، ورغم أنه حضر الاستلام بنفسه، لكنه تظاهر أنه لم ير شيئًا. وأنه دون شك كان على علم بالخدعة وتفاصيلها والهدف منها. إلى هنا، اندفعت فيرونيكا للتدخل في الحديث مقاطعة بيتر:

سيد.... بيتر! السيد هورست ليس عميلًا للجيستابو، هو مجرد طبيب عسكري.

ساد الصمت للحظات بعد أن تحدثت، وأدهشتني جرأتها في المقاطعة، على الرغم من أنه لم يتم توجيه أي اتهام لها حتى لحظة تدخلها في الحديث. كان من الواضح جدًّا أنها عازمة على حماية زوجها وتهدئة الموقف بقليل من الصمت والتروي اللذين تبعا تدخلها في الحديث. وواصلت بأسلوب ودود:

اسمك بيتر، أليس كذلك؟

تخيلت ابتسامتها المعتادة على وجهها في هذه اللحظة كعادتها حين تتساهل في الحديث مع الآخرين. أسلوبها الرقيق الودود يمكن أن يُلين الحديد ويذيبه. وواصلت دون أن تتلقى إجابة:

والدي كان اسمه بيتر أيضًا.

صوتها أثار في داخلي نفس المشاعر التي كانت دائمًا تنتابني حين تتحدث إليّ، فأشعر بوهن في عظام ركبتي من أثر ابتسامتها الساحرة ونعومة صوتها والدفء الذي يشع من جسدها نحو من يقترب منها. بمعنى آخر: الأنوثة التي توهجت في هيئة امرأة.

فجأة صاح بيتر:

اللعنة عليك، يا عاهرة الجيستابو! ما علاقة أبيك بي أنا؟!

أجابته دون تردد:

لقد ظننتُ.....

فقاطعها بصوته الجهير الغاضب:

ظننتِ؟.... كان الأولى بك أن تظني ما العواقب التي ستترتب على أفعالك قبل أن تعملي في الدعارة للجيستابو، أيتها المومس!

ثم تلى ذلك بعض الضربات التي بدا أنها كانت موجهة تلك المرة إليها، لكنها لم تبد أي ردة فعل أو صوت. وساد الصمت مرة أخرى، وسُمع في أثنائه صوت أنفاس متلاحقة، ثم قال كوستيا:

مهلًا، مهلًا! لنضع بعض قواعد النظام هنا! نحن لدينا فائض من الوقت لنتحدث عن كل شيء. يمكننا أن نتحدث حتى طلوع الشمس. أو إلى ما بعد ذلك، لا يهم.

ثم وجه حديثه إلى شخص بعينه:

أنت! اخرج من هنا! اذهب واعتنِ بخيلك الصغير!

بالطبع واضح أنه تحدث إلى مربي الخيل، واستطرد في حديثه إليه:

لو فتحت فمك لتقول أي شيء عما حدث هنا، تأكد أننا سنجدك، ونطلق على رأسك رصاصة تستقر فيها.

وأضاف بيتر:

أنت تعرف، بلا شك. أن من نسعى خلفه، نصل إليه.

لن أقول كلمة! أقسم إنني لن أفتح فمي وأقول كلمة واحدة لأي أحد!

ظل الرجل يردد وهو يتهيأ للمغادرة، كطفل يرتعد من الخوف، وانفتح باب الكوخ فخرج يعدو بينما ظلت قدماه تغرسان في الجليد، لكنه انطلق كمن ينجو بحياته وفي عينيه بريق الرهبة من هول ما رأت. ضحك يانكو حين رآه يقفز على الطريق، وقال له:

لا تقلق! كن سعيدًا!

أنا سعيد! سعيد جدًّا، فعلًا، سعيد.

استمر مربي الخيول في التعبير عن سعادته، بينما التفت يانكو ناحيتي، وقال لي:

اذهب معه، وأره أول الطريق. وهناك أعطه ركلة على مؤخرته ليسرع في الذهاب.

قلت له: «لنذهب، هيا بنا!»، وهبطنا إلى الطريق الذي يبدأ من عنده المسار الذي مهدناه في وسط الثلوج. بالطبع كنا قد أخفينا آثار أقدامنا وطمسناها بخوص الأشجار الذي قمنا بجره خلفنا ونحن قادمون، حتى لا يتبين أحد مسارنا في ما بعد. وبينما سرنا نحن الاثنان على نفس الطريق، لم يكن هناك سوى آثار قدمينا فقط، كأن لا أحد سبقنا في المرور منه، وكأننا أول من طرقه. ظل ينظر من خلف كتفه للوراء، فيتعثر ويوشك على السقوط. ظن غالبًا أنني سأقوم بقنصه من الخلف، لكنه لا يعرف أننا لا نطلق الرصاص على الأبرياء، وإنما فقط على الخونة والعملاء. كل ما في الأمر أنه تورط بالصدفة، وكان محظوظًا أنه خرج من تلك الورطة وهو لم يزل يتنفس. كلما فكرت في ذلك الموقف اليوم، واسترجعته، لم أفهم السبب وراء قرار كوستيا بإطلاق سراح هذا الرجل بكل

سهولة. ربما كان الرجل تابعًا لنا بالأساس، وذلك يفسر وجوده في القصر منتظرًا اللحظة التي سنصل فيها. ثم استخدموه لتمثيل مشهد استجواب وضرب وتهديد ليتم تغطية خروجه. إذا كان واحدًا منا فعلًا، إذًا فهو ممثل جيد. وإن لم يكن واحدًا منا، فهو بالتأكيد وغد محظوظ. لم يصدق أي من المشاركين في العملية احتمالية أن يكون واحدًا منا. حين وصلنا إلى المروج المغطاة بالجليد أعلى الطريق، نكزته في ضلوعه بماسورة مسدسي، وأمرته أن يختفي من أمامي. شاهدته وهو يهبط الطريق مسرعًا، ويسقط ويتعثر ثم يقوم ويواصل العدو والثلج يتساقط من ملابسه. حتى بعد أن ابتعد بما يكفي، ظل ينظر خلفه مرعوبًا كأنه لا يصدق أنه نفذ بجلده. التقطت غصنًا وارفًا من شجرة على الطريق، وسحبتها خلفي لأمحو آثارنا، وقفزت عائدًا إلى المسار المؤدي لكوخ جارنيك. لمعت أسنان يانكو البيضاء في الظلام من على مسافة، وحين وصلت إليه سألني ما إذا كنت فعلت كما قال، وركلت الرجل في مؤخرته. وتعجبت من أنه كان يتحدث إليَّ هامسًا. فقد وقفنا على منطقة مرتفعة، حتى إننا لم نعد نرى ولا حتى بقعة ضوء من جهة الوادي، وأحاطت بنا الغابة بأشجارها الكثيفة لتجعل موقعنا العميق بأدغالها آمنًا تمًامًا. فما الذي يضطره لأن يهمس؟ لاحظت أنه لم يزل يصر على استخدام الإشارة وملامح وجهه في الحديث، ورأيت يده ترتعش كأنه أخرجها للتو من قدر به ماء يغلي. همس لي: «إن الأمر يسوء بالداخل!»، حاولت أن أفهم ما يجري، ونظرت حولي لأجد أحد الرفاق من تريستين التصق بعيدًا بجذع شجرة وقد وضع يديه على أذنيه.

سمعت صوت ارتطام شديد، وصفع وركل في جسد ما، تبعه صريخ جارنيك وأنينه، ثم وقع ارتطام آخر كأن أحدًا أمسك كرسيًّا وقلبه في مكانه، ثم خطوات تذرع الأرضية، وأنفاس تتسارع وتثقل، وصفعات، وجسد يتم دفعه باتجاه الحائط.

سأحطم كل ضلع في جسدك! كل ضلع!

قال بيتر وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، وسمعت فيرونيكا تنتحب، وتقول بصوت يكاد لا يسمع:

أرجوك! دعه لحاله. ماذا تريد أن يقول لك؟ ماذا تريده أن يقول؟

صاح المفوض كوستيا:

هل من أحد هنا قادر على أن يخرس تلك العاهرة الألمانية؟ كيف يمكننا أن نحصل منه على أي معلومات طالما أن تلك المومس لا تتوقف عن الثرثرة؟! أخرجوها من هنا!

انفتح الباب، ونظرت من خلاله في الظلام الدامس لأرى المقعد الذي كان يجلس عليه جارنيك مقلوبًا على الأرض، وجارنيك مرميًّا على الأرض إلى جوار الحائط، ووجهه تضرج بدمه. وقف بيتر إلى جواره وراح يسحبه على الأرضية ليلقيه في منتصف الغرفة. كان ينظر بعين واحدة بعد أن تورمت الأخرى، وسال من فمه خيط من اللعاب الممزوج بالدم. أمسك واحد من رجال الفوس التابعين لبيتر –شاب داكن الشعر، مشمرًا عن ذراعيه- فيرونيكا من ذراعها، وثناه خلف ظهرها، ثم دفعها أمامه إلى خارج الكوخ. قال لنا:

احرسوها! علينا أن ننتهي من أمر جاسوس الجيستابو هذا أولًا، ثم سيأتي دورها.

وقف للحظات عند عتبة الباب، مباعدًا بين قدميه، وحدق خلفنا باتجاه الشجرة التي التصق بها

التريستيني، ثم سأل:

ما به؟ آها! يا له من صغير حساس!

نظر إلى يانكو، وقال له:

أرسله للحراسة أسفل الطريق حتى لا نضطر لتجفيف سرواله بعد أن يبلله.

سار خطوات إلى خارج الكوخ، وغمس يديه في الثلج الذي يغطي الأرض لينظفهما من آثار الدماء، ثم أخذ حفنة منه ونثرها على وجهه، ثم فركها فيه، ليبرد جسده من حرارة الطقس بالداخل. بعد ذلك، عاد وأغلق الباب من خلفه. وقفت فيرونيكا في وسط الثلج، تحدق في الفراغ أمامها. نظفت الأريكة المقابلة للكوخ وألقت فوقها بطانية لتجلس عليها، فنظرت إليَّ بامتنان. ثم تعرفت عليّ فقط في تلك االحظة، وانتظرت أن أسمعها تقول لي بدهشة: «إيفان! لم يحدث كل هذا؟!»، أو ربما: «إيفان! أنت واحد منا. أرجوك ساعدنا!»، لكنها لم تفتح فمها، ولم تقل شيئًا. فقط جلست على الأريكة، ورأيت كتفيها ترتعدان بقوة. واستمر الاستجواب بالداخل:

هل تعرف فالنر؟.... هل تعرف ريمشكار؟.... منذ متى؟..... هل كنت تعرف أن ريمشكار عميلًا؟...... لقد قمنا بتصفيته، وسوف نقوم بتصفيتك أنت أيضًا إذا لم تتكلم!....... هل علمت أنه كان يعمل لصالح فالنر؟

لم تكن إجابات جارنيك مسموعة، واستمر الاستجواب:

من هو هابماير؟.... هل هو نقطة الاتصال بينك وبين فالنر؟

طوال الوقت استمرت الأسئلة، وكذا استمرت الصفعات والضربات والركلات، ولم أستطِع أن أميز ما الفترة التي استغرقها كل ذلك. ظلوا يذكرون له المزيد من الأسماء، وبدا أنهم يعرفون ما يتعاملون معه، واختلطت أصواتهم بأصوات الألم المكتوم والضرب والارتطام المستمر طوال الليل. أذكر جيدًا أن مهمة مرافقة مربي الخيول إلى أول طريق الوادي والعودة منها قد استغرقت أقل من ساعة، وحين عدت وجدت الكوخ قد تحول إلى مسلخ. ولم أتمكن من تقدير الوقت الذي مر عليهم في الاستجواب إلى أن شعروا بالتعب، وسمعت كوستيا يقول:

الآن، لنعرف ما الذي فعلته العاهرة في برلين!

لم أسمع كوستيا وحدي، بل سمعته فيرونيكا كذلك. ونظرت لي وعيناها تفيض رعبًا وتساؤلًا، تمامًا كما نظرت لي يوجي حين وجدتني أقف على حراسة البوابة الرئيسة للقصر. نظرة توحي ضمنيًّا بالثقة في أنني لن أخذلهما، وأنني قادر على المساعدة، أو على الأقل تبرير ما يحدث. لكنني تسمرت في مكاني، وقلما حركت قدميّ فوق الجليد لأخفف عن ساقي ثقل جسدي، وظللت محدقًا باتجاه الوادي فتبينت في الظلام بقع ضوء متناثرة على الأفق. بدأت تلك البقع تزداد بعد أن حل موعد نهوض المزارعين من نومهم ليشربوا اللبن الدافئ، ومن ثم يتوجهون إلى الحظائر. عرفت أن الشمس قاربت على الشروق. ألقى يانكو بطانية إلى جوار فيرونيكا، وجلس عليها فوق نفس الأريكة. خلع قفازاته وأمسك يديها ونفخ فيهما ليمنحهما بعض الدفء. ثم ضمها إليه من كتفيها حتى التصقت بصدره. كل ما فعلت هو أنني وقفت أحدق في ما يجري بذهول، وقلت في نفسي: ما هذا الذي يحدث الآن؟! تحدث إليها بصوت منخفض كأنه يطمئنها أن كل شيء سينتهي على ما

يرام. أومأت له برأسها، فأسقط ذراعه إلى أسفل ظهرها، واستمر في التحدث إليها. قلت في نفسي أيضا: إذًا سينال ما يستحق لو انفتح هذا الباب فجأة وخرج منه كوستيا. وإن تناول كوستيا الموقف بسخرية، فإن بيتر لا يعرف السخرية، ولا يحظى بأي حس فكاهي. بكل تأكيد سيفقد بيتر أعصابه تمامًا إذا رأى ما يفعله يانكو، وبالطبع ستثير ملاطفته لها الشكوك فيه. لكن للأسف لم يحدث أي من هذا.

بدأ الاستجواب في الداخل من جديد، وراح جسد فيرونيكا يرتعد عند كل ضربة أو صرخة يتناهى صوتها إلى مسامعها. حتى أنا لم أستطع تحمل سماع ما يجري بالداخل، رغم أنني مررت بكل أنواع المعارك ورأيت وسمعت أسوأ ما قد يرى المرء في القتال، وذلك أثناء الأشهر التي قضيناها في جبال كارنيولا العليا نحارب العدو. لكن ما حدث في الكوخ كان مختلفًا، لذا لم يتحمله أيضًا الرفيق التريستيني حين انزوى عند جذع شجرة وسد أذنيه وتوسلنا إليه أن نرسله للحراسة بعيدًا عن المكان بقدر المستطاع. تمنيت أنا أيضًا لو أرسلوني بعيدًا، فقد كان الأمر صعبًا عليّ. لقد كانوا بمثابة عائلتي. أردت أن أعدو منطلقًا بكل قوتي بعيدًا عن الكوخ إلى الطريق الذي عدت منه لتوي بعد أن رافقت مربي الخيول عبره، إلى أن أبلغ بيتي، وألقي بنفسي وسط كومة من القش وأتمرغ فيها. إلا أنني بطبيعة الحال لم أقدر على فعل ذلك. وبدلًا من أن أجري، ابتعدت لعدة خطوات في وسط الجليد وإلى أقصى حد استطعت بلوغه بعيدًا عن الكوخ، حتى لم أعد أسمع شيئًا. قلت في نفسي إنهم لا يحتاجونني هنا، وكان ممكنًا أن يستغنوا عن وجودي من الأساس. كسرت بعض أغصان الصنوبر وفرشتها على الأرض، ثم جلست عليها، مستندًا بظهري إلى جذع شجرة. وغفوت من كثرة التعب.

حين انتبهت من غفوتي شعرت أنني لم أنم سوى لثوانٍ قليلة. لكن حين نظرت في ساعة يدي، وجدت أن ساعتين أو أكثر قد مرتا. عدت إلى الكوخ فرأيت الجميع يتأهب للذهاب حيث ظهرت خيوط الشمس الأولى في السماء، وبدأ الضوء يكسر ظلمة الليل ويتخللها رويدًا رويدًا. لم يلحظ أحد غيابي طوال ذلك الوقت. لم ينم أحد طوال الليل، وكنا جميعًا متعبين كسرب من الكلاب الضالة أنهكتهم مطاردة صيد ما، فسقطوا من التعب والإعياء. سمعت كوستيا ويانكو يتحدثان معًا عن شيء ما. قال كوستيا من الأفضل أن نقضي النهار في مكان قريب، ثم ننطلق في طريقنا إلى الغابة حين يسدل الليل ستاره. وقال يانكو لو فعلنا ذلك سنكون عرضة لتعقب الألمان لنا، وسيكون أول مكان يقصدونه كوخ الصيد. ومعنى ذلك أن نصعد إلى أعلى الجبل الآن عبر الممر الضيق هناك، ومنه إلى مقر الكتيبة الرئيس. فقرر كوستيا أن يأخذ باقتراح يانكو، وتحركنا جميعًا في طريقنا نحو الجبل. لم أجرؤ على السؤال عن الزوجين المشتبه بهما، وإلى أين ذهبا. تمنيت فقط أن يكونا قد أرسلاهما إلى الطريق المؤدي إلى الوادي، كما فعلت أنا حين رافقت مربي الخيول. لم يفارق وجه فيرونيكا خيالي طوال الوقت، وبقيت أتخيل هيئتها حين خرجت من الكوخ، ورتبت لها الأريكة الخشبية لتجلس عليها، وملامحها حين سقط على وجهها الضوء النافذ من جنبات الكوخ، وخصلات شعرها الذهبي الذي سقط على وجهها من أسفل قبعتها. تذكرتها حين شكرتني وتعرفت عليّ ونظرت في عيني كما لو أنني قادر على تغيير أي شيء يجري هنا. لم أدر قط ما الذي حدث بعد ذلك. قبل أن أتراجع بعيدًا عن الكوخ، رأيتها تنظر تجاهي مرة أخرى. اعتقدت أنني سأسمعها تقول: «وصلتني الأخبار أنك مقبل على الزواج يا إيفان!». كان آخر ما رأيت هو جلوس يانكو بالقرب منها، أردت أن أسأله ماذا حدث بعد ذلك، لكننا سرنا منهكين نقاوم الجاذبية في صعودنا

إلى أعلى الجبل عبر ذلك الممر الضيق، وكنت على وشك أن أفقد وعيي من التعب والإرهاق. راودني كذلك وجه ليو المضرج بالدماء. وفكرت أنه لو عاد إلى منزله وهو يجر ساقيه على تلك الهيئة، سيفكر مئة مرة قبل أن يستقبل ضابطًا ألمانيًّا واحدًا في بيته. حين بلغنا ذؤابة الجبل، نظرنا لأسفل لنجد أشعة شمس الصباح الساطعة قد أذابت الجليد على أرضية الوادي الخضراء. جلسنا لنستريح، وسندت ظهري إلى جذع شجرة بجوار يانكو وهو يقبع فوق حقيبة ظهره المنتفخة. نظر إليّ وغمز بعينه التي بدا أنه يفتحها بصعوبة من قلة النوم. ثم قال لي مازحًا:

لم يتطلب الأمر أن آخذها في جولة على الدراجة النارية.

شعرت بعرق بارد يسيل على ظهري:

لا تقل ذلك! أنت لم تجبرها.... يا للمرأة المسكينة!

كادت أنفاسي أن تتوقف ولهثت بشدة، لكنه قاطعني قائلًا:

لقد أرادت ذلك.

ملأت قبضتي بكومة من الثلج، وحشرتها في فمي لأذيب السخونة المتصاعدة من صدري إلى رأسي بعد أن شعرت بأن شيئًا ما بداخلي يحترق. ولم أرغب في أن أصدق أو أفهم. فقط سألته باقتضاب:

وأين هما الآن؟

اسأل بوجدان!

أجابني بأسلوب غريب، واعتدل واقفًا ليحمل حقيبته، ثم استطرد:

لقد كان آخر من رافقها.

ماذا تعني بآخر؟ آخر ماذا؟ آخر ماذا؟

صرخت في وجهه. لقد قصد أنه ليس الوحيد الذي.... بل إن الآخرين أيضًا...

في الأول كان يانكو، ثم الآخرون.... فيرونيكا؟!

بوجدان كان الأخير؟! ذلك البنَّاء ذو العينين الدقيقتين واليدين اللتين تشبهان الجواريف.

حاول يانكو أن يبتسم، مع الحفاظ على نبرة صوته المقتضبة الخالية من التعبير، وكرر ما قال:

اذهب واسأل بوجدان!

فأجبته بصوت أقرب إلى العويل:

عما سأسأله؟

فجأة في تلك اللحظة كرهت ابتسامته وصوته، وانقضضت عليه بعد أن دفعته بكل قوتي ليسقط منزلقًا على الجليد. لكمته وأحكمت قبضتي على وجهه، ثم غرست أظافري في رقبته، ورحت أضغط رأسه بين راحتي حتى برزت عيناه للخارج من وسط وجهه. خرج من حنجرته المختنقة

صوت متحشرج محاولًا أن يطلب النجدة من أحدهم. فسمعت كوستيا يصيح بي:

هل فقدت عقلك؟

أتى نحونا من بعده عدد من الرجال الآخرين، يجرون بأقصى سرعة ممكنة ويجاهدون لدفع الجليد عن أقدامهم، ثم شعرت بالكثير من الأيدي تحاول أن تخلص يانكو من يدي، وترفعني من فوقه. اثنان من الرجال عقفا ذراعيَّ خلف ظهري ليقيدوا حركتي، وسحبوني بعيدًا على الأرض حتى غمرني الثلج. وجلس أحدهم فوقي، تحديدًا على رأسي، وضغط على وجهي ليغرس رأسي في الثلج، فأصبحت بالكاد قادرًا على التنفس. وسمعت أحدهم ينزع البندقية عن كتفي، ويفك حزام المسدس من فوق خصري. سأل كوستيا:

هل نزعتم سلاحه؟

لم يخف الشخص الجالس على رأسي ثقله عن جسدي، وظل ضاغطًا عليه، لكنني استطعت إخراج رأسي من الثلج بعد أن كان مغروسًا بداخله.

حسنًا! أنت رهن الاعتقال! بتهمة الهجوم على رفيق أثناء تنفيذ عملية في أرض المعركة. ستحكم عليك قيادة الكتيبة بما تستحق.

وجه كوستيا كلامه إليَّ، ووقفت أنا ويانكو على أقدامنا. قال يانكو وهو يئن:

اللعنة! عليك اللعنة أيها الفلاح الغبي! هل فقدت عقلك؟

لكنه، حين رأى البنادق موجهة صوب رأسي، حاول أن يخفف من حدة الموقف وادعى أنه كان مجرد عراك ودي، بينما حاول أن يضحك وشفتاه تسيل منهما الدماء. فقال كوستيا:

عراك ودي من هذا النوع يمكن أن ينتهي بك إلى الكتيبة الثالثة عشرة.

بالطبع كنت على علم بالكتيبة الثالثة عشرة. هذا المصطلح هو إشارة إلى الإعدام رميًا بالرصاص في الظهر. بعدها رفضوا أن يعيدوا إليّ أسلحتي، وجعلوني في وسط الصف أثناء السير، ومن خلفي كان بوجدان يراقبني واضعًا فوهة بندقية في ظهري. وكلما أبطأت، لكزني في ضلوعي لأسرع. تقريبًا عند حلول الظهيرة، كنا قد وصلنا إلى مخيم الكتيبة الرئيس، عند سفح جرف صخري. وحتى هذه اللحظة، لم أعرف ما إذا كانوا قد أطلقوا سراح فيرونيكا أم لا، أو ما الذي حل بليو بعد أن تلقى كل هذا الضرب المبرح. لم أعرف لماذا تمنيت من قلبي أن يكون مجرد درس آخذه. درس قاسٍ ليس إلا. وتمنيت أن يكون هناك من يعتني به الآن ويضمد جراحه هناك في الضيعة. فتحت علبة طعام معدنية، وبلعت ما فيها جرعة واحدة، ورقدت في خيمتي، لأسقط في دوامة نوم سحيقة. ثم استيقظت عندما حل الليل. وسمعت الشخص النائم إلى جواري يصدر شخيرًا مزعجًا صاخبًا. ظللت أهزه ليستيقظ دون طائل، ولكن الشخير توقف للحظة، ثم بدأ مرة أخرى ولكن بصوت أعلى. مددت يدي في الظلام نحو وجهه حتى ارتطمت راحتي بأنفه فضغطت عليها وسددتها لأوقف الشخير. فتململ، وجلس مرتكزًا بكوعه على الفراش. أشعلت ولاعتي لأرى في الظلام وجه بوجدان مرعوبًا ومفزوعًا، يئن من التعب، ويجفل بعينيه الصغيرتين، ولما رآني، قال بغضب:

أهذا أنت يا وغد؟! لماذا أيقظتني من النوم؟

همست له:

بوجدان! ما الذي حدث هناك في كوخ الصيد؟

زمجر قائلًا:

لا حديث لي معك.

غضب الجميع مني لهجومي على يانكو، ولأنني كنت على وشك خنقه فعلًا. صمت بوجدان لحظات ثم قال:

أنت تعلم ما الذي اقترفته اليوم!

نعم، ربما!

قلت له، وعدت لسؤالي:

هل أنت... عميل الجيستابو هذا، أقصد هل أرشدته لطريق العودة عبر الوادي؟ كما فعلت أنا مع مربي الخيول؟

صمت بوجدان تمامًا للحظات. كان معروفًا عنه أنه ليس من أذكى أفراد الوحدة، وكان يحتاج دائمًا لتفكير طويل قبل أن يقول أي شيء. فكر لبعض الوقت لأنه لم يفهم كيف أنني لا أعلم كيف انتهت العملية رغم أنني مشارك بها. وبعد أن راجع معلوماته، دفعه عقله البطيء إلى أن يستفهم:

لكن، ألم تكن..... على قوة الحراسة... خارج الكوخ؟

نعم، كنت هناك.

بالطبع لم تكن إجابتي دقيقة. لم أستطع أن أخبره أني ضعفت من هول ما سمعت، وكدت أفقد وعيي، فتراجعت مختبئًا في أبعد مكان عن الكوخ.

إذًا! أنت لا تعرف ما الذي حدث؟

لا.

نعق كالغراب، قائلًا:

فقد بيتر السيطرة تمامًا حين رفض الوغد أن يعترف. كال له ضربـًا عنيفًا متتاليًا بلا توقف، لكنه لم يحتمل. حاولنا أن نعيده لوعيه، وسكبنا فوق رأسه ماء باردًا، ودعكنا وجهه بالثلج، لكن انقطعت أنفاسه تمامًا فعرفنا أنه قد مات.

وهي؟

استمتعنا معها قليلًا.

من استمتع معها؟

في البداية، كان يانكو. ثم آخرون.

أنت، أيضًا؟

لم يجب، واكتفى بقوله:

لم نستطع أن نطلق سراحها أو نتركها حية بعد ما جرى.

واستطرد:

الآن، توقف عن استجوابي، وأعد نفسك للاستجواب غدًا صباحًا أمام هيئة المحكمة.

بالفعل لم أسأله سؤالًا آخر. لم أرغب في معرفة الطريقة التي تخلصوا من فيرونيكا بها. اكتفيت بأن عرفت كيف أنهوا حياة زوجها. لا بدَّ أنهم وجدوا طريقة أخرى غير إطلاق النار. نحن لا نطلق النار في الحقول حتى لا نكشف عن أماكننا. ونحن كنا في أرض المعركة في الحقول، وعلى وشك الانسحاب بعد تنفيذ عملية. لم يغمض لي جفن طيلة الليل، وبقيت مستيقظًا أنصت إلى شخير بوجدان، وأرتعش بين الفينة والأخرى كلما فكرت في ما جرى لفيرونيكا، وأقول لنفسي إن هذا ليس ما أردته أن يحدث حين تحدثت إلى رئيس المحطة. واسترجعت ما وصفه بوجدان بالتفصيل لكنه لم ينطوِ أصلًا على أي تفاصيل، فشعرت أني غير قادر على استيعاب ما قال. ربما تعطل ذهني عن التفكير بعد ما قاله يانكو. فما قاله كان أكبر من استيعابي. كان آخر ما رأيته أنهما جلسا على الأريكة معًا. ورأيت يده تنزلق على ظهرها لأسفل. ثم حين رأيته بعدها، قال لي إن الأمر لم يتطلب أن يأخذها في جولة على الدراجة النارية. لو أنهما ركبا الدراجة معًا، وحدث بينهما شيء ما، فبالتأكيد سيكون شيئًا مختلفًا تمامًا. ولكن ما حدث فعلًا كان أمرًا لا يصدق. لقد أخرجني عن شعوري بقوله، فلم أجد نفسي إلا وقد قفزت فوقه وأمسكت بخناقه. لم أنعم بالنوم في تلك الليلة أبدًا. تقافزت أفكاري من يانكو إلى فيرونيكا إلى شخير بوجدان الذي يرقد إلى جواري، ثم مرة أخرى إلى يانكو وهكذا. مع بعض التفكير في المحاكمة التي ستقام لي غدًا.

لم تمر الليلة المشؤومة على خير. قبيل اكتمال الشروق، وقبل أن ينتشر ضوء الشمس، دوى خارج الخيام صوت طلقة نارية واحدة أيقظت الجميع من النوم. بعدها سادت لحظة صمت، تبعها سيل من طلقات البندقيات الآلية. انطلقنا جميعًا إلى الخارج فسمعنا أحد الحراس يجري ويصرخ قائلًا: «المخبولين!». أمضينا النهار كله في اعتلاء التلة بأقصى قوة وسرعة، ثم هبطنا منها على الجانب الآخر سائرين عبر ممر ضيق لم يسبق أن مررت به من قبل. بمجرد أن بلغنا السفح بنهاية الممر، جلسنا لنلتقط أنفاسنا بالقرب من مجرى مائي مرتفع تجمد من البرودة. لم يمر وقت طويل على جلوسنا حتى انطلقت النيران مرة أخرى، وجاءت هذه المرة من جهة لم نكن لنتوقعها أبدًا. جاءت من أعلى. فريق الاستطلاع الذي أرسلناه قبلنا ليؤمن الطريق اصطدم بمجموعة من الجنود الذين استطعت أن أتبين ظلالهم الخاطفة بين الأشجار وهم ينتشرون على جانبي الممر الضيق. اللون الأخضر الذي استطعت تمييزه كان لون زيهم العسكري. عندئذٍ أدركنا أن لا طائل من الإقبال على مخاطرة بالتلاحم معهم. تقهقرنا مرتدين إلى نفس الممر الضيق من حيث جئنا، متسلقين الصخور مرة أخرى. سقطنا في ممرات الثلوج الضيقة، وسحبنا وراءنا قوات الحراسة الخلفية التي تحمي ظهورنا. مضت عشر دقائق، أو عشرون، لا أدري، إلى أن توقفت النيران فجأة مرة أخرى. واصلنا تسلق المنزلقات الصخرية وسط غابات الصنوبر الجليدية، وحين بلغنا القمة، انزلقنا جميعًا

لأسفل على الناحية الأخرى حتى آخر حارس مؤخرة. بعدها وجدنا أنفسنا أمام ممر ضيق آخر، فتسلقنا الصخور لنخرج منه على الجانب الآخر. ظننا أنه من المستحيل أن يكون هناك كمين آخر قد نصب لنا على هذا الجانب، وفي الوقت نفسه أدركنا أن العودة مرة أخرى للهبوط إلى الجانب المقابل من التل ستعني أن نكون معرضين للخروج إلى الطريق الرئيس، وهو الانتحار بعينه لأننا سنصبح أهدافًا واضحة في أرض مكشوفة يمكن إطلاق النار علينا بدقة وسهولة. لذلك استمررنا في التسلق إلى أعلى أكثر، وانقطعت أنفاسنا وغمرتنا الثلوج، وأنهكنا التعب لدرجة أننا توقعنا أن نقع صرعى فجأة في أي لحظة. بحلول الليل، بلغنا سفح جرف صخري، ووجدنا هناك العديد من دوامات الثلوج التي خلفت تلالًا متراكمة منها تحيط بأكوام صخرية جافة تمامًا تقريبًا. أرسل كوستيا دوريات إلى جميع الاتجاهات، وعادوا بلا استثناء بالأخبار السارة. أكدوا أنهم لم يروا أصحاب المعاطف الخضراء في أي مكان، وأنهم رأوهم يتجهون صوب مكان بعيد. أعددنا مخيمًا، وقال يانكو لو أننا محظوظون بما يكفي سنتحمل البقاء في هذا الموقع لعدة أيام، حيث إنه مناسب وغير مخترق وآمن، وقال إن صعودنا لأعلى كان تحركًا ذكيًّا.

اضطررنا لمواصلة السير على خط المحيط الخارجي للغابة، وهبطنا على مدار هذا الشتاء إلى داخل بعض القرى المنحازة تمامًا للموالين والموثوق في أهلها. كان واضحًا تمامًا أنهم تعقبونا بعد عملية بودجورسكا، وقرروا مطاردتنا ومحاصرتنا حتى يتمكنوا من القبض علينا. لكن الأمر صعب عليهم لأننا بلغنا هذا الارتفاع الآمن، ولا يوجد في وحدات الجيش الألماني ما يشبه الجنود العاديين التقليديين، بل كان أغلبهم كبار سن من أنحاء المنطقة أو من كارينثيا النمساوية. أما جنودهم المدربون على الالتحام بالأيدي والمطاردة على الأرض في الظروف الصعبة كانوا إما في إيطاليا أو في روسيا. قرأ لنا كوستيا الأخبار اليومية عن تقدم الجيش الأحمر وتقهقر الألمان إلى خارج إيطاليا. لكن الحق يقال؛ إن أي تمركز للجنود الألمان -أيًّا كانت أعمارهم- لا بدَّ أن يؤخذ على محمل الجد، حيث إن أسلحتهم كانت بالفعل مميتة، ولا تخطئ الهدف، وتقتل بنفس كفاءة أسلحة فرقة الشوتشتافل –المعروفة بالـ إس إس- النازية. وهم في تحركاتهم لم يتركوا شيئًا للصدفة، بل كانوا يطاردوننا بكامل عدتهم وعتادهم وآلياتهم وأسلحتهم الثقيلة، وقاذفات الهاون الجبارة.

شعرت بالراحة وهدوء النفس عند سفح الجرف الصخري المرتفع، إلا أن القلق من لحظة محاكمتي واستجوابي استمر يؤرقني. وتوقعت أن يستدعوني في أي لحظة بعد أن استقررنا في ذلك المكان وصار الوقت مناسبًا لتلك المحاكمة. لكن يانكو جاء إليّ ضاحكًا ذات يوم وضربني على ظهري ممازحًا، وسألني:

ما بك؟ أما زلت خائفًا؟

وفهمت قصده من أنني خائف من الاستجواب عن التمرد أثناء تنفيذ عملية ومهاجمة رفيق والاقتتال معه، وليس من الألمان. وقبل أن يتسنى لي أن أجيبه، قال لي بنبرة مرحة ودودة كما اعتاد في الأيام الخوالي:

لا تخف! لقد توليت أمر كل شيء. أخبرت كوستيا وقائد الكتيبة أنني أنا البادئ باستفزازك والهجوم عليك. وشرحت لهم أنك فلاح عنيد، رأسك يابس، وأنك هاجمتني دفاعًا عن نفسك.

لا أذكر الآن إذا كنت قد شكرته حينها، ولكني أذكر أنني تنفست الصعداء واستغرقت بعدها في نوم عميق. شعوري بالتخلص من هذا العبء الذي أثقل كاهلي جعلني أنسى فيرونيكا وكل ما حدث في تلك الليلة في كوخ الصيد. وأيقنت أن حياة المرء حين تكون على المحك، يصبح إنقاذها هو الأولوية ولا شيء غيرها. وقد رأيت الموت بعيني مرتين بعد عملية بودجورسكا: في المرة الأولى، كنت سأقتل برصاص المحتلين الألمان كما قتل التيريبيستيني وخلفنا جثته وراءنا مدفونة في الثلوج، وربما لقيت أنا أو يانكو نفس مصيره. قاتلنا كالحيوانات الضارية المطاردة، وكانوا هم الصيادون القناصون الذين لا يعرفون الرحمة. وفي المرة الثانية، عرضت نفسي لأن أقتل بأيدي عشيرتي بنفس الطريقة التي كنت معرضًا للموت بها على أيدي العدو. يانكو أنقذني في اللحظة الأخيرة، وفي المرتين. لأنه لم ينقذني فقط من الاستجواب الذي كان في الغالب سينتهي بالإقرار أني مذنب، وإنما كذلك بتكتيكه الذكي في التقهقر بالصعود إلى أعلى الجبل، وإرشادنا عبر الممرات الضيقة ومسارب الجبال التي عرف جيدًا بداياتها ونهاياتها. وهكذا لم ينقذني وحدي، بل أنقذنا جميعًا. أما أنا، فأنقذني مرتين.

لم نفتح هذا الموضوع قط بعد ذلك. لم نتحدث عما جرى في كوخ الصيد، ولا عن كذبته على قائد الكتيبة لينقذ حياتي، قبل أن يتم إحالتي إلى الكتيبة الثالثة عشرة. ما فعله من أجلي كان أكبر من أن يثمن أو يقدر. وقد ظل يطمئننا بكلماته الواثقة الحصيفة طوال الوقت الذي استمر الألمان خلاله في مطاردتنا، ليجعلني أشعر بالراحة والرغبة في الاسترخاء على أغصان الصنوبر داخل الخيمة، حتى في ظل وجود بوجدان إلى جواري بجسده الضخم الساخن الذي لا يتوقف عن الاهتزاز كلما علا صوت شخيره، فلا أبالي لكل هذا وأستغرق في نوم عميق دون تفكير أو قلق. شيء وحيد لن أنسى أنني رأيته في حياتي للمرة الأولى في معسكر أعلى الجبل تحت الجرف الصخري. في أول ليلة رأيته فيها كانت الساعة قاربت على الرابعة فجرًا، ومن يومها ظل يزورني لسنوات عديدة بعد الحرب. في نفس تلك الساعة الغريبة، وبعد انقضاء الليل، وقبل ظهور أول خيط من ضوء الصباح، يأتيني ذلك الشبح كما أتاني أول مرة؛ حين نمت على أغصان الصنوبر، عند سفح الجرف، واستيقظت فجأة لأنظر إلى الوادي، فأرى على مسافة بعيدة كتلة معتمة من الريش تطفو في الهواء فوق شجرة صنوبر، تحت ضوء البدر المكتمل الذي فرش ضوءه على الغابة والحقول بأكملها في الأسفل. المكان من حولي خالٍ من الجميع؛ لا وجود لبوجدان -الذي نمت لتوي على صوت شخيره- أو يانكو أو كوستيا المفوض، أو أي من الرفاق الآخرين. وظننت أن الجميع رحلوا وتركوني وحيدًا على قمة ذلك الجبل بلا رفقة، على قمة أطراف الغابة وفوق الأشجار السامقة، بين الصخور المغطاة بكتل الجليد، تحيط بي البرودة من كل مكان. ثم أعود أنظر إلى الوادي، فأرى كتلة الريش الداكنة وقد نما لها جناحان، وتتحول إلى طائر هائل يفرد جناحيه بعرض السماء، وأرى بدلًا من مخالبه أيدي تشبه الجواريف.

يخفق الطائر جناحيه بقوة، ويرتفع لأعلى، ثم يظل يدور لبعض الوقت دورات متتالية في أفق الغابة إلى أن يراني، ويلاحظ وجودي. فأستغرب أنه استطاع رؤيتي من تلك المسافة الطويلة ومن موقعي على منزلق قمة الجبل. لكنني من نفس المسافة والموقع، استطعت أن أنظر في عينيه الصفراء البراقة التي برزت في رأس بملامح مختلطة بين الطائر والفأر، وأسفلها منقار به أسنان قارضة، ضخمة وحادة. تعلمت في الطفولة أن الكاسر يستخدم منقاره الحاد في نزع جلد الحملان الشاردة عن لحمها بعد أن يصطادها. حين استرجعت شكل منقار الصقر والباز المعقوف، وجدت

أن منقار هذا الطير لا يشبه منقاريهما. فقد كان مستقيمًا ومسطحًا، وبين كلابيه تتراص قواطع حادة شديدة الصغر تبرز من الجانبين. حين دققت النظر تذكرت أنني رأيت هذا المنقار من قبل؛ على الحائط في قصر الضيعة، معلقًا أمام المدخل الرئيس. كان نفس فك التمساح المحنط المحشو، والرأس الذي اختلط ملامحه بين الطائر والفأر كان رأس التمساح، يغطيه جلد غليظ عريض وبالٍ. نظر الطائر حوله في كل اتجاه، وفجأة ثبت عينيه عليّ وحلق بجناحيه الخفاقين الهائلين متجهًا نحوي. أطلقت ساقيّ محاولًا الفرار منه، فأبصرت أمامي الجبل ينفتح كالمغارة السحيقة، وبحثت بعينيّ الزائغتين عن مخبأ، ولو حتى كهف أو شرخ عميق في جدار الجبل، لكن الطائر العملاق بريشه الكثيف يلحق بي ويحلق فوقي. ظللت أجري بكل قوتي، وأشعر أن هذه المطاردة لن تنتهي أبدًا. تتعثر قدمي فجأة في كومة من عروق الصخور المتلاحمة وأسقط على ظهري مثل خروف في وضع الذبح، أو حمل صغير أوشك أحد الكواسر أن يطبق عليه بمخالبه ليقطع جلده عن لحمه وينهشه، ثم ينثر بقاياه وينتفها ليحملها إلى صغاره في العش.

وبينما أنا مستلقٍ على ظهري، تأتيني فكرة، فأقول له مسرعًا كغريق ألقوا له طوق النجاة: «أنا لا!»، وأكرر، «لا تأخذني أنا!»، وأكمل بأنفاس متلاحقة: «هناك جثتان في أسفل الوادي، اهبط إلى هناك»، ثم أشير إلى الحافة المرتفعة فوق الغابة، حيث يرقد ليو وفيرونيكا، وأرى جثتيهما غارقتين في الدماء. «الدماء في جثتيهما لم تزل ساخنة! خذهما، مزقهما، التهمهما!»، فيلف الطائر رأسه المستدير بوجهه الذي يحمل ملامح الفأر والطير والتمساح نحو المكان الذي أشرت له إليه، ثم ينطلق إلى هناك. أحبس صرخة في حلقي وصدري، وأنطق بعض الكلمات غير المفهومة، وأشعر أن روحي تحاول أن تتنفس الصعداء وتصيح معبرة عن سعادتها بعد نجاتها، لكن الأنفاس لا تصعد، والصوت مكتوم، وطعم الكلمات المسجونة في اللسان مرير وثقلها مؤلم. أرى وجه فيرونيكا الخالي من الحياة، إلا من عينيها المفتوحتين، تحدقان في وجهي، وشعرها الذهبي وقبعتها الصوفية قد غطاهما الثلج. في الليلة التي راودني فيها هذا الكابوس لأول مرة، استيقظت من نومي، ونظرت إلى خارج الخيمة، فرأيت ضوء القمر لم يزل منتشرًا في كل أرجاء المخيم، وكذا فوق الأجراف والغابة بأكملها. كما رأيت ظل حارس يجلس في مناوبته بالخارج، وقد اتكأ على صخرة، يقاوم النعاس. وإلى جواري بوجدان يغط في نومه ويعلو هدير شخيره كالمعتاد.

بعد أن انتشرت أنباء اختفاء أصحاب الضيعة، ووصلت إلى القرى المجاورة، قرر المفوض كوستيا أن يطبع منشورًا يشرح فيه أنه قد تم إعدامهما من قبل البارتيزان حتى يعرف الناس ويتذكروا، ويكونا عبرة لمن لا يعتبر –هكذا قال لنا وهو يكتب المنشور- وقد برر إعدامهما بأنه: «قد ثبت تعاونهما مع العدو وكانا على اتصال بالجيستابو، وبالتحديد مع مصاص دماء الشعب السلوفيني العميل الدموي فالنر. وتحت ستار اجتماعات العمل، وبمساعدة زوجته، فتح جارنيك أبواب بيته لأكثر المجرمين وحشية، واستقبلهم تحت سقفه. وعليكم ألا تنخدعوا بالشائعات التي تنشر كلامًا لا أساس له من الصحة عن أنهم قدموا المساعدات لحركة التحرير المناضلة، لأن ما فعله الخونة لم يكن سوى غطاء ليخفوا وراءه أنشطتهم الجاسوسية. وقد سقط القناع، ومحكمة الشعب أصدرت الحكم النافذ».

تم طبع نسخ عديدة من المنشور في ورشة الطباعة السرية باستخدام آلة الطباعة والنشر التي اشتراها لنا جارنيك. ولطالما تساءلت كم عدد المنشورات التي وصلت إلى أيدي الناس فعليًّا لأن ما طبعناه ووزعناه لم يؤثر في الشائعات التي تناقلوها عن أننا خطفنا وقتلنا بريئين من سادة وخيرة

الناس، وهو ما ظل راسخًا في قناعة الجميع على مدى سنوات طويلة ولم يتغير. قالوا عنهما: «زوجان خيِّران عاملا خدمهما بكرم أخلاق ورعاية واحترام، ومدوا للموالين يد المساعدة!». كما راجت شائعة أخرى مفادها أننا لم نزل نضعهما في الحبس بمكان ما بغابة كوتشيفس وأنهما سيحصلان على حريتهما إن آجلًا أو عاجلًا. وقد بلغنا أحد المخبرين –بالطبع بعد الحرب استمر المخبرون في عملهم لصالحنا، كما وسعنا شبكة الاستخبارات وزاد عدد المخبرين عما كان عليه أثناء الحرب- بتلك الشائعة، واعتبرناها واحدة من سلسلة الأكاذيب المتتالية التي أحب شعبنا نقلها وتكرارها للإساءة إلى سمعه جبهة التحرير.

في عام 1944، وبالقرب من كوخ جارنيك بالغابة، عثر أحد عمال الغابات من ياسنا على أجزاء من جمجمة امرأة شقراء، أخرجها ذئب من حيث دفنت قريبًا من سطح الأرض بعد أن حفر في موقع دفنها، ثم حملها إلى موقع مجاور وألقى بها فيه. تلك هي نوعية الشائعات التي أحبها الناس في بلادنا، بالتحديد الشائعات التي تثير الاشمئزاز والرعب. فكلما زاد هذا الرعب، أحبوا أن ينشروها ويتناقلوها بحماسة ومتعة. انتشرت الكثير من الأقاويل أثناء الحرب، ثم سرعان ما طواها النسيان لكن القصص عن جمجمة الشقراء لم تُنسَ، حتى بعد النصر والتحرير. وفي عام 1946، بدأنا البحث عن عامل الغابة في ياسنا، وبعد شهور من التقصي لم نعثر على شخص بنفس تفاصيل أوصافه. فقبضنا على الفلاح السكير الذي يعيش في قرية جورينيا لأنه ينقل الشائعة من حانة إلى أخرى. وعند استجوابه، اكتشفنا أنه لا يعرف عامل الغابة معرفة مباشرة، فتثبتنا من كذبه، وأخضعناه لمحاكمة سريعة، صدر عليه بموجبها حكم بالسجن لعامين بتهمة ترويج الشائعات. بعدها لم يصادف أن رأيته مرة أخرى، ومنذ البداية لم أصدقه. وبمرور الوقت، نسيت كل شيء عن ذلك الكلام الفارغ من معناه الذي يكرره الناس، فقد كان لدينا الكثير من المهام التي شغلتنا، لأننا كنا نعيد بناء البلد على أساس جديد.

بعد سنوات عديدة، تسبب بوجدان بتصرف غبي في إثارة الرأي العام مرة أخرى، وتذكير الناس بتلك الأحداث، مما جعل الجميع يتحدث مرة أخرى عن الواقعة. حدث ذلك في سبتمبر من العام 1954 بعد أن تم تقسيمنا إلى جهات أربع ولم نعد نرى بعضنا بعضًا إلا بالصدفة وفي احتفالات المناسبات الكبرى. كنا في القطار متجهين إلى أوستروجنو لنحضر خطبة أخرى للمارشال بعد خطبته الشهيرة في 1945 في ليوبليانا. وقد ألقى خطبة عصماء أججت مشاعرنا الوطنية، وألهبت حماسة الحشود التي جاءت لتسمعه. بعد الخطبة، قدموا لنا يخنة الغولاش الساخنة مع بعض الخمر، واسترجعنا ذكرياتنا أثناء تناول الطعام. في رحلة العودة، استقللنا نفس القطار. حمل بوجدان زجاجة خمر، وظل يشرب منها حتى الثمالة، وبعدها راح يتنقل من كابينة إلى أخرى حاملًا الزجاجة في سلة من القماش بيده التي تشبه الجاروف. بعد قليل، بدأ في الحديث عن ميدالياته والتفاخر بها. ثم جلس وسط مجموعة من الشباب من نفس منطقته قريتنا، ولاحظت أنه كان يحكي لهم قصصًا جعلتهم يستمعون وأفواههم مفتوحة عن آخرها من الدهشة. اعتدنا على مثل تلك المواقف بعد الحرب، حيث أراد الناس أن يستمعوا إلى مغامراتنا ليعرفوا كيف كانت حياة البارتيزان، وما الأهوال التي رأوها. كان الموقف ليمر عاديًّا جدًّا كأي موقف مشابه لو لم يكن بوجدان مخمورًا إلى هذه الدرجة ما جعله يقول كل ما يعن على تفكيره أيًّا كان.

بعد أيام، جاء لزيارتي رجل من ليوبليانا، وأظهر لي هويته، وأخبرني أنه عميل شرطة سري وأنه جاء من طرف الرفيق بيتر، وتمنى أن أكون على معرفة بهذا الرفيق.

بالطبع أعرفه! لقد تقابلنا في عمليات النضال من أجل التحرير.

وهل تعرف رفيقًا آخر كان يعمل بناء في مشاريع الطرق، واسمه بوجدان، معرفة جيدة؟

وكيف لا؟

أجبته ممازحًا:

طالما استمعت إلى صوت شخيره في ليالٍ عديدة نام فيها إلى جواري في خلاء الغابة.

لذلك يظن الرفيق بيتر أن من الأفضل أن يتحدث معه أقرب الرفاق في الخدمة إليه أولًا وقبل أن نتخذ إجراءاتنا معه.

عرفت منه أن بوجدان أخبر مجموعة الشباب في ذلك القطار أنه كان مخولًا بمهمة دفن امرأة تم إعدامها في شتاء 1944، ولأن الأرض كانت مغطاة بطبقات من الثلج المتجمد، ولم يجد وقتًا كافيًا لحفر مقبرة طويلة لدفنها، فقد قرر أن يقطع ساقيها ليسهل على نفسه المهمة. أراد بيتر أن أذهب إلى بيت بوجدان وأشرح له أن إثارة الأحاديث من جديد حول هذا الموضوع ليست أمرًا جيدًا، والثرثرة بكلام لا معنى له لن تفيد. ولذا سيكون من الأفضل أن يبقى فمه مغلقًا. وبالفعل زرته وبلغته الرسالة، فجفل وهو ينظر لي بعينيه الدقيقتين، ولاحظت أن يديه اللتين وضعهما أمامه على الطاولة قد سرت فيهما رعشة خفيفة. وظننت أن سبب تلك الرعشة هو إفراطه في شرب الخمر حين رأيت كأسًا فارغة على الطاولة. فأخبرته بنصيحة مني بالإضافة إلى ضرورة أن يبقي فمه مغلقًا، وهي أن يقلل من كميات الخمر التي يتناولها. فقال لي بعد صمت:

لقد تمادوا! لقد عانينا الأمرين في أدغال تلك الغابات الملعونة!

لم يزد على قوله قولًا. ولم أسأله عما قال للشباب في القطار، أكان صحيحًا أم لا. ربما لأنني لم أرغب في سماع ما سيقول. وفي الليلة التالية، وبعد أن عرفت ما فعله بوجدان عند الكوخ، راودني الكابوس نفسه، ورأيت الطائر الأسود العملاق يدور حول رأسي بينما انسد أمامي الطريق حين انفتح الجبل ولم أجد مخبأ ولا ممرًّا للهروب. ظل الكابوس معي منذ عملية بودجورسكا، ومنذ الليلة الأولى التي رأيته فيها وأنا نائم بجوار جسد بوجدان الدافئ الضخم. وفكرت في ما قال الرفيق يانكو كرالي حين زرته قبل أسبوعين من وفاته؛ فربما بالفعل اقترفنا خطأ بالقيام بتلك العملية، وأضاف:

نعم، ربما لم يكن لدينا دليل كافٍ، ولكن علينا أن نضع في الاعتبار أننا كنا صغارًا، وقد أجهدتنا المعارك المستمرة وجعلتنا نفقد عقلنا. طاردونا كالحيوانات الضالة وكأننا وحوش، وأحيانًا اضطررنا أن نرد الهجوم بهجوم أشرس منه.

وقد كان على حق!

حين سأخبر ابني يانكو -الذي سميته على اسم صديقي- بذلك يومًا ما سيتفهم. سأخبره أننا اضطررنا إلى رد الهجوم بالهجوم وتعلمنا كيف نفعل ذلك. لكنني بالطبع لن أخبره عن أصحاب القصر، وما فعلناه بهما في كوخ الصيد. لن أخبره بشيء مثل هذا، فيكفيه أن يقرأ ما هو مدون في المذكرات الموضوعة على أرفف مكتبتي؛ فقد تم إعدامهما. سيعرف حين يقرأها كيف عشنا بين

الحياة والموت؛ وكيف يعيش المرء وهو لا يدرك الزمن، ولا يعرف إذا كانت الساعة التي يعيشها ليلًا أم نهارًا. خاصة حين يرى الهلال على جانب من السماء، والشمس على الجانب الآخر تصعد في السماء شيئًا فشيئًا قبل أن تشرق. حين كنت شابًّا، كنت أخرج في تلك الساعة من بيتي لأبدأ عملي في جز العشب، وأرقب السماء في البكور لأتنبأ بما إذا كان هناك سحب ستتكون على صفحتها أم لا. وسيفهم ابني لماذا رسمتُ تلك «البقع الزيتية» –كما يسميها- على الحائط، ولماذا أجلس إلى جوارها أحيانًا لأتناول كأسًا من الخمر مع الرفاق الذين رحلوا عن هذا العالم، كما رحل يانكو اليوم، وأهيل التراب على جسده الذابل في تابوته الخشبي بعد أن حفروا له حفرة عميقة في جوف الأرض البارد دائمًا.

5- عائلة ملكية من أصول سلوفينية أسست مقاطعة بوميرينيا الألمانية على الحدود الشرقية البولندية).

الترجمة

ترجمت (تلك الليلة) إلى اللغة العربية عن نسختها الإنجليزية للمترجم ميشيل بيجينز، المقيم بمدينة سياتل، وقد ترجم أكثر من عشر روايات من الأعمال الطويلة لأشهر الكتاب السلوفينيين غير دراجو يانتشر، فلاديمير بارتول، وتوماج شالامون، وقامت دالكي أركايف بنشره أعمالهما المترجمة. كما ترجم أيضًا أعمال هاركورت، وأرشيبيلاجو، وغيرهم.